THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م. Publishing & Distribution L.L.C. الإمارات U.A.E.

الدار العربية للعلوم ناشرون Arab Scientific Publishers, Inc.

376

القانوني

السيف لا يقيم العدل

A.M.



أوقاي ترياقي أوغلو

رواية

Sat.
13/7/2013

القانوني

القانوني: سلطانُ العدالة الذي اتّخَذَ من قوله: «وما الدنيا إلا خيالٌ» شعاراً له.

حُرّم: عاشقة القانوني التي روت بدماء عشقِها رسائِلَها وحبِّ السلطة.

ابراهيم البرغالي: خبيرُ الدّسائِسِ الذي يضعُ نُصْبَ عينيهِ كل أنواع الغَدْرِ في طريقه من العبودية إلى تولي منصب الصدر الأعظم.

وهيمي: الجاسوس القويُّ المُحَنّك. اشتهر بصراعِهِ مع عملاءِ الفاتيكان في شَتّى أنحاءِ العالم.

فَتْحُ بلغراد التي وقفـ ... أسوارها وحاصرها، وسبعة أشْـهُرٍ في حصـ ... ـهرُ ميدانِ قتالٍ في العالم... «موهاج !».

.... والكثير غيرها من الأحداث والشخصيات التاريخية التي أثارت الفضول، وشغلت اهتمام المؤرخين ستجدونه في هذه الرواية (القانوني)، التي كتبت بأسلوب رائعٍ وبخيالٍ مدهشٍ يحبس الأنفاس للروائيِّ الحائز على الجوائز «أوقاي ترياقي أوغلو».



ISBN 978-614-01-0637-6



تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

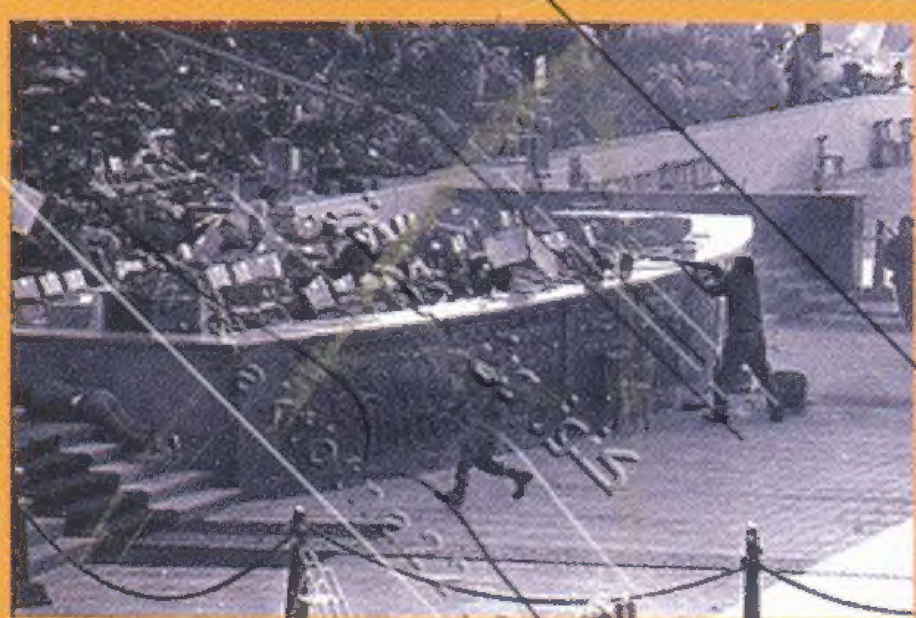


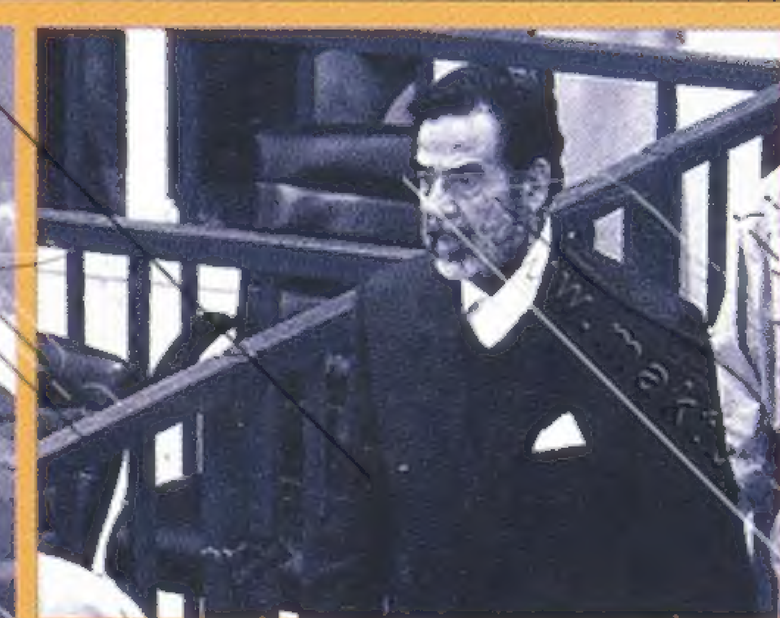
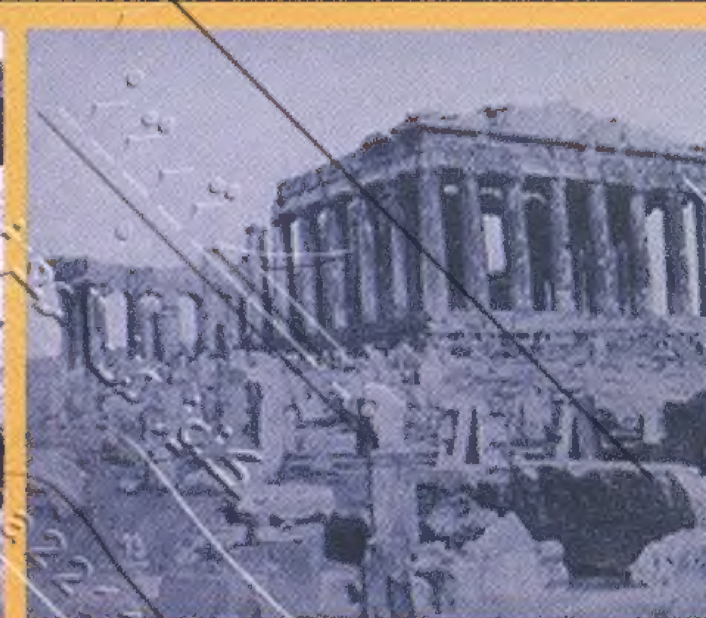
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

مجدي كامل

أحداثُ التاريخِ الكُبرَى

أحداثٌ جسامٌ غيرتْ مجراهُ وحولتْ مسارَه



القانوني

السيف لا يقيم العدل

KANUNİ

Kılıcın Yapamadığını Adalet Yapar

رواية

أوقاي ترياقي أوغلو

OKAY TIRYAKIOĞLU

ترجمة

مصطفى حمزة

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م. الإمارات U.A.E.

Publishing & Distribution L.L.C.

الإهداء

إلى والدي

(2009-1950)

المحتويات

﴿ ...وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾

بقلم المترجم

سقطت القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني «الفاتح» عام 1453، وبذلك فُتِحَتْ إسطنبول، وتحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ». وتردد صدى هذا الفتح في أوروبا كلها واستنفرها، ثم امتدت بعد ذلك الفتوحات، وبلغت أسوار فيينا في محاولةٍ من المسلمين لاستكمال الطوق والاتصال بالأندلس من الشمال، وشكل ذلك ضغطاً كبيراً على أوروبا، وحرضها على تعديل بنيتها؛ لتتجاوز الإمارات الصغيرة نحو الإمبراطوريات الكبيرة. في المقابل، كانت الأندلس تعيش حالة ترف وبذخ وتمزق وضياع رسالة الفاتحين المسلمين لتحرير الإنسانية كلها من ربق العبودية والجاهلية إلى عزة السجود لله، ولم تلبث بعد ذلك أن تهاوت غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس عام 1492 (أي بعد أربعين عاماً فقط من فتح إسطنبول).

كان الأوروبيون يبحثون عن مصادر القوة الاقتصادية للتعويض عن الممتلكات التي يفقدونها أمام الزحف العثماني، فكانت محاولةُ الالتفاف على الدولة العثمانية وبلاد المسلمين نحو الهند والصين تدفعهم لتجاوز نظرة الكنيسة عن الكرة الأرضية، وتجعلهم يعتمدون مشروع كريستوف كولومبوس للدوران حول الكرة الأرضية، واختراق بحر الظلمات والمحيط الأطلسي، وبلوغ جزر الأنتيل ظناً أنها الهند، وعندها اكتشف

الأوروبيون القارة الأمريكية (في ما يعرف باكتشاف القارة الأمريكية في كتب تاريخنا الحديث المشوه، علماً أن خطوط التواصل بينها وبين الأفارقة كانت قائمةً قبل ذلك بكثيرٍ!)... وكان دوران فاسكو دي غاما حول القارة الإفريقية ورأس الرجاء الصالح وجزيرة مدغشقر والوصول إلى الجزر المالاوية بالاعتماد في ذلك على الأدلة الأفارقة والمسلمين (أحمد بن ماجد وغيره) عام 1499؛ محاولةً من الأوروبيين للخروج بخطوط التجارة مع الشرق والهند والصين من أراضي الدولة العثمانية والمسلمين.

ولا بد هنا من توضيح نقطة هامة أترك سردها للمراجع التاريخية، وهي أن دخول السلطان سليم الأول بلاد الشام ومصر إنما كان تلبيةً لنداء المسلمين واستغاثتهم به خوفاً من حملات صليبية جديدة، ومن محاولة البرتغاليين السيطرة على مداخل البحر الأحمر واحتلالهم عدن.

هذه صورة شديدة الإيجاز عن الوضع الدولي عندما تولى خليفة المسلمين الثاني السلطان سليمان القانوني عرش السلطنة العثمانية، حيث كان يتميز بصعود الإمبراطوريات الأوروبية رغم الضغط الشديد الذي كانت تتعرض لها من قبل الدولة العثمانية.

وإذا كانت الرواية التي بين أيدينا لا تركز على الصراع الحضاري الذي كان محتدماً بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية بشكلٍ مباشر، وتختزل الموقف في صراع عثماني أوروبي، ولا تتناول تأريخاً للأعمال العظيمة التي قام بها السلطان سليمان (حتى لقب بالمعظم)، ولا تسلط الأضواء على أهم معلم من معالم التلاحم كالجسد الواحد بين الشمال الإفريقي والدولة العثمانية، والذي يتمثل في هَبَّة السلطان سليمان تلبيةً لدعوة الأخوين أوروج وخير الدين الذي اشتهر بين الأوروبيين ببارباروس، هذه الهبة التي انتهت بحملاتٍ مشتركةٍ جعلت من خير الدين باربروس قائداً عاماً للبحرية العثمانية، ومن البحر الأبيض المتوسط

بحيرةً إسلاميةً... إذا كانت الرواية لا تتناول السرد التاريخي لمثل هذه الأعمال العظيمة، ولا تسلط الأضواء على التحليل السياسي فيها؛ فإنها تركز على بنية الدولة العثمانية، وعلاقات القوة فيها بين الأتراك والتركمان، والخلفية السياسية للعلاقات السنية والشيعية، وتبيّن جانباً إنسانياً مهماً في قضية الرق، فالرقُّ في الدولة العثمانية كان مقيداً بمدةٍ زمنيةٍ معينةٍ، ولم يكن مفتوحاً مطلقاً، وإنما كان مقيداً بنظام المكاتبة (فكان أن خرج من بين أولئك عمالقةٌ من المبدعين كالمعماري سنان المشهور بآثاره المعمارية التي تثير الذهول والإعجاب). كما تحاول الرواية تقديم تحليلٍ لنفسية الجواسيس، وبذلك تقدم الرواية الدولة العثمانية كدولةٍ أولى في الموقف الدولي، تسعى لزرع عملاء في قلب أوروبا، وتقوم بما تقوم به أمريكا وإنجلترا وغيرهما من الدول الفاعلة اليوم في المسرح الدولي. وربما وأنا أتعرف شخصية أورخون، كان يخطر في بالي مايلز كوبلاند بشخصيته وكتابيه **(لعبة الأمم، واللاعب واللعبة)**...

والروايات التاريخية بطبيعتها، فيما تحاول بث الروح في الحقبة التاريخية التي تتحدث عنها تسعى في الوقت نفسه إلى إعادة تشكيلها، وتحمل رسالة ما، وهي ما أترك تقديرها للقراء الكرام...

إنها سنة التدافع التي لا مفر منها في الحياة الدنيا بين الخير والشر، والحق والباطل، والخطأ والصواب... لن تنفع معها نظريات الأبراج العاجية التي يختلي فيها بعض فلاسفة العصر، وينشئون فيها مدنهم الفاضلة؛ من خلال مبادئ السلم والسلام العالمي، ومذهب ابن آدم الأول، واللاعنف، واللاتكفير... إنها سنة التدافع وغايتها الابتلاء، وغاية الإنسان فيها أن يشتري نفسه، «**فكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا**»...

الأحد، 16 شوال، 1433
الموافق لـ 2012/09/02

مُقـدِّمــة

قارئي الوفي، اسمح لي هذه الليلة أن أتقاسم معك قبل الشروع في قصتنا ذكرى قديمة من ذكرياتي. لن أقتطع الكثير من وقتك، وكل ما أريده هو أن أخفف عبء تلك الذكرى عن كاهلي.

كانت درجات الحرارة تزحف نحو الخامسة والخمسين عندما كنا نتوجه نحو مرتفعات جبال طانري من مدينة أوش جنوب وادي فرغانة في قرقيزستان. وكان والدي قد ودع آخر مئتي دولار في جيبه عند صرافٍ قرب الحدود يُذَكِّرُ بابه العملاق بفرن قديم. لم تنفع محاولاتي بإقناع شرطي الحدود بأنني كاتبٌ، وأن ما أحمله على كتفي هو جهازي المحمول؛ فدفعنا له خمسين دولاراً كرشوةً، ودفعنا مئة دولارٍ لسائق التاكسي التتري ذي العينين الخضراوين، وبقينا مدينين له بخمسين دولاراً. كانت عيوننا تدمع، وكنا نشعر بالغثيان بسبب رائحة البنزين التي تفوح داخل السيارة...

كنا صامتين في أثناء عودتنا إلى بلدنا صفر اليدين بعد كل تلك المغامرات الطويلة التي قمنا بها. وكنت أشعر بارتياحٍ روحيٍّ كبيرٍ في سهوب الاستبس(1) الموحشة الممتدة إلى ما لا نهايةٍ والتي أصبحت بيتي ومسكني وحياتي. ولم أكن أعرف إن كنت سأعود إلى خلوات

---

(1) اصطلاح يطلق على أراضي جنوب وجنوب شرق روسيا الأوروبية وجنوب غرب الاتحاد السوفياتي الآسيوي. وهي سهول مستوية لا أشجار فيها، وكانت أصلاً مناطق حشائش، ولكن أصبح معظمها الآن أراضي زراعية. ومع أن الاصطلاح مقتصر في الأصل على روسيا؛ إلا أنه أصبح يطلق في الواقع على كل السهول الزراعية في العروض المعتدلة (مثل براري الولايات المتحدة). انظر إلى الموسوعة العربية الميسرة.

بودلير[1] هذه مرة أخرى أم لا. كنا قد انهزمنا ونتجرع الهزيمة دائماً. وفي كل مرة، كنا نسعى لهزيمة أفضل من سابقتها؛ بعزيمة أقوى ترضي صمويل بيكيت[2].

ولكن روحي هذه المرة كانت تحترق، وكنت أحس بأنني أقترب من نهاية حياة جذابة ومليئة بالقلق والتشرد ولا ترحم مع والدي. كنا ذات يوم سعيدين في حياتنا، نكسب جيداً، ونُمضي يوماً هنا وآخر هناك، ووالدي مستمر في متابعة حياته غير مبال بتحذيرات الأطباء. فقلبه يعمل بطاقة الثلث، وضغطه يتقلب باستمرار صعوداً وهبوطاً، وأنا عاجز عن فعل أي شيء. وكان التوتر الذي يأكل بدنه يفعل فعله في دماغه أيضاً. أما أنا فكنت ألتقط أنفاسي في القراءة والكتابة، ولم نعد نستطيع الكلام إلا قليلاً، وغالباً ما يدور كلامنا حول كرة القدم. لذا، كان ما فقدناه تدريجياً، وموت والدي البطيء أمام عيني يتركان أعماقي مزقاً وأشلاء.

وصلنا إلى بشكك عاصمة قرقيزستان عند العاشرة ليلاً، وعلى الرغم من أن الوقت كان في نهاية الصيف، والطقس في أنديجان حار إلى حدٍّ لا يطاق، فإن الجو في بشكك على سفوح جبال طانري كان بارداً جداً. وكانت المستنقعات المائية قد بدأت تكتسي طبقةً من الجليد. وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن لدينا بيتٌ نأوي إليه، ولذلك لم يكن لدينا مالٌ ننزل به في أحد الفنادق، ومشاكل والدي مع الشرطة لا تنتهي؛ ولذلك لم يكن الاتصال بأي صديق مُيَسَّراً... اقترح علينا سائق التاكسي أن يستضيفنا في منزله رغبةً منه في تحصيل نقوده، ولم يكن لدينا خيار إلا أن نقبل دعوته آملين بوصول المال من إسطنبول بعد أن قررنا أن نبيع آخر ما

(1) بودلير (1867–1821) شاعر وناقد فرنسي، ويرى أن النظر إلى عمق الحياة مهمة الشاعر الحقيقي... ويعتبر شاعر الحداثة في القرن التاسع عشر، ولم يفهم شعره جيداً إلا بعد وفاته...

(2) صموئيل بيكيت (1989–1906) أديب إيرلندي أسس مسرح العبث أو اللامعقول، والصمت إحدى ميزات هذا الفن.

نملكه فيها. وعندما وصلنا إلى قريته خارج المدينة، فوجئنا ببيتٍ حديث البناء في الحديقة الخلفية، لم يكتمل سقفه بعد، وكانت جدرانه كافيةً لحجب الرياح لكنها لا تمنع البرد. كنا جائعين ومرهقين، وقد أخذ منا النعاس كل مأخذٍ، ولم نكدْ نبسط البطانيات التي ألقاها إلينا السائق على الأرض الخشبية، ونَلُفُّها على جسدينا، علاوةً على السترة التي تفوح منها رائحة روث الأغنام؛ حتى غَرِقْتُ في نومٍ عميقٍ. لم تكن تلك هي الليلة الأولى التي أبيت فيها هكذا، فقد أمضيت الكثير من الليالي في اصطبلاتٍ فارغةٍ وقاطراتِ شاحناتٍ روسيةٍ قديمةٍ مهجورةٍ في قمة جبال طانري، لكن، هذه الليلة، كان البرد المتسلل إلى عظامي يستقر في كليتي كخنجرٍ خفيٍّ، ويوقظني مراتٍ ومراتٍ من شدة الآلام التي صاحبتني مدة عامٍ ونصف. أما أبي، فقد بقي مستيقظاً يراقب النجوم بعينيه الجميلتين وهو يدخن سجائره المتبقية.

أحياناً تمر في حياتكم لحظاتٌ فريدةٌ تُحس قلوبكم بدفئها الذي يَسْرِي فيها طيلَةَ حياتِكُمْ. وأنا في تلك الليلة كنت أشعر أنني أعيش تلك اللحظات النادرة. سَعَلْتُ سعالاً خفيفاً، وتمتم والدي بكلام أكاد لا أتذكرُهُ... ربما كان يتحدث عن النجوم وعظمة الكائنات... هممت بالنهوض قليلاً ومشاركته ببعض الكلمات، فربما تكون تلك هي الفرصة الأخيرة. ولكن الأمر الوحيد الذي استطعت القيام به هو أنني نظرت إلى النجوم بألوانها الزرقاء المخضرة في صفحة السماء الباردة، وغبت عن الوجود مجدداً. ربما كان بإمكاني حمل نفسي على السهر معه، لأقاسمه وحدته وصمته كما كنت أفعل في الآونة الأخيرة، لكنني حينها كنت في غاية التعب والإرهاق... وكان البرد قد جمد الدماء في عروقي وأعضائي الداخلية... لذا، استسلمت للنوم وأنا أحدق إلى خيال والدي المتوجه نحو اللانهاية وكأنني مريضٌ أصابه الشلل.

منذ ما يزيد على الشهرين، لفظ والدي أنفاسه الأخيرة في إحدى

مغامراتنـا، فـي غرفة فنـدق يبعـد سـتة آلاف كيلومتر عـن منزله. لـم أكن برفقته، ولو كنت فما الذي سـيتغير؟! ألم تكن حياتنـا كالانتحار؟ ألم نكن مشـردين هنا وهناك؟ لقد كان وحيداً، وجيبه الفارغ يشكل مأساة وحده... وحياته التي سـعى فيها للفوز دائماً ختمهـا بالهزيمة. لكنـه كان رائعاً حتى في هزائمه، وربما كانت الانتصارات الصغيرة التي تسـللت إلى منعطفات هزائمه أكثر قيمة.

ربما تعجـز الكلمـات في أكثـر المواقـف عـن التعبير عن المشـاعر وتقزمها، وتكون مبعث ملل في الدماغ، وتثير أسـئلة التعجب والاسـتفهام فـي العيـون، لكننـي أعتقـد أنـك تفهمني يـا قارئـي الكريـم. أكتـب هذه الكلمات مـن غرفة فنـدق منعزل بمدينـة بلخ في شـمال أفغانسـتان، أطل منها على أطلال هـذه المدينة التاريخية القريبة من مزار شـريف. أتأمل في ظلالها، وتطن فـي أذني نداءاتهـا ودعواتهـا، وأنت تكاد تحـس بما ينتاب أعماقي من مشاعر...

موسم (سانري)

I

«لأن البطولة هي التي تبقى بعد أن أمضي،
ولأن المسعى كان باسم الله، وبإذنه كل ما
عملناه، ولأن نداء الإيمان يدعونا؛ تركنا خلفنا
كل متاع الدنيا وظلت عيوننا معلقةً بالقمم».

جاهد ظريف أوغلو

21 تشرين الثاني 1520 إسطنبول

كنت أركض وأركض، وأنا أشعر بحدة البرد المندفع إلى رئتي المنقبضتين... فأستند في اكتئاب وألم إلى الجدران، وألتقط بعض الأنفاس، ثم أتابع الجري... كانت قبعتي قد سقطت وغابت في الأوحال، وثيابي المبللة تلتصق بجسدي، وسروالي الممزق لا يحميني من حدّة البرد، وجزمتي الممزّقة تخترقها السّيول التي تشكّلها الأمطار... ورجالي، آه من رجالي! لقد فقدتهم... ولم أكن سوى أبله تورّط في فخّ... فإن لم أبادر إلى النهوض من عثرتي، ولملمة ما تبقى من هيبتي، فإن هيبة تشكيلاتنا في أنظار العالم ستنهار! أبعدت شعري المنسدل على جبهتي إلى الوراء بيدي الملطخة بالطين، وتلفّت حولي... لم يكن أحدٌ يبدو في الأفق!

كان المطر شديداً هذا الشتاء في دار السعادة[1]، والتجار الصغار

(1) إسطنبول.

يغلقـون محلاتهم لأداء صـلاة العصر. لقـد أعياني التعـب وداهمتني نوبة سـعال وتغير صوتي فلم أعد أميـزه، وهمهمت في سـري: «ليتنـي أتمكن من جمع رجالي، فألقي القبض على أولئك السـفهاء في سراي بورنو قبل حلول الظلام!». توجهت إلى باب قرة كوي سـاعياً بفـارغ الصبر للوصول إلى أش خانة؛ نقطة التجمع الأولى في الحالات الطارئة.

منذ سـاعتين وأنا أتقدم في الشـارع الحجـري الموحـش هابطاً نحو الحديقة المسـتقرة خلف كنيسـة كيركور لوسـافوريج. وكان صـوت أذان العصـر يصدح مـن مـآذن المسـاجد، قبـل أن تصمت مجـدداً واحـدةً تلو الأخـرى. تابعت سـيري على الطريـق الترابيـة المطلـة على المينـاء، وقد تكاثرت علـى طولهـا المحلات التجاريـة بواجهاتهـا الحجريـة، ومخازن التجـار الأغنياء الأجانـب بأعدادهـم المتزايدة فـي الآونة الأخيـرة. كانت الخيول المغبرّة المتعبة مـن أحمالها التي تفوق طاقتها فـي حركةٍ دائمة لا تهدأ، والحمالون الأتراك والقبط يجهدون في نقل البضائع، والعرق يسيل على جباههم السمراء معانداً حدّة البرد.

كان البـلاط الحجري الممتد أمـام الصومعـة الكبيرة تغطيـه طبقة من الأوحال. وكان جاويش العسـس يحقق في مشـكلةٍ ما. وقعـت عيناه عليّ، وتجاهلني متعمـداً... يبدو أنه تلقـى أمراً بذلـك. كانت هناك قافلـةٌ صغيرةٌ من الجمـال التـي تحمـل بضائـع قيمة يحيـط بها عـددٌ كبيـرٌ مـن الحراس المسـلحين، وكانت الرماح المزركشـة التي تتدلـى في نهاياتها «شـرابيات» حمراء مصنوعة مـن أذيال الخيول تشـكل تهديداً وردعاً لمـن حولها. تقدم القافلـة يهـوديٌّ متعجرفٌ يمتطـي حصانـه ملتفتاً يمنةً ويسـرةً، وهـو يتصنع الابتسامة، ويلوح بيده، ويرجع طربوشه الأحمر إلى الوراء، ويلقي التحية... كان لا بد لي من الإسـراع في السـير في مثل هـذا الوقت من النهـار قبل أن ألفت انتباه تجار المنطقة الأغنياء، لذا أطرقت برأسي وتسارعت خطواتي...

* * *

ارتحل ولي نعمتي وناصحي ومصدر فخري وسيدي وخصمي الأكبر الذي قتل والدي؛ السلطان ياووز سليم خان الذي أحبه إلى درجة الجنون، ولا أتردد في القتال لأجله... إلى الدار الآخرة، وغاب في الثرى قبل أن أدرك جنازته. كانت أسناني تصطك من شدة الغيظ، ودموعي تجري أنهاراً، وأنا أوجه لكماتي إلى الجدران، وأضحك تارةً وأبكي أخرى مثيراً دهشة الآخرين حولي.

لم أكن أتخيل قط أن يقتل والدي بلا رحمةٍ في شبهة خيانةٍ، وأن أرتقي في اليوم نفسه من مجرد بائعٍ متجولٍ بسيطٍ إلى قائد لأركانه الخاصة، وأن تصبح عائلتي في طرفة عينٍ في وضعٍ معيشيٍّ يفوق الخيال... لقد كان كل ذلك بفضل أبي، فأنا لم أكن عسكرياً، ولا أجيد القتال، ولم أكن سوى رجلٍ متسكعٍ مجادلٍ عنيدٍ.

على الرغم من اعتماري قبعتي الخضراء المثلثة، وارتدائي سترتي الخضراء المذهبة، وسروالي القطني الأبيض، وانتعالي حذائي الأصفر، كنت في حاشية السلطان في وداعه الرسمي إلى أدرنة. كان الوقت بعد الظهر، والسماء تمطر على الحشد المصطف خلف الإمام في فناء القصر، وأنا مطرقٌ لا أستطيع النظر إلى عيني أحدٍ. هكذا هي الدنيا، غالبٌ ومغلوبٌ، وليس أمامي سوى الرضى والرضوخ. لقد خسرنا - أنا ووالدي - المعركة، ونحن مهزومان في أعظم نصرٍ، كنا نحفر حفرةً، وحفر الآخرون كذلك، وفي نهاية المطاف طأطأنا رأسينا كسائر المذنبين الذين يعترفون بما اقترفوه. الهزيمة لها طعمٌ آخر؛ طعم الخيبة والذل... نحن في الأصل من عشائر التركمان قرة كچي [العنز الأسود] الذين اشتهروا بالتمرد الدائم على الدولة العثمانية. فوالدي جعفر من سيفري حصار، لفتت شجاعته وإقدامه في الحروب انتباه السلطان بيازيد، فاختاره وقربه منه وجعله آغا الخدم... ولقد سافر مع السلطان سليم إلى مصر عام 1517، وكان من رؤوس مثيري الشغب، ولذلك أعدم. كانت عائلتنا تنتظر

عند العودة تفضلاً وإحساناً من السـلطان، ولكن... رأس والدي المحشور في كيـس من جلـد الماعـز المطلي مـن الداخـل بالعسـل كان فـي انتظار العائلة عند عتبـة البيت، فانهارت الآمال وتلوعت القلـوب.... كنت وقتها في السـجن بسـبب عراكٍ اشـتركت فيه، ولـم يصلني الخبر إلا بعد يومين، ولـم يكـن المبلّغ سـوى الدفتردار سـعد الدين باشـا، المـوكل بتبليغ الأمر السلطاني.

كان السلطان سـليم خان رجلاً مهيباً ذا شخصيةٍ قويةٍ، وكانت نظراته العميقة تفعل فعلها فـي القلوب. اختارنـي مع من اختارهم من السـجناء، فسـرى حبه العجيب فـي قلوبنا، وصرنا منـذ ذلك الحين مسـتعدين للقيام بأي شيءٍ في سبيله... «أنتم الآن مؤسسو الهلال الحديدي[1]، وأعضاؤه». وتابع قائلاً: «أعرفكم فـرداً فرداً، وأقـدر مهاراتكم، وأعرف مـا ارتكبتموه من أخطـاء، وأعفـو عنكـم الآن. ولكـن، كونـوا على يقيـنٍ بـأن أي خطأ سـيعني النهاية لكـم ولعائلاتكـم. هل فهمتـم؟». كنـا نصغي إليـه، ونحن نتأمل المرافقين من العسـكر الذين يحيطـون به، والذين يحملون أسـلحة ربما نراها لأول مـرةٍ، ومعهم الجلاد قـرة عمر بنظراته الحـادة التي توقف القلـوب، وأجسـامنا متلاصقة مـن شـدة الخوف، ونحـن نحرك رؤوسـنا موافقين، ونكتم أنفاسـنا. وتابع السـلطان قائلاً: «أنتم لـن تخرجوا من هنا عبثاً...». كانت عباءة السلطان تسـد الباب، ورائحة الدم التي تنقلها الريح المتسـللة من أسـفل الباب تقلب الأمعاء. «وأنتم منذ الآن لستم مجرمين، بل إنكم رجال شرفاء تخدمون وطنكم».

كنا خمسةً، وجوهنا مسودةٌ، ورؤوسنا منكّسةٌ، وعاد صوت السلطان ليرتفع مـرةً أخـرى: «إنكـم تحـت مراقبتـي، وحولكـم رجـال يتعقبونكم كظلالكم، وبحسـب أعمالكم يتوقـف المقام والمـال، إنكم أبناءٌ بائسـون لعائـلاتٍ متميـزة، ومهاراتكـم تقـدم لكـم فرصـة حيـاةٍ جديدةٍ. رئيسـكم

(1) الهلال رمز الدولة العثمانية، والحديدي رمز القوة.

وهيمي أورخون جلبي». عندما سمعت ذلك، رفعت رأسي ونظرت إلى وجه السلطان، وتلعثمت، وحرت في ما عساي أقوله من كلام؛ أأفرح أم أحزن؟!

كان جوفي حاراً كما لو أنه قد ألقي فيه حجر خرج لتوه من تنورٍ، وتجمدت قطرات العرق على ظهري بفعل تيار الهواء البارد، وسرت قشعريرة البرد في جسدي، وارتجفت رجلاي، ولم تعودا قادرتين على حمل جسدي. شعرت بدوارٍ شديدٍ في رأسي، وكدت أسقط على الأرض... شعرت بأن وجهي يشتعل ككرة ملتهبة من النار، حاولت إغماض عيني مقاوماً الشعور بالإغماء. أعرف أن الجدران الحجرية المتفحمة تلقي بظلالها القاتمة على صدري، وقلة الهواء في الزنزانة تكاد تخنقني... أغمضت عيني، وتنفست بعمق، وضغطت على لساني بقوة؛ لأستعيد إحساسي ووعيي، ثم فتحت عيني، وبدأت أتحسس الضوء والظل والألوان وهي تعود إلى طبيعتها. كان الضوء الأحمر والأصفر يشوهان الوجوه، وبدا وجه السلطان عابساً. لعله كان غاضباً مني لأنني لم أشكره... انحنيت على ركبتي أمام السلطان، وقبلت طرف عباءته ووضعته على رأسي... وفكرت في سرّي: كيف يزدهر الحب مع الكراهية في بدنٍ واحدٍ؟ كيف يمتلئ قلبي بحب قاتل والدي؟!

أمرني السلطان بالنهوض، وصرف الجميع بإشارةٍ من رأسه، ولم يبق غير الجلادين الصامتين. رغبت في الهرب والجري على طول الدهليز الممتد الذي لا ينتهي في سجن بابا جعفر. هل يريد أن يقتلني؟! ولكن، لماذا سيلجأ إلى الكذب لو أراد قتلي؟! وعندما أدركت ذلك، شعرت ببعض الطمأنينة، وارتخت مثانتي، وشعرت بالعار يسري في خلايا جسدي... لم أشعر بمثل هذا الاضطراب في أعوامي الاثنين والثلاثين؛ إنها هيبة السلطان!

اقترب السلطان بجسمه الضخم مني وهو يقول: «ابدأ بتنظيم

التشـكيلات سـريعاً عندما يصلـك فرماني». وكدت أسـقط علـى الأرض حيـن وضع يـده القويـة على كتفـي: «وزيـري الأعظـم بيري محمد باشـا سـيبين لك ما نريده من هذه التشـكيلات. أعلم أنك تتقن القراءة والكتابة، ولذلك سـتقدم له تقريـراً مفصـلاً عقـب كل مهمةٍ تقـوم بهـا. وإذا أردت مسـاعدةً خاصةً أو أردت لقائي، فسأرسـل لك بطاقة مـع الفرمان تمكنك من الوصول إلي من دون انتظار».

كان هذا السـلطان ببشـرته البيضاء المشـرقة، وشـاربه الكثيف الذي يهتز عندمـا يتكلم، يخفي سـراً غامضـاً يجعله السـلطان الـذي يتمكن من تحويل مشـاعر البـؤس والوحـدة والغربة والحقـد التي كانـت تجيش في صدر رجـلٍ مثلي إلى الرغبة فـي التضحية في سـبيله، والإخلاص له حتى الممات.

II

توقفت في إحـدى الزوايا المطلة علـى فناء الجامع العربي لأسـتمع إلى زقزقة عصافير الدوري المتجمعة تحت أشـعة الشـمس الشـاحبة التي بدت كألماسـة مغبرّةٍ تحاول إخفاء بريقها وهي تميل نحو الغروب. لست أدري كم مضى من الوقت قبل أن تنتهـي الصلاة ويبدأ المصلون بالخروج عبر الباب الرئيس. أسندت ظهري إلى جدار مستودعٍ باردٍ تعلوه الطحالب مراقباً الجموع، علني أرى بينهم سافينو.

كانت الحـرب التجارية بيـن أصحاب المخـازن المبنية مـن القرميد الأحمـر مـن الكاثوليك وسـكان الحـي الأرثوذوكـس أصحـاب القبعات السـوداء على قدمٍ وسـاقٍ، بسـبب التوتر التاريخي المذهبي بين الطرفين. وكانت الشـجارات الدامية التي تحدث مـن حين لآخر لا تـكاد تبدأ حتى تنتهي قبل وصول العسـس؛ إذ كانوا يرفضون تدخل الأتراك في مشاكلهم. وكان المسـتوطنون الأجانـب أيضـاً لا يرتاحـون لازدهار تجارة السـكان الأتراك الأصليين في أوطانهم الأصلية ويتآمرون عليهم.

سـرت بيـن المسـلمين فكـرة كانـت ذات تأثيـر كبيـر؛ إذ لا ينبغـي للمسـلمين أن ينخرطوا فـي التجـارة الدنيوية كاليهـود والنصـارى، وعند بلوغهم الأربعيـن عليهم أن يحجـوا إلى الأراضي المقدسـة، ثـم يتفرغوا للعبـادة بعـد عودتهـم وينصرفوا عـن التجـارة كليـاً. وكلما انتشـرت هذه الفكرة اكتسـبت قوةً وترسـخت عند عامة الأتراك، وازدادت العراقيل أمام النبلاء الأتراك الذين أقصوا عن الحياة التجارية الكبرى بسـبب التحالفات التجارية القائمة.

من جانب آخر، كانت خطوط التجـارة قد بدأت تتكاثف في الموانئ

المنتشـرة على الخليج، وبدأت تجارة الحبـوب القادمة من القـرم والبحر الأسـود إلى ميناء أون قباني[1] تتخـذ الطابع التركي تحـت تهديدات اتحاد العمال الأتـراك. وربما كان من الطبيعـي أن يطالب الأتـراك أن تكون لهم كلمةٌ في تجارة البلد؛ غيـر أن الأتراك بطبيعتهم مزارعـون يتميزون بالطيبة وسـهولة الطباع. وأنا كتركي لم أكن أتصور أنه بإمكان الأتراك النجاح في هذه الأعمال التي تتطلب المكر والخديعة.

لقـد ظهـر جليـاً أن المعلومـات التـي تلقيتها مـن جواسيسـنا كانت صحيحـة. فها هـو لويجي سـافينو يصافـح جماعـة المصلين عنـد مدخل الجامع العربـي. وكان القنديلان المعلقان على سـاريتي البـاب الخارجي والمصنوعان من المرمر يعكسـان ضوءاً أصفر جميلاً ينيـر الوجوه ويظهر الصفاء المتفجر من القلوب.

ويعتبر لويجي سـافينو من أهم جواسـيس منظمة الصليب الحديدي التي أسسـها البابـا ليو العاشـر سـيئ الحظ بإصـداره صك حرمـان مارتن لوثر[2] من دخول الكنيسة بسـبب آرائه الإصلاحية... نعم، كان لويجي من أكثر جواسيس هذه المنظمة كفاءةً، لكنه ضرب فأسـه هذه المرة بالصخر، فقد كنت أنـا وهيمي أورخـون جلبي ورجالي فـي مواجهتـه الآن. لم ينج متـورطٌ من قبضتنـا حتـى الآن، فنحن نسـتطيع تبديـل قيافتنا ولباسـنا كما نشـاء، ونتسـلل بين الجموع، ونمثـل أدوارنا بمهـارةٍ، ولا فـرق عندنا بين مظهر متسـول أو أمير في بلاط. وقد كنت فـي زياراتي المتكـررة لأوروبا معجباً بفن المسـرح الـذي يعرف عندنا باسـم المداح، ولذلـك كنت أقوم

---

(1) ربما كان هذا الاسم نابعاً من كون الميزان هناك متخصصاً بوزن الحبوب والطحين. فإن كلمة أون تعني الطحين، وقباني تعني الميزان المعروف.

(2) مارتـن لوثـر (1546-1483) زعيـم دينـي نصرانـي إصلاحـي، أهـم مبـادئ دعوته الإصلاحيـة: إباحة الطلاق للنصـارى، وإلغاء الحج إلى روما، وعـدم احتكار البابا الحق في تفسـير الإنجيـل، وإخضاع رجال الدين للسـلطة المدنيـة، وإباحة الزواج للقساوسة، وإلغاء الرهبنة.

دائماً بالأدوار الصعبة، كما كنا اليد الخفية التي تنزل العقوبات خارج الحدود، وتنفذ الاغتيالات، وتقوم بأعمال التجسس الحرجة والصعبة، وكنا الصوت الخفي الذي يمنح الأمل، والنفس الذي يمنح الحياة للدولة. وكنا السند الحقيقي لمسلمي السواحل الإفريقية الشمالية في مقاومتهم الأطماع الإسبانية، وكابوس البرتغاليين الذين فرضوا خراجهم وأتاواتهم على موانئ المسلمين في المحيط الهندي، وأنصار القازاق في مواجهة الموسكوف الروس، وكنا البلاء المؤكد للصفويين الطامحين إلى توسيع نفوذهم إلى بلاد تركستان الشرقية. وكنا محط أنظار الفاتيكان، ومبعث قلق لها في دعمنا لوثر. لم يكن من الممكن تجاهل جواسيسهم، غير أننا لا نقبل أبداً أن نقارنهم بجواسيسنا.

لقد بلغني بادئ الأمر ظهور سافينو في باحة معمل الشمع الصغير خلف مخازن الفحم في ميناء الزيوت. وبدأت فرائص صاحب المعمل لورنزو دالاسيو ترتعد لدى رؤيته الجلاد قرة عمر واقفاً قربي بحزامه اللامع، وقبعته المصنوعة من شعر الماعز والتي تميل قليلاً على رأسه الحليق. لم يبد أي مقاومة، وترك مبلغاً كبيراً من المال للجلاد حتى يقتله بأسرع طريقةٍ، وسلمني وصيته، وانتزع ميداليته الذهبية وساعته وخاتمه وما شابهها وتركها أمانة عند المعلم الأسطة ليقوم بتوزيعها على زوجته وبعض أقاربه وأصحابه.

أجاب بكامل وعيه ورشده عن أسئلتي قبل أن يموت: نعم، إن سافينو العدوَّ الأولَ لأوروبا والعالم الكاثوليكي يسعى لإعادة بناء تنظيم جديد داخل الدولة العثمانية التي يحتمي بها الأرثوذكس، مركزه في إسطنبول، وهدفه الأول أن تكسد تجارة السفن التي تعود للمسلمين السنة في الأناضول في كل الموانئ التركية والأوروبية. فمن المتوقع نشوب صراعات كثيرة بين أصحاب السفن وتجار الحبوب من المسلمين الأتراك السنة؛ وعندها سيساند الصفويون سافينو بلا شكٍّ.

كان الشاه إسماعيل راعيا للأتراك المتشيعين، وكان يشكل خطراً وتهديداً ورعباً للأتراك السنة. ومنذ زمن المرحوم السلطان بيازيد والشاه يحرض على العنف الطائفي من خلال شبكاته التجسسية، ولا يتردد في عمليات الإبادة الجماعية للقبائل السنية الثابتة على مذهبها، وفي تهجير القبائل الأخرى من مراكز المدن، علاوةً على اتباعه سياسة مؤثرة في حق القبائل التركية السنية في الأناضول؛ مما أدى إلى تضرر هيكل الاقتصاد العثماني القائم على الزراعة بشكل رئيس. ومما زاد الوضع خطورة، اتباع السلطان بيازيد سياسة بسيطة تقوم على حقن الدماء. وأصبحت بلاد فارس التركية الصفوية ملاذاً للقبائل التي تقاوم حكم السلطة المركزية، وللعشائر المرتحلة التي تجبر على الاستيطان. وتحولت القبائل التي وجدت تقارباً بين المذهب الشيعي والعقائد الشامانية القديمة إلى مصدر خطرٍ داخل الدولة العثمانية. والطريف في الأمر أنه بينما كانت العشائر الكردية السنية تثبت على مذهبها، وتكون خير مناصرة للسلطان سليم خلال أسفاره إلى بلاد فارس ومصر وبلاد الشام، وتتحول إلى النفوذ العثماني بفضل السياسة الفريدة التي اتبعها العالم الجليل إدريس البتليسي، كانت القبائل التركية المؤسسة للدولة ترسم طرقاً مختلفة ومتفرقة. ولا ننسى هنا أن نعتبر الممارسات السلبية للإداريين الذين استغلوا الآلية اللينة التي كانت إدارة الدولة تقوم عليها من المسببات المهمة في نشوء هذا الوضع.

نعم، لقد كانت حملات المرحوم ياووز سليم خان التي شنها في فترة إمارته من دون الحاجة لقرار من المركز، والمسألة الشرقية التي تتمركز حول الدولة الصفوية في أثناء توليه السلطة من أسباب تأمين وحدة الأناضول والمحافظة عليها. والضربة التي تلقاها الصفويون في جالدران عام 1514 كانت ساحقةً، ولم يتمكنوا حتى الآن من استرداد عافيتهم، ويبدو أنهم لن يتمكنوا في القريب المنظور من الوقوف على أقدامهم،

وهذه الأبيات الشعرية للسلطان سليم خان تبين أنه قد وهب حياته في سبيل وحدة الأناضول:

القلق من الاختلاف والتفرقة في أمتي
يجعلني عاجزاً حتى في قبري
والاتحاد حيلتنا في دفع العدا
واختلاف أمتي يطعن روحي

III

لم يكن لويجي سـافينو رجلاً عادياً مهملاً، ولـم يكـن أحدٌ يجهل أنه يسـتمتع بشـهرته المخيفة التي يشـيعها حوله بوحشـيةٍ أحياناً. كانت يداي تمسـكان بجانبي خاصرتي، وعضضت على لسـاني فانتشـر الدم في فمي وحلقي، ألهذا الحد أكون غافلاً في أرضي وبلدي!؟ لن أسمح لنفسي بأن تغفل أبداً!

كان سـافينو معروفـاً بشـدة ارتباطـه القلبـي بالكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانية، لكنه أيضاً كان لعبقريته ودهائه متمكناً في بعض المسائل الفقهية الإسـلامية، حيث ألمّ ببعض القضايـا الدقيقة في الفقه الإسـلامي. وكنت أعرف أنه يحفظ نصـف القرآن الكريـم، ويطبق أحـكام التجويد كالإخفاء والإظهـار والقلقلـة بدون تـرددٍ، حتى إنـه كان مـن المسـتحيل أن يصدق النـاس أنه غير مسـلم. كان يبلغ الخامسـة والخمسـين من عمـره، ويملك قوةً بدنيـةً وكأنه شـابٌّ في الثلاثيـن. وهو يعرفنـي جيداً، ولكـن الأفضلية التي كنـت أتمتـع بها هـي أن جاسـوس الفاتيـكان الخبير هذا لـم يكن قد رأى وجهي قـطّ، وكنـت قد رأيتـه من قبـل، وأنا لا أنسـى مطلقاً شـخصاً أراه؛ ولو لمرة واحدة. فقـد كنا عدة مرات في مهمـات متقابلة في أراضينا في مرتفعات البلقان ووسـط أوروبـا، ودخلت ذات مرةٍ مع سـبعة عناصر مـن رجالي فخـاً أعده لنـا فحاصرنا. حتـى إنني اضطررت إلـى التضحية باثنين من رجالي في سـبيل النجاة من قبضته والفرار. وللأسـف، كان أمراً طبيعياً أن يتخلـى أحدنا عن صديقه في مهنتنا، وأن يبـاع من قبل أصدقائه؛ فالجاسوس لا يثق إلا بنفسه، ولا ينتظر المساعدة من غيره، وعليه أن يحل مشكلاته بنفسه.

ورغم كل ما حصـل، لم يتمكن سـافينو مـن رؤية وجهـي، ومهارته التـي لا يسـتهان بهـا لا يمكـن أن تبلـغ قدرتـي. لكـن، لا يمكـن التغافل عن هذا العجـوز أبداً، فهـو الآن هنا لأمرٍ مـا، ولم يكن صعبـاً أن تعلم أن الإمدادات كلهـا كانت تأتيه من الأتـراك الصفويين، وتمييزهم بين حشـود من النـاس أمرٌ عسـير. ترى، لمـاذا خطت الفاتيـكان هذه الخطوة مباشـرة بعد وفاة ياووز سليم خان؟! هل لها علاقةٌ بلوثر؟! كان البابا ليو العاشر - واسمه الحقيقي جوفاني دي ميديشـي - يدرك أن الدولة العثمانية الأقوى في العالم تدعم كل من يسعى إلى تفتيت الاتحاد الكاثوليكي، لذا عليّ أن أكون يقظاً لأحـول دون أي اغتيال؛ وعلـى الأخص في الأيـام الأولى من حكم السـلطان سـليمان. ولهذا السـبب، لم أكن أنام الليالي، وكنت أسهر على جمع المعلومات، وتمكنت في الختام من محاصرة سافينو.

لمحني سافينو عند باب المسـجد البرونزي المزخرف. كان أنيقاً في مظهره؛ لحيته طويلةٌ شـديدة البيـاض، ويرتدي جبةً من الكشـمير الأبيض مطرزة بخيوط الفضة، وعلى رأسه عمامةٌ خاصة بالعلماء. كان ينشر حوله هالة من الاحترام، وكان الناس يقبلون يديه، ويسـألونه الدعاء، ويلتمسون منـه البركـة، وكان يجيـب عـن أسـئلتهم بالعربيـة الفصحـى والأعجمية. وعندما أدرك النـاس أنه لا يتقن التركية، بدأت أصواتهم ترتفع بشـكل غير معقولٍ وهم يجهدون في بيان أسـئلتهم. كان سـافينو يعـرف التركية كلغته الإيطالية الأم، لكنه رأى أن هذا الأسـلوب مناسـب لهدفـه؛ إذ كان يعرف من تجاربـه أن الأعاجم لهـم في هـذا البلد حرمـةٌ مطلقةٌ، وبهـذه الطريقة كان يتخلص بسـهولةٍ من الأسـئلة المزعجة. وأنا لا أسـتطيع إحصاء عدد المرات التي استجوبتني فيها قوات الأمن في الموانئ الإيطالية التي أتكلم لغتها كلغتي الأم في شبهاتٍ غامضةٍ غير محددةٍ، وفي كل مرة كنت أنجح في التصرف بشـكلٍ طبيعيٍّ وأبدو في صورة تاجرٍ ماهرٍ، ولست أدري إلى متى سيستمر هذا الأمر.

لا بدّ أن يكون سـافينو قد لمح في نظراتي معنـىً مختلفاً حتى تقهقر إلـى الـوراء وهـو يبتسـم للجمـوع، أدركت أنـه يحـاول اللجوء إلـى أحد الأعمدة القائمة خارج الفناء ليحمي ظهـره العريض، وفي عينيه الزرقاوين ما يشـير إلى توتره. سألت نفسـي بغضبٍ: لماذا لا أسـتخدم حيلةً قديمةً؟ فإذا أردت مراقبة إنسـانٍ ما فإن أفضـل طريقة هي أن تبـدو وكأنك لا تهتم به. لذا، ركّـزت انتباهي على محيطـه. والصينيون قديماً كانـوا يقولون: إن العين تـرى محيط نقطـة التركيز بشـكل أفضل، وهكـذا تنشـأ الحاجة إلى مراقب جديـدٍ متخصص. والطريقة الوحيدة لتلافي هـذا الوضع هي القيام بخطوة إلى الأمام.

عـدت أدراجي، وتظاهـرت بأننـي أبتعـد، واختلطت بالجمـوع التي تفوح منها رائحة المسـك وماء الـورد. كان المصلون يخرجـون من الباب الرئيس، وتركـت درهماً مـن الفضة على منديل متسـول أعمـى كان يقف على بعد أذرعٍ من جدار المسجد المنخفض المغطى بالطحالب، وهمست في أذنه بهدوء. وفي هذه الأثناء، كانت الظلمة تخيم على الشوارع الخالية تماماً، وهبت عاصفةٌ ثلجيةٌ باردةٌ.

لم أكـد أبتعـد عشـر أذرعٍ حتـى تعالـت ضجةٌ أمـام باب المسـجد. هذا يعني أن المتسـول الذي كان من رجالـي اعتدى على أحـد فجأةً وفق تعليماتي. وأنا بدوري انسـحبت مـن بين الجموع، وتسـللت إلـى الزاوية الأخرى فـي الجانـب المطل علـى البحر، وسـرت فـي الشـوارع الخلفية الخالية متجهاً إلـى الباب الخلفي لأتسـلل منه إلى فناء المسـجد. ولكنني أدركت سـريعاً أن من أواجهه ذئب مثلـي وليس خروفاً، فهـو يعرف كيف يحوّل الوضع الصعب لصالحه. تمكنت وسـط الفوضى من التقدم بسرعةٍ على طول الجدار الشـرقي مـن دون أن ألتفت ورائي حتى دخلـت الفناء، ولكنني فوجئت برجالي وقد اعتقلهم العسس. أما سافينو فلم يكن قد ترك مكانه وهو يراقب المكان خلفه، ولا يمكن القول إن الناس قد قل عددهم

حوله كثيراً. فلا بد أن سافينو قد اشتبه بشيء ما ولكنه لم يكن متأكداً منه. وفي الحقيقة، كان ذلك يكفي لتحركه. ولكن، لا بد لكل إنسانٍ من لحظة يغفل فيها، أليس كذلك؟! تسللت يدي إلى خنجري تحت حزامي الجلدي، فأمسكت به. وعندما كنت أتسلل بين الجموع الحائرة مقترباً من سافينو أدركت أن اثنين من رجالي كانا بالقرب منه، لقد قاما بعملٍ جيدٍ يستحقان المكافأة عليه.

عندما رآني سافينو أقترب منه مرةً أخرى، حسب أنني رجلٌ من عامة الناس لا يخشى منه بأسٌ، ورأيت كتفيه المتوترتين تسترخيان، لكن ذكاءه الشيطاني وخبرته التي تستعصي على الخيال أبقياه في حالة حذر وترقب، وقام بما توقعته، إذ امتدت يده من بين عجوزين كانا يقفان أمامنا، وأمسكني من كتفي، وسحبني إليه... إنه يتبع استراتيجيةً دقيقةً، فالجاسوس المدرّب إن شعر بمصدرٍ للتهديد، فهو لا يهرب كما يفعل معظم الناس، بل يتأكد أولاً. وإن تمكن من التخلص من مصدر التهديد في صمتٍ وهدوءٍ فلن يتردد، وها هي يده تمتد إلى مقبض خنجره الذي وضعه تحت حزامه، يبدو أنه سيتخذ قراره وفقاً لرد فعلي.

إن أولى علامات التوتر عند الإنسان تبدو في عضلات رقبته وكتفيه. والتدريب من أجل السيطرة عليها مهم جداً للجاسوس؛ فعليه تتوقف حياته ومصيره. وقد كان المرحوم سليم خان يولي ذلك التدريب أهميةً كبرى علاوةً على التدريبات البدنية الأخرى. ولذلك، كان رحمه الله بارعاً في السيطرة على غضبه الرهيب، ويسيطر على توتره في ساحات الوغى والقتال، ويتخذ القرارات الصائبة التي تدل على مهارته.

تتم السيطرة المباشرة على التوتر بحني الرأس قليلاً نحو الأمام، وعدم ابتلاع الريق لمدة عشر ثوانٍ، ثم ابتلاعه بعد ذلك. فالأعصاب تنشغل في تلك اللحظة بتأمين إغلاق مجرى التنفس لتأمين سلامة الابتلاع في تأخير بسيطٍ يؤدي إلى استرخاء عضلات الرقبة والكتفين.

والجاسوس المدرب يتمكن من القيام بالعملية بنجاحٍ، ويستغل هذه اللحظات لاستعادة هدوئه ورباطة جأشه.

وضع سافينو يده على كتفي وهو يقول: «نعم يا أخي؟! يبدو أنك تعاني من مشكلة ما!».

دفعني طولي أمامه إلى الانحناء قليلاً، ولا مكان للمفاجآت غير المتوقعة في مهنتنا، وكان لا بد من الرد على مبادرته بأحسن منها، فقلت مبتسماً: «نعم يا سيدي. إن مولانا السلطان المرحوم ياووز سليم خان أسكنه الله فسيح جناته لم يتردد في شن حملاته على العالم الإسلامي بدلاً من محاربة الكفار، والأهالي يفكرون: هل يقاتل المسلم مسلماً؟ وإن قتل فهل يكون شهيداً؟ وإن بقي فهل يكون غازياً؟».

أحسست بأنه بقي حائراً للوهلة الأولى. كان واضحاً أنه يريد أن يتجنب الخوض في مثل هذا الموضوع الحساس الذي كان مثار الفوضى والقلاقل بين الناس.

«أظن أن هذه الأسئلة قد أُجيب عنها في وقتها يا ولدي». وتابع وهو يتصنع الابتسامة: «يجوز الزحف حيثما تطل الفتنة برأسها. وبالتأكيد يكون من يحارب الفتنة فاتحاً».

ولأنني كنت أتوقع منه هذا الجواب حاولت محاصرته بمناورةٍ أظن أنها ذكيةٌ: «إذا كانت الحملة على الصفويين الأتراك الذين عملوا على تحريض التركمان البسطاء وعلى إثارة الفتن الإثنية في الدولة العثمانية محقة ضمن هذا المفهوم؛ فما الذي تقوله بشأن حملته على الدولة المملوكية التركية؟».

أدرك سافينو عندها أنه اصطدم بصخرةٍ صلبةٍ صماء، فبدأ يتلفت حوله وينظر إلى الجموع ممن تجمعوا حولنا، وأجاب وكأنه يريد الهروب: «إن فتوى حضرة مولانا شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي واضحة في هذا الخصوص».

فبادرت بدون انتظارٍ: «لكن ما قاله حضرة المفتي أفندي لياووز سليم خان واضح أيضاً: انتبه لنفسك أيها السلطان، إن عصيت الحكم فسأصدر فتوى، وأخلص الأمة من شر سلطانٍ لا يستجيب للشرع مثلك!».

«إن صيانة شرف السلطان في بعض الأحيان تكون بمثابة الحفاظ على شرف الدولة أيها الشاب!».

إن الفرصة قد حانت لشدّ الحبل الذي أظن أنني قد وضعته على عنقه: «وفي مثل هذه الحالة، تقولون إنه يحق للسلطان أن يسفك دماء المسلمين!».

عقد سافينو يديه على بطنه من دون أن يفقد شيئاً من هدوئه، وضحك بصوتٍ جميلٍ وتابع: «حاشا لله، لا يمكنك أيها الشاب أن تمسكني بما لم أتفوه به. وما يمكنني أن أقوله في هذا المقام هو التالي: إن المماليك لم يعودوا قادرين على ضمان أمن طريق الحجاز، ولم يعد بالإمكان إبقاء مسؤولية الحفاظ على أمن الطريق على عاتقهم، فطريق الحجاز مهددة بهجماتٍ لا ترحم من قبل فرسان رودوس والمستعمرين البرتغال والقراصنة الإسبان الذين لديهم أطماع في المنطقة. علاوة على أن موقف أمير عشيرة ذو القادر من سليم خان كان واضحاً، على الرغم من كون أبناء العشيرة أحفاد علاء الدولة بوز قورت بك. فقد اتبع دائماً سياسةً تميل إلى المماليك، وبقيت كل طلبات العون منهم في حملاته ضد الصفويين بلا جواب، فكانوا يخافون منه، والخيانة ابنة الخوف، وقد أدرك علاء الدولة بوز قورت حذر سليم خان وقوته منذ فتوحاته الأولى في بلاد فارس والقفقاس. وكان حفيده يعرف أنه سيأتي يومٌ يضع فيه سليم خان عينه على إمارته، ولذلك اتبع سياسة الوقوف تارةً مع الصفويين، وتارةً مع المماليك، ودائماً ضد العثمانيين، وقد سانده السلطان المملوكي قانصوه الغوري في المحافظة على استقلاليته ليكون

بمثابة منطقة أمانٍ عازلة بينه وبين سليم خان. وينبغي هنا ألاّ ننسى أن الشريك في الفتنة كموقدها».

كاد أن يقنعني هذا الملعون، فأضفت سائلاً: «ألم يكن بالإمكان أن يتبع سليم خان سياسةً يعتمد من خلالها على قوة المماليك ضد فرسان رودوس والمستعمرين البرتغال والإسبان؟ ألم يكن بالإمكان أن يتبع سياسة أبيه السلطان بيازيد وليّ[1] الذي كان شفوقاً بالمماليك وأبناء عشيرة ذو القادر، ولجأ إلى الدبلوماسية مع إسماعيل فقط لأنه كان يخشى سفك دماء المسلمين؟».

«إن أداء الفن الذي يسمى ديبلوماسيةً يحتاج إلى فريق عملٍ متمكنٍ، ولا يكون في الغالب كافياً أيها الشاب».

بدأت الهمهمات تعلو من حولي، ربما تجاوزت حدي في هذا الموضوع، وسافينو مستمر في مناقشتي بمهارةٍ فائقةٍ تجعلني أبدو سطحياً. كان الهواء البارد يطفئ قليلاً النار التي تثير الجفاف في فمي، وكان لا بد لي من المتابعة حتى النقطة التي لا يمكن العودة منها، فقلت في حدةٍ: «إنهم مسلمون، وعلى المرء أن يشير للأخطاء بصوتٍ عالٍ كما يبين الصواب أيها العجوز. وغياب الرحمة التي يحملها سليمان خان وجده بيازيد عن أبيه سليم خان على سبيل المثال، جعل هذا الأخير يسخر العلماء الأفاضل ويشركهم في أهوائه».

شعرت بأن شخصاً ما يمد يده نحوي ويمسكني من كتفي بقبضته القوية، ربما كان يريد أن يوقفني عند حدي، فتدخل سافينو الذي كان يحاول أن ينأى عن أي توترٍ أو مداخلة أمنية، وقال بابتسامةٍ مهيبةٍ وقورةٍ: «إخواني المسلمين، اسمحوا لي أن أتكلم، أنتم تعرفون أن لغتي التركية ضعيفةٌ، وأعتقد أن بينكم الكثيرين الذين يشاطرون أخانا هذا القلق، ولا يكفي أن نبقى صامتين، بل ينبغي أن نناقش المشكلات بتفكير سليم،

---

(1) اسم مركب.

واحترام لآراء الآخرين، وعليكم أن تباركوا لأخيكم هذه الشجاعة».

فهمهم الشيخ الذي أمسكني من كتفي والذي يبدو من انحناءة ظهره أنه في أواخر السبعينيات قائلاً: «إن الصواب لا يقال في كل مكان، فهناك أمورٌ لا يستطيع إدراكها الخونة الكافرون بالنعمة. لقد امتدت دولتنا إلى غنى مصر، وتأمنت طرق الحج، ولا تنسوا أن مقام الخلافة انتقل إلينا بفضل سليم خان جعل الله الجنة مكانه».

وشد صوتٌ غاضبٌ انتباه الجميع وهو يقول: «لا». فالتفتوا إلى بائع سمكٍ معقوف الشاربين تفوح منه رائحة السمك، والذي تابع قائلاً: «إن الخليفة ينبغي أن يكون من قريش، وهذا أمرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يقبل بعد كلامه كلام، ولا بعد حديثه اجتهاد!».

فرد عليه الشيخ: «يا ولدي، عندما تقتضي الظروف، ولا يكون بين القرشيين من هو أهل للخلافة، يجوز لمؤهلٍ من غيرهم من الشعوب أن يتولى الخلافة نيابةً عنهم».

جمد الرجل في مكانه، وعلت وجهه حمرة الخجل، واستعصت في فمه عشرات الكلمات التي لم يتمكن من الإفصاح عنها. على أي حالٍ، لم يلبث الرجل صامتاً لفترة طويلة، فالتقط نفساً عميقاً، وعقد ذراعيه أمام صدره، وشرع في الكلام مذكراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكاً». وأضاف: «ثم من قال لكم إن المماليك لا يمكنهم حماية طريق الحج؟! فكل الناس يعلمون أن قانصوه الغوري رجل خبير ورحيم، وحماية طريق الحج بالتأكيد مسألة تهم كل دولةٍ في بلاد المسلمين. وما يشاع مجرد سياساتٍ، وتلفيقاتٌ مختلقةٌ لتبرير سياسات الدولة، وإخضاع المسلمين تحت سلطتها...».

عندها، صاح رجلٌ من أتباعي قائلاً: «إنه قزل باش[1]! ليس لديه

(1) أي رافضيٌّ، لقب يطلق على بعض فروع الشيعة.

هم سوى إثارة الفوضى في هذا البلد!». وأضاف آخر: «وكل القزل باش يكيلون الشتائم لبعض الصحابة الكرام». وصاح صياد السمك: «وهل قتلتم مئة ألف قزل باش من أجل ذلك؟!».

فتحدث مجدداً الشيخ الذي تكلم آنفاً: «إن هذا كذب وافتراء. لقد اشترك في تلك الغزوة ثلاثة من أولادي، واستشهد منهم كاتب محرر. ولو كانت المذبحة كما تقول، لكنا قد رأينا سجلات ضخمة لدفاتر الضرائب التي تسجل أسماء هؤلاء. ونحن لا نرى في هذه السجلات سوى أسماء ثلاثة آلاف؛ وأولئك كانوا ممن يسعون في الأرض بالفساد ويهدفون إلى نشر الفتنة، ويجعلون بيوتهم مهداً لها».

تلفت الرجل حوله خائفاً وهو يقول: «أنت تتكلم بلسان الدولة أيها الشيخ».

«الدولة؟! لا أيها الشاب. أنا لا أتكلم إلا بصوت قناعتي ووجداني. والحقيقة لن تبقى أبداً أسيرة الكتمان، وكتمانها يخالف طبيعتها. وإن دفنتها ما شئت في الأعماق، فإنك لن تتمكن من منع ظهورها ذات يومٍ!».

«كلما شحت واردات الدولة ازدادت مظالم التركمان. ولا أحد يرى ذلك أيها الشيخ، فطريق الحرير والبهارات لم تعد مجدية، وأنا صياد، وفي الوقت الذي يضيق علينا فيه البحر المتوسط، يتجول البرتغاليون والإسبانيون كما يشاءون في المحيطين الهادئ والهندي. وبينما نحن نتحدث هنا الآن، تراهم يسعون في تلك البقعة التي يسمونها أمريكا، ويصبحون أغنياء، ويتحدثون عن مدينة من ذهب إسمها إلدورادو...».

«كل هذا كذبٌ وافتراء يقصد به تحطيم معنوياتنا. ليست هناك بقعةٌ اسمها قارة أمريكا... ولو كانت موجودةً لاكتشفناها، واكتشفها جكا بك وأمور بك وقرة مرسل بك والريس كمال والأخوان بربـاروس. لا، ليس هناك مكان اسمه أمريكا».

عقد الصياد ذراعيه أمام صدره في ثقةٍ، وتوترت عضلات فكيه،

وقال في لهجةٍ حادةٍ:

«لقد جننت يا صاحب اللحية البيضاء! يبدو أنك لم تسمع بخريطة البحار العظيم الريس بيري، فهذه الخريطة مفخرةٌ للبحارة الأتراك، وفيها تظهر شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية...».

لم ينتظر الشيخُ الصيادَ حتى يكمل كلامه وقاطعه قائلاً: «إن هذا كذبٌ يرمي للإساءة إلى عالم كبير كالريس بيري...». وهز الصياد رأسه يمنة ويسرة وهمهم كمن يحدث نفسه: «لا أعرف أمريكا! ولكنني لم أر من يواسي نفسه مثلك...».

كانت الكلمات الأخيرة للصياد القطرة التي جعلت الكيل يطفح، ولاحظت بخبرتي الطويلة تحركا خبيثاً يتجه نحوي، وكانت يدي ويد سافينو على مقبضي خنجرينا. وفجأةً، فكت النظرات المشفرة لعيوننا، واستللنا خنجرينا معاً، غير أنني لم أتوقع أن سافينو سيتحرك بمثل هذه الدقة.

أمسك عملاء سافينو الصفويون بذراعي، وكانوا قد أحاطوا بي منذ زمن بعيد، فدفع خنجره نحوي بحركة خبيرة ليغرزه كاملا في قلبي، فهذه فرصةٌ لا يمكن تعويضها. شعرت بالذعر يتملكني، ويسيطر على عقلي، وكأنما الزمان قد تحول إلى ذبابةٍ عالقةٍ في جرة مربى، وظهرت مفاصل أصابع يد سافينو شديدة البياض يغطيها شعرٌ شديد السواد... حاولت التراجع إلى الوراء، وانكمشت على نفسي. كان الخنجر الفارسي بمقبضه المزخرف بالفضة يتقدم مني قاسماً الزمان إلى شطرين، وغدا بريق معدنه المضروب على الرمل شعاعاً يحطم كل أقفال أبواب الغرف المظلمة في عقلي. لقد تحول الخنجر إلى مرآةٍ قديمة، ونافذة مفتوحة على الماضي، واستطعت في تلك اللحظة أن أرى كل المشاهد المهمة في حياتي وهي تتدفق من تلك الغرف المظلمة، وتمر أمام عيني بسرعة خاطفة في ظل سيلٍ من الضوء الأرجواني. في تلك اللحظة، انطلق فجأةً رأس سيفٍ مدببٍ حادٍ ليعترض الخنجر، ويحول دون إصابته هدفه بإصبع أو

إصبعين، وطعن سافينو في ذراعه.

لم يكن صاحب السيف واحداً من رجالي، بل كان الريس شرف الدين طوقاتي رئيس رابطة أصحاب الزوارق الصغيرة، وكنت قد التقيته سابقاً عدة مرات. لقد استل سيفه بمهارة منقطعة النظير، ثم وضعه في غمده واستل خنجره وسط دهشة الحاضرين، واشتبك مع رجال سافينو بجرأة تنتزع منهم الإعجاب. وكان سليم خان قد اختاره بعد بطولاته في جالدران ليكون قائداً لإحدى السفن الحربية[1]، ثم أصبح صاحب الكلمة في البحر الأسود بأسطوله الصغير من السفن الشراعية التي تعمل في صيد السمك، وامتلك مستودعاً كبيراً للحبوب في ميناء القرم. وهو يعمل في التهريب أحياناً، ومن بين الأشخاص المهمين في الرابطة، وكان رجلاً شجاعاً لا يخشى المغامرات، واستطاع أن ينجو من ثلاث محاولات اغتيالٍ... وهذا يعني أنني الآن مدين للرابطة بحياتي، وأنا لا أحب أن تكون لأحدٍ منةٌ عليّ وفضلٌ، فكيف إذا كانت المنة في قضيةٍ مصيريةٍ، ولرجل يقود تنظيماً في غاية الأهمية؛ مثلي؟!

استللت خنجري، وشرعت في القتال إلى جوار الريس شرف الدين، ولم أعد أعرف عن رجالي شيئاً، وإن كانوا على قيد الحياة أم لا. استخدمت خنجري بقوةٍ وغضبٍ، واستطعنا الخروج من ممر آمنٍ يفضي إلى الباب الخارجي للمسجد مع عدد من رجال الرابطة الآخرين الذين شاركوا في القتال إلى جانبنا. والجانب الأسوأ في كل ما تعرضت له هو ما ينتظرني في المساء، إذ ينتظر مني إبراهيم البرغالي آغا صديق سليمان آغا الحميم ونديمه وحافظ سره تقريراً عن سافينو، وأنا لا أعرف ماذا يجب أن أقول له، فقد نجا هذه المرة بأعجوبةٍ... ولكن في جعبتي معلومات مفاجئةٌ ربما تشفع لي...

(1) سفينة حربية متطاولة، تعمل بالأشرعة والتجذيف، ويتألف طاقمها من 25 شخصاً.

لن يثق بي أحدٌ إلا أنت
(إبراهيم البرغالي)

I

النفوس الكبيرة كالأنهار العظيمة تتغير أعماقها دائماً.

Panait Istrati (صياد الإسفنج البحري)

12-22 تشرين الثاني 1520، إسطنبول

كانت الريح قاسية على فروع الأشجار الضخمة، وكان بردها أشد قسوةً وأقل رحمةً كشأن كل الجبارين، وكان كل شيء يشير إلى اقتراب هطول الثلوج في الساحات والشوارع الخلفية التي تغطت بأحلام الفخر والاعتزاز، وكانت النوافذ خلف القضبان البرونزية مغلقة بإحكامٍ، فيما أرخى الليل سدوله على المنازل التي شرّعت وجوهها للشمس المُشرقة خلال النهار. كانت الرياح الباردة القادمة من البحر الأسود تهب على طول الخليج والشوارع، وتضرب وجهي وكأنها تحرق جبهتي وعظام خدّيّ.

نعم، كنت أنا المسافر الغريب الذي يسير مفكراً تحت وطأة العاصفة الثلجية التي هبت قبل قليلٍ، والذي يشتم الرياح الرطبة الباردة التي تتسرب عبر ثغرات قميصي الأبيض إلى جسدي، وأنا من كان يتخفى خلف جدران الخانات العالية كمحب ابتلت عيناه من لوعة الأشواق.

في بعض الليالي، كنت أجد نفسي واقفاً مكشراً في باحات المساجد الرخامية المهيبة التي يرتجف لها قلبي كمجنونٍ ينتظر همساً سرياً. وفي

بعض الأحيان، كنت أقابل العسس ذوي المناظر الرهيبة في أعماق الشوارع الموحلة، وهم يحملون أسلحتهم والمشاعل الزيتية التي تحمل القطع المبللة بالسائل المصنوع من خليط بول الجاموس والزئبق ودم الكلب. وكانت رائحة هذا السائل القوية تنتشر لمسافات كبيرةٍ فيشمها الأشرار، ويتوارون عن الأنظار بسرعةٍ قبل أن يداهمهم العسس.

ولكنني لا أعرف كيف يمكنني أن أصف المشاعر التي أحس بها عندما تقابلني الابتسامات العريضة التي ترتسم على أفواه الإنكشاريين[1] المائلة، وبريق عيونهم المتوهجة بالبهجة في ظلال المشاعل التي يحملونها؟ إنه إحساسٌ ثقيل وكأن الزمان يقف. وكنت أبادلهم التزلف نفسه، ولا يمضي زمن طويل حتى تقع عيونهم على الخط الهمايوني المختوم بالختم الذهبي للسلطان عندما أفتح قفطاني، فيختفي بريق البهجة من عيونهم، وينكمشون على أنفسهم من شدة الخوف، ويدركون أنهم في هذه الليلة لن يتمكنوا من جلد أحد جلدة واحدة بلا مبررٍ، بل إنهم يعتبرون أنفسهم محظوظين إن استطاعوا أن ينقذوا رؤوسهم.

كانوا يقتربون من بعضهم إلى درجة التلاصق، ويحاول كل واحد منهم أن يختفي خلف الآخر كما يفعل الأطفال. وفي تلك اللحظات، كنت أشعر بأن وجهي مكفهر إلى درجة التشويه، وتتداخل الخطوط المنتظمة التي تكون صفحة وجهي في مشهدٍ مخيف، وأتخيل تلك الأجسام القوية بين صرير الحديد وخشخشة السلاسل وأصوات الاحتكاك الثقيل للبكرات المشحمة والمشاهد المروعة التي تتجمد لها

(1) الإنكشاري: هو في الأصل «الإنكشارية» أو «يكي چري» بالحروف العثمانية. والإنكشارية عبارة عن جيش خاص من أبناء الأسرى الذين يتولى السلطان أمرهم. ومهمتهم خوض الحروب، وكانت لتشكيلاتهم تقلبات مختلفة عبر التاريخ العثماني. وفي هذه المرحلة، كان الإنكشاريون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الأول حرس السلطان والقصر. والثاني حرس المراكز الحكومية والولاة وغيرهم. والثالث، هم الجيش الذي يخوض الحروب.

الدماء. يبدو أنه لم يكن يكفي أن يُعذَّب الآخرون حتى يدرك الإنسان مقدار عجزه. فلإدراك العجز الحقيقي، كان لا بد أن تتسلل إلى السطح شعلة ذلك المشهد الذي يرتسم في ذهن الضحية وهو يتعرض للتعذيب. ولإدراك هذا العجز مع الأسف لا يكفي أن تمارس دور المعذِّب، بل ينبغي أن تلعب دور الضحية.

كنت أشعر كما لو أنني أضع أحد الأقنعة التي يسميها الإيطاليون «شخصية» (persona) وذلك عندما ترتسم على وجهي تلك الابتسامة العريضة. فأنا الآن ألعب دور الممثل البطل المتجول في مسرح الشوارع. لكن أدوار الإنكشاريين كانت أكثر أهميةً؛ لأنه لا يمكنك أن تتخيل ما سيحل بهم عند أي حركة اختراق تحاول تعكير صفو سكنات الليل الجليلة. وما إن يدرك العسس مكانتي حتى تراهم يقبّلون طرف قفطاني، ويعتذرون آلاف المرات، ويفرون وهم يجرّون الهراوات الطويلة المصنوعة من فروع التوت البري خلفهم.

* * *

كان قلبي يحترق هكذا منذ زمنٍ طويلٍ، وعيناي يغطيهما دخانٌ نحاسيّ اللون يثقل روحي بالآلام، وأشعر بجسدي يسحق في بعض الأحيان، وأسمع أنيناً غير إراديّ ينجو من شفتي في ظل عبءٍ ثقيلٍ يلقى على كاهلي... وفي لحظاتٍ تعكس فيها المرايا ضوءاً من زمانٍ قديمٍ، يكفهر وجهي، ويغيب عنه جماله الذي لا ينكر. وحينها، كنت أضع قناعاً يجعل مني شخصاً لا أعرفه أنا نفسي؛ فكنت صاحباً وخائناً في الوقت نفسه، وكنت موجوداً ولم أكن موجوداً أيضاً، وروحي كانت جزءاً من كذبة كبرى بقدر ما كان اسمي ولقبي وعنواني تجلياً من تجليات القدر. خطٌّ رفيعٌ لا تدركه العيون يفصلني عن الواقع، فالإنسان يصغر ويصغر حتى يبدو النمل في عينيه كالجمال.

نُقلت إلى هذا البلد العثماني عبداً، كنت وقتها في السادسة من

عمري. وبعض الأحداث المؤثرة في حياة الإنسان تترك في عقله ذكرياتٍ لا تمحى؛ تماما كآثار الجروح العميقة. كان أبي لوسيانو البرغالي بحاراً من أصلٍ إيطالي، لم يستطع أن يقاوم إصراري، وتمكن من تأمين ركوبي على متن السفينة الشراعية التي كان يعمل عليها في ذلك اليوم الخريفي المعتدل. ولا زلت أذكر كيف تأثر القبطان بلطفي ونضجي، فقبلني في السفينة بعد اعتراضٍ. وربما سمح لي بركوب السفينة لأن السفر كان لمدة قصيرة لا تزيد عن عشرة أيامٍ. لم تكن السفينة كبيرةً، إذ كانت بشراعين ومستودعٍ واحدٍ. مسح القبطانُ ألكسندروس تاكيس لحيته السوداء، وقال:

«انتبه يا يانكو! إننا في السفينة لا نحب الكسول. وبما أنك تصر على السفر معنا فلا بد أن تدفع الثمن، وهذا الثمن ليس سوى عرقك!».

حينها بدأت بالعمل من دون تأخرٍ، وشعلات السرور تتوقد في نفسي. فأنا الآن صياد سمكٍ حقيقيّ. ركضت فوراً لمساعدة النجار وطاقم مقدمة السفينة على تصفيحها بالأخشاب؛ حيث يجري حفها وشدها إلى بعضها بالغراء المصنوع من خليط شمع العسل وشمع نطاف الحوت والغراء. وما زلت أذكر كيف كنت ألعب بمادة شمع العسل اللينة والمقاومة في آنٍ بتطويعها في كفيّ، والتي لا تلبث أن تغدو طرية وتغطي أصابعي، وكيف كنت أنظر إليها في سعادةٍ وكأنها طبقةٌ سحريةٌ وقطعةٌ من قماش الحرير. سرت خلف النجارين، وعملت على كشط الطحالب التي تغطي خطوط التحام القطع الخشبية. وأذكر أيضا كيف مسح رئيس الطاقم الضخم على شعري بمودةٍ وهو يقول: «لا يا يانكو، لا داعي لأن تضغط عليها». وفتح سترته الطويلة، وظهر قميصه الأخضر وقد زخرفت ياقته وطرفا كمّيه، وجثا على ركبتيه، وتناول مكشطة الطحالب بيديه ليريني كيف أكشط الطحالب. وعرفت في ما بعد أنه نيكوس.

رفعت إليه رأسي وقلت: «إن أمي ديسبينا ليست أجمل امرأة في اليونان فحسب، بل إنها أيضاً أمهرهن. وقد ساعدنا أبي على إصلاح شرفة

منزلنا فـي بارقة، وقد علمتني أمي كيف أحف سـطوح الأخشـاب بشـكلٍ أفضل من أبي».

فقال لـي عندهـا: «واو يا يانكـو! كل الرجـال يحلمون بالـزواج من امرأة مثل أمك». وضحكنا، ووعدني بأن يأخذني إلى أعلى السـارية الثانية إن قمت بعملي بشكل جيد. ولسوء الحظ، لم نجد فرصةً للقيام بذلك.

كانت أوترانتو[1] في يد الأتراك منذ ثلاثة عشر شهراً، وكان القراصنة الأتراك يجولون في السـواحل المحيطة، ويخترقـون المناطق الداخلية في عمليـات نهب عامـةٍ، حتـى إنهم أصبحـوا مصـدر رعب لا يفارق سـكان السواحل. توتر الجميع عند اقترابنا من تلك المنطقة، ونظّم القبطان نوبات الحراسة بدقةٍ، وقال في ثقةٍ: «والآن، هيا تفضلوا». في إشارةٍ إلى الأتراك، وكان يضحك بعصبيـةٍ بالغة، ثم دعاني إليه، وأخرج من جيب سـترته التي تفوح منها رائحة السمك سـواراً من الفضة تتدلى منه أسنان سمك القرش شـديدة البياض، وأمسـكني من كتفي وأضاف: «لقد أصبحـت الآن رجلاً حقيقيـاً». وما زلـت أذكر لحيتـه السـوداء التي تضفـي عليه هيبـةً غامضةً، والبهجة التي تشـع من عينيه الزرقاوين. اتجه إلى والـدي والآخرين الذين كانوا يراقبوننا مبتسـمين، وصاح فيهم: «لِمَ تقفون هكذا؟ هيا قدّموا التحية لعامل السفينة الصغير!».

لم أصـدق عينـيّ عندمـا انطلـق صفيـر «سيليسـترا» القبطـان الأول الحـاد، ليجمـع كل الفريـق لأداء التحيـة لي، نعـم، كلهـم وقفـوا أمامي: الريس نيكوس الضخم الذي قاسـمني سراً سـمك القد، والطباخ الإيطالي (واسـمه – إن لم أكن مخطئاً – غيسـبي) وهو الـذي أهداني نجمـاً بحرياً مجففاً وردي اللـون، والقبطان الثاني زولتان المجـري الذي دس في يدي بهدوءٍ طعام غدائه من السـمك المبخر والخبز في منديل كبيرٍ قذرٍ لأتناوله إن جعت في الليل... وقفوا جميعاً أمامي وهم يهتفون باسـمي ويصفقون،

(1) أوترانتو مدينة ساحلية في جنوب إيطاليا اليوم.

وحملونـي عالياً، حتـى إنهم قدمـوا لي في تلـك الليلـة شـراباً برتغالياً في كوبٍ صغيرٍ، ونجحت في تجرع ذلك الشراب الرهيـب بفخرٍ لأثبت أنني أصبحت رجلاً حقيقياً. وهكذا، كان أسعد يومٍ في حياتي يطوى.

لكن طاقـم السـفينة بمن فيهـم الحـراس لـم يتمكنوا مـن الخلاص من شـبح النوم الذي سـيطر عليهم، فغرقوا في سـبات عميق في نهاية يومٍ متعبٍ ومثمرٍ. اسـتيقظت في وقت متأخرٍ مـن الليل، فيما ضبـاب الصباح الحاد يتسرب إلى ظهر السفينة، ويتسـلل إلى قمراتها، في وقتٍ كان البحر فيه مسـتمراً بصمته المخيف. كانـت مثانتي تكاد تنفجر، ربما بسـبب البرد الخفيف الـذي أصابني في النهار. كنت أتقدم بسـرعةٍ نحـو المرحاض في القمرة بين صفوف الأسـرة ثلاثية الطبقات، وإذ بقدمي تتعثر بحذاء خشبي سميك، وأسقط على وجهي.

في تلك اللحظـة، وبينما كنت أحـاول الجلوس في مكانـي، تناهت إلى سـمعي بعض الأصوات، ترافقها خطواتٌ سـريعةٌ يتبين من وقعها أنها تخص أشـخاصاً ذوي أحجام ثقيلة. كما سمعت صليل الحديد، وأصوات الأجسـام الصاخبة التـي تتكدس علـى الأرض بهـدوء. وعلـى الرغم من طفولتي، أدركت أن شـيئاً ما يدور على سطح السفينة، وشـعرت بأننا ربما نتعرض لهجومٍ، وتملكني خوف تحجر له بطني ومثانتي.

تعالت الأصوات المخنوقة حتى تمكنت مـن تمييزها، وتحولت من ضجيجٍ مكتومٍ إلى صخبٍ كبيرٍ، فزحفت تحت أقرب سريرٍ، وبدأت أنتظر على الخشب الرطب البارد في صمتٍ يقطع الأنفاس.

كان بإمكاني أن أصـرخ وأوقظ كل النائمين في القمـرة، لكنني كنت خائفاً، والجبن يشـرع الأبواب للعيـش الذليل دائماً، وإنمـا الآمن أيضاً... كان أبي لوسـيانو مسـتغرقاً في نومه غافلاً عن كل شـيء، وكذلك القبطان الأول تاكيس الذي يحبني كثيراً وأهداني سواره الفضي وكلّ أفراد طاقمه. وكان شـخير القبطان الثاني زولتان يملأ جنبات القمرة وتمتصه أخشـابها.

نعم، كل الكبار الذين يحبونني كثيراً كانوا مستغرقين في نومٍ عميقٍ.

وهكـذا، كنت أنفـذ خيانتي الأولـى لكل الذيـن وثقوا بـي وأحبوني وائتمنوني عندمـا تمكن الأتراك من الحراس على ظهر السـفينة، وتسـللوا إلى الداخـل بهـدوءٍ، وألقوا القبـض علي وعلى والـدي وعلى عـددٍ قليلٍ مـن الطاقـم أحيـاء، فيمـا اسـتلقى الآخـرون علـى أرض السـفينة صرعى ومضرجيـن بدمائهـم: القبطـان ألكسـندروس تاكيـس، والريـس نيكوس، والطباخ غيسـبي، والقبطان الثاني زولتان... وبعد قليلٍ، تحولوا إلى طعام لأسـماك القـرش. وكان سـروري لا يوصف. فقد نجـا والدي مـن القتل، وحسبت أن كل شيء سيكون خلال وقت قصير على ما يرام.

لم أسـتطع أن أعرف اسـم ذلك الرجل قطّ، وكل ما علمته بعد ذلك أنه قبطـان سـفينةٍ تركيـةٍ اقتربت منـا بهـدوءٍ، وكان يعتمر عمامـة خضراء، ويرتدي قميصاً أسـود وصدارة بـلا كمين وسـروالاً أحمـر، وينتعل جزمة جلدية طويلة تبلغ ركبتيه، يناديه أتباعه بالريس فقط. أجال بصره فينا بنظرةٍ قاسـية، وتناول قبعة القبطان الواسـعة وألقاها في عرض البحر، وتنقل بين الجثث وهو يغـرز رأس سـيفه المدبب فيها، ثـم التفت إلينا وقـال لأتباعه بلسـان يوناني: «العاصفـة قادمة، أنزلـوا هؤلاء إلـى المسـتودع». ثم لمح السوار حول معصمي فانتزعه مني ووضعه في جيبه.

II

كان قد مضى على أسرنا قرابة شهر عندما وصلنا إلى ميناء فوتشي. وكنا ندرك بالحدس، ومما يتناهى إلى سمعنا من أصوات، وما يصل إلينا من روائح، وما ندركه من أصوات الحيوانات التي ينقلونها إلى عنبر الحيوانات أننا توقفنا في ميناء، فنتبادل النظرات محاولين توقع ما سيحدث.

أخرجونا إلى ظهر السفينة تحت شمس الشتاء الدافئة والرائعة في فوتشي وأقدامنا مكبلة بالسلاسل، فتمتعنا بالهواء الطلق في وضح النهار بعد الانتظار الطويل في الظلام. كنت مقيداً بالسلاسل مع والدي. وكانت العناية بنا جيدة، فقد قدموا لنا شراب العنب اللذيذ، ووجبات الأرز والمرق حتى امتلأت بطون الجميع. غير أنني لم أكن أعلم أنهم يفعلون ذلك في سبيل الحصول على مال وفير في سوق النخاسة.

كنا لا نعرف ماهية السائل الأخضر الذي يضيفونه إلى القناديل الزيتية في الزاوية فينتشر دخان كثيف في الأجواء، ويتسلل إلى أنوفنا، فنستغرق في نوم طويل وعميق...

في ميناء فوتشي، في أيام الشتاء الباردة، تم نقلنا إلى أقفاص على عربات تجرها الخيول، وكانت الأقفاص المهتزة لا تهدأ، ونحن مخدرون ومقيدون بسلاسلنا. كانت حمرة الشمس الحلوة لا تزال تسيطر على الوديان، وتناهت إلى مسامعنا همهمات مختلطة من هنا وهناك، فيما الخيول تتقدم ببطء على طول الضفة الموحلة للنهر الذي يتشكل من عين قديز، وبلغنا مانيسا مساء بعد مسير يومين. تقع مدينة مانيسا على سفوح جبال سيبيل الغنية بغطائها النباتي وأنهارها الكثيرة التي تمر بين المنازل

والقصور الخشبية البيضاء المؤلفة من طابقين، والتي تحيط بها حدائق غناء... ما زلت أعتقد أنها على الأقل واحدة من أجمل المدن في العالم. ومانيسا هي المركز الإداري لسنجق ساروخان[1]، وهي نسخة مصغرة عن إسطنبول والدولة العثمانية؛ بخاناتها القديمة، وحماماتها التي تغطي الأعشاب قبابها، ومساجدها اللطيفة المزينة، ومآذنها التي ترتفع عالياً كالأقلام، ومدارسها الحجرية، ومشفى الأمراض العقلية البيمارستان فيها، والتكيات الخيرية، ودور الأيتام، والمدارس الإبتدائية. عبرت الخيول الطرق الممتدة بين المنازل الكبيرة والأسواق حتى حطت رحالها في سوق النخاسة. وهناك افترقت عن والدي للمرة الأولى، ولفترة امتدت سنوات طويلة.

أوقفت أيبيكة هانم عربتها أمامي، وتوسطت خادمها الكاخيا[2] لشرائي، ودفعت مبلغاً كبيراً لا يمكن مقاومته. ويبدو أنني كنت عرضة للمزايدات بسبب بشرتي السمراء وعيني الزرقاوين وشعري الطويل الكثيف الداكن وعظامي التي تبشر بقوة الشباب مستقبلاً... كل ذلك لم يكن ليغيب عن العيون.

عرضت أيبيكة هانم مبلغاً يفوق بكثير خمسين دوكة ذهبية بندقية، وهو متوسط سعر العبد السليم الفتي، وسيمضي وقت طويل قبل أن أعرف ذلك. لقد كانت أيبيكة أرملة لم ترزق بأولاد. والثروة الكبيرة التي ورثتها من زوجها، ومزرعتها التي لا تبعد كثيراً عن مانيسا والتي تحيط بها كروم العنب وبساتين الزيتون مكنتاها من تكريم العلماء، وتنظيم مجالس العلم والفن، وتقديم الهدايا؛ فكانت لها بذلك مكانتها بين الناس.

سرت الشائعات بين الناس كالنار في الهشيم، «لقد دفعت أيبيكة

---

(1) الخان الأصفر.

(2) الكاخيا: القائم بأعمال المنزل أو القصر، ومدبر شؤونه في تأمين الحاجيات وتنظيم الخدمة وغير ذلك.

هانـم ثمانيـن دوكـة ذهبيـة بندقيـة مقابل طفـل صغير، واشـترته مـن دون الحاجة إلى مزاد». وبدأ الناس يتوافدون إلى منزلها بذرائع مختلفة يريدون رؤيتي، ولا أعـرف بالضبط عدد الذين نظـروا إلي باحتقـار، ولكنها كانت تسـتمتع بعرضي على الضيوف بجسمي الصغير وكسـوتي الرائعة، وتحب سماع الأغاني الشـعبية اليونانية التي كنت أتقنها، وتستمتع بعرض مهارتي في العزف على الكمان رغم صغر سني.

وبهذه الطريقة اسـتطاعت أن تثبت فراسـتها وذكاءهـا للناس، حيث أدركـت أنه لا بـد أن يكـون لي شـأن عظيـم فـي المسـتقبل. أما أنـا، فقد كنت أفتخر باهتمام امرأة شـابة بي، فهي أصغر سـناً من أمـي، وكنت أبذل كل ما في وسـعي لأكسـب حبهـا وحنانهـا. لقـد عاملتني أحسـن معاملة، وجعلتني أدرس على أيـدي أفضل المعلمين، وحولـت كل زاوية في بيتها إلى مدرسـة من أجلي، وتحملت في سـبيل ذلـك كل النفقات، وألبسـتني الثياب الجديدة المزركشـة والملونة التي كانت تخيطهـا غالباً بيديها فأبدو كمهرجي القصور. غير أنها طالما جرحـت كرامتي عندما كانت تطوف بي في الأسواق بتلك الألبسة، ولكن أفكاري الماكرة كانت تسول لي دائماً أن أتصنع الابتسامة.

كان الجميع يسخرون مني، والشـباب المتجمعون في زوايا المنازل الرطبة والساحات يسـمعونني الكثير من عبارات الاسـتهزاء، وقد أصابني ذات مرة حجر في مؤخر رأسـي فخررت على ركبتي. ولكـن، ماذا فعلت بعد ذلـك؟! نهضـت بصعوبـة، والتفت إلـى مصـدر الحجر، وابتسـمت، وتعالت منـا جميعـاً قهقهات لامسـت عنان السـماء، ولم أسـمح للكاخيا العربي ولا القلفة[1] حاجي إلياس بك بالتدخل في الأمر؛ لأن صوتاً داخلياً كان يقول لي: «انتظر، انتظر... لم يحن الأوان بعد».

(1) القلفـة: مسـاعد الكاخيـا (وهو المقصود هنا)، ومسـاعد الأسـتاذ في نظـام التعليم القديم، ومساعدو رؤساء الحرف (مساعد الأسطة).

هنا، لا بد لـي من أن أبيّـن أنه لم يكن الأسـرى في الدولـة العثمانية يسـتعبدون بالمفهـوم الأوروبـي الـذي يجـرد العبيـد مـن كل الحقـوق الإنسـانية، بل يجـري إعـداد بروتوكول يسـجل بموجبه الأسـير على دفتر خاص لدى القضاة يسمى «دفتر التّركة»، ويعمل بموجبه إلى أجل مسمى، ثم يصبح حراً. وهو ما يعـرف بقانون «المكاتبة»[1]. غير أنني لم أكن أسـير حرب، وإنما اختطفـت من قبل القراصنـة الذين كانوا ينشـطون في بلادي رغم عقوبة الإعدام الحازمة التي تنفذ بحق من يقـوم بذلك. وتم بيعي في السـوق من غير تسـجيل أو قيود. ولكن المال كما تعرفـون يفتح الأبواب المغلقـة، ومضـت سـنوات طويلة قبـل أن أعـرف بهـذا القانـون، وعندها اعترفـت أيبيكة هانم بـدم بارد بأنهـا كاتبتني بـأوراق مزورة لمدة عشـرين عاماً، ويومها قررت في سري الانتقام منها.

كانت أيبيكة هانم سـيدة شـابة حازمة، وكانت عيناها العقيقيتان منبع الدفء والحياة، ووجههـا الذي يبدو مـن وراء حجابه مكتسـياً بالنور كان ممتلئـاً بالخطـوط والتفاصيل التـي ربما يجد فيهـا الرسـامون الأوروبيون مصدر إلهام لهم. وربما كانت النظرة الأولى إليهـا توحي بأنها امرأة عادية ليس لها حـظ وافر من الجمـال، لكن النظـرة الثانية بالتأكيـد كافية لإظهار حد كبير من الفتنة والجمال؛ فيجد المرء نفسه عندها على عتبة كتلك التي تكون بين النوم واليقظـة في ليل من ليالـي الصيف الجميلة؛ جسـمه يهفو إلى هذا العالم ببريقه وهمسـاته، وروحه تدعوه إلى عالم خفي حالـم بعيد. تلك هي أيبيكة هانم بكيانها الذي ينضح بالطمأنينة والحياة.

صحيح أنهـا في البيـت كانـت تعاملني كمـا تعامـل الأم ابنهـا، ولم

(1) المكاتبة: مصطلح شـرعي خاص أتى به الإسـلام، وهو عبارة عن عقد بين العبد (أو الأمة) وبين سـيده على مال أو عمل يؤديه له، أي إنه يشـتري نفسـه من سـيده. وقد حض عليها الإسـلام فأثبتها في القرآن في سـورة النور الآية 33، وجاءت الأحاديث ترغـب فيهـا. والمكاتبـة تظهر أن العبد والأمـة يملكان من القدرة على التكسـب ما يمكنهما من إعالة نفسيهما.

تعاملني معاملة العبيد قطّ؛ لكنها أيضاً كانت تقاوم رغبتي في الحصول على حريتي. وإذا كان من الصعب الاعتراف بأنني ابنها ووريثها، فقد كنت في نظرها اللعبة التي تحرص عليها. ترى، هل كنت أحبها؟ نعم، ولكن هل يمكن توقع غير ذلك من شاب يعيش في قيد العبودية؟! لم تدخر وسعاً في تربيتي، وتعلمت أعراف الأتراك وتقاليدهم. وعندما بلغت سن البلوغ، اخترت الإسلام ديناً لي بكامل وعيي وإرادتي، وتوصلت بعقلي الميال إلى التحليل إلى أن اسم أب الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام سيكون أكثر تأثيراً ووقعاً في النفوس. ولاحظت أن غير المسلمين أقل حظا في الحرية والتقدم في المراتب، وأنّ الحساسية الدينية لدى الأتراك كانت عالية إلى الحد الذي لم تكن تعثر عليه في أوروبا خلال الأعوام الخمسين الأخيرة. وكان عليّ في ظل هذا الوضع أن أعيد تشكيل طموحي وأتصرف بالممكن المعقول؛ وقد فعلت... ولكن كيف؟! إن كل القوة لدى عبد حقيقي مثلي تكمن في نظراته النقية، والإخلاص الذي يبديه في تصرفاته أيها الأصدقاء. وكانت مسحة الجمال في طلعتي، والنظرات البريئة التي أرتديها كقناع خير معين لي، وتعلمت ألا أبالي بالدموع التي كنت أذرفها في الليل عندما كنت أتمدد على فراشي وأثبت نظراتي على تشققات الجدران.

وكانت الأجزاء التي تتحطم وتنسحق في أعماقي في وضح النهار تؤكدها دموعي المتسللة في صمتٍ في جنح الليل فتشحذ حرصي وطموحي للانتقام، ولكنها لا تفسد ابتسامتي أبداً.

خلال دراستي عند أساتذتي المحترمين وجدت فرصة للقاء أبي عدة مرات، وقد دفعت أبيكة هانم ثمن اعتاق أبي فعاد إلى الوطن. وكنت أمني نفسي وأقول: «ترى، هل ستحررني؟!». ولم يحصل ما تمنيته، ولكنني كنت متردداً أيضاً ولا أعرف ماذا أريد: هل أريد أن أكون حراً أم لا؟! أنا ابنٌ عاديٌّ لصياد سمك إيطاليٍّ، ولكنني هنا محبوب ومحظوظ،

وطلبي لا يتكرر مرتين عند أيبيكة هانم، فلماذا أستصعب العبودية إذاً؟! لم أكن في الحقيقة محكوماً بوثيقة مكاتبة أيبيكة هانم، بل كنت أسيراً لحياةٍ تتصل بمستقبلٍ مشرقٍ أيها الأصدقاء. لذلك لم تكن بسمة الرياء المسقية بدموعي تغيب عن شفتيّ.

كنت في شوقٍ شديدٍ للقاء أمي، ولم أكن في موقعٍ يمكنني من الوصول إليها، وكان ينبغي علي أن أصبر. والآن، أتذكر تلك الأيام بحيرة وعجبٍ وسرورٍ، فها هو طموحي قد بدأ يتلألأ بشدة وأنا أشق طريقي في الغابات الغامضة التي تسمى قدراً. كان ذلك في بداية عام 1515، حين كان عمري 18 عاماً، في وقت اشتد فيه عود شبابي. لم تعد مانيسا تسعني، وأصبحت أتنفس بصعوبةٍ بالغةٍ في خضوعي لطلبات أيبيكة الطفولية، وكنت أتخبط لأجد طريقاً للخروج، وأتوسل إليها أحياناً بالدموع والانحناء لتحررني، وكانت تبكي معي، وتمسح شعري ورأسي، ولكنها تقول دائماً: «لا، لن أحررك!».

حينها، كنت أجمع الأسرى الذين يعملون في المزرعة - بدءاً من الكاخيا العربي - وكنت أذكرهم بأخطائهم، وأعفو عنها بما كنت أعتبره تصرفاً لائقاً ومهذباً، وأحكم عليهم بعقوباتٍ عسيرةٍ بما يقتضيه موقعي الخاص. وعندما بدأت أبلغ مبلغ الشباب، كنت أعرف أن الناس من حولي لم يعودوا يحبونني، وأصبحوا يكرهونني.

ولقد كانت تلك الأيام هي الأيام التي نفث فيها التنين نيرانه في أعماقي باستمرار. وكنت كلما رأيت الدهشة على وجوه ضحاياي بسبب حقدي وانتقامي، أتذكر في ألمٍ أنني أنا أيضاً واحدٌ من الضحايا، وأذرف عذاب ضميري دموعاً تجري في صمت الليل. ولكن، كيف عساكم تعرفون في أي حفرةٍ يعيش جميع الأسرى؛ حتى أحسنهم حظاً مثلي؟!

وهل فكرتم مرةً في ما يؤلم العبد من الطبقة السفلى من الناس أكثر من أي شيء آخر؟! إنه موقف عبدٍ يعمل حارساً لعبدٍ آخر مثله... نعم،

لقد أوصلتني السنوات إلى هذا الموقف، فقد تعلمت باشمئزازٍ وألمٍ كيف أنتبه إلى تصرفاتي مع شخصٍ مثلي، حتى بلغت الموقع المنفر نفسه. إن هذا الأسلوب الذكي يقوم على حسابات لا ترحم لأولئك الذين أنشأوا مؤسسة العبيد. وهكذا، فالإنسان الذليل يحب أن يذل الآخرين ويتحكّم بالمساكين أمثاله؛ فيغدو ذئباً لإنسان آخر مثله.

وأنا الآن صاحب الكلام في أقوى دولةٍ في العالم، ولا أستطيع أن أتخلص من رائحة الأوحال المقرفة التي علقت بي طوال السنوات التي عشتها في تلك الحفرة. إذ لا يزال ذلك الطفل الصغير الذي تصحبه سيدته في الأزقة كالمهرج، ويقوم بكل الأعمال الصبيانية لإرضائها وتسلية ضيوفها، والمراهق المسكين الذي كان يصب حقده كله على الأسرى مثله وينتقم منهم يعيش في مكان ما داخلي. نعم، إنهما لا يزالان يعيشان في مكان ما داخلي، ويختبئان في زاويةٍ منعزلةٍ، ويخرجان فجأةً أمامي، وليس لخروجهما مكانٌ خاصٌ ولا زمنٌ محدد... وكل ما يطلبانه مني ألاّ أنسى من أنا... لكنهما يتظاهران بأنهما لا يعرفان أنني لا أستطيع نسيانهما. وهذا ظلم! ما أفعله بنفسي ظلمٌ! ظلمٌ!

III

عام 1515 هو العام الرابع لتولي الشاهزادة[1] سليمان خان المعظم إمارة سنجق مانيسا. كان يبدي منذ توليه الإمارة حساسية شديدة تجاه كل ما يتعلق بمفهوم العدالة، ويحرص على ممارستها في حكمه، من دون أن يلقي بالا لردود أفعال بعض كبار ملاكي الأراضي، ويردد دائما: «تنجز العدالة ما لا ينجزه السيف».

ترى، أي مصادفة جمعتنا؟! ربما كنت مديناً لذكائي التحليلي المتوقد في كل ما جرى من أحداث. أكاد أتخيل الآن ابتساماتكم الساخرة تعلو وجوهكم! لا، أرجوكم لا تسخروا مني!

كنت أسير على الثلوج الرقيقة التي تخفي خشونة الأراضي الوعرة للغابة، والكمان[2] في يدي، وأنا أنظر بعيداً، وأبحث في صوته الساحر عن ألحان بلادي البعيدة. لم أكن أتجول في الغابة عابثاً، فقد كان الشاهزادة سليمان يصطاد في تلك المناطق في تلك الفترة من السنة كما علمت من قلفة أيبيكة هانم حاجي إلياس بك. نعم، ما الذي كنت أبحث عنه؟! كنت أجمح بخيالي، وأسعى إلى لقاء الوارث الفريد للعرش العثماني، وأبذل في سبيل ذلك ما في وسعي. فهل يمكنني أن أرى وجهه، وأتكلم معه وسط حراسه الذين يعتبر مجرد النظر إلى وجوههم جريمة؟ ربما في أحسن الحالات، سيضربني آغا الإنكشاريين ضرباً مبرحاً، ويتركني في

(1) الشاهزادة تعني الأمير من أبناء السلاطين.

(2) الكمان والكمنجة من الآلات الموسيقية ذات الأوتار أربعة. تعتبر من أحن الآلات الموسيقية الوترية، وربما لا ينافسها إلا البيانو.

بؤسٍ وتعاسة. ولكن، هناك صوتٌ ما ينحدر من أعماقي، وحدسٌ نابعٌ من موهبتي الفطرية... وإحساس غامض يميل إلى تأييد من يقول: «لا وجود لشيء يستحيل تحقيقه».

كنت أعرف أن سليمان خان مولع بالموسيقى، لذا عدّلت أوتار الكمان وشددتها، وعزفت عليه لحناً يتجاوز طبقات الكمان، وأنا واثقٌ بموهبتي.

كانت القوة الحقيقية التي تدفعني حينها هي شجاعتي الفطرية التي أسميها «قدراً» وعزيمتي الماضية. لذا كنت أتقدم على دربٍ ضيقٍ، والخيول تسرح حولي.

انتهى بي الطريق بعد منعطفين واسعين إلى جدول صغير ينحدر نحو الوادي. والتقطت أنفاسي على جذر جاف متحجّرٍ من جذور البلوط الكبيرة، واستمتعت بأخذ نفس عميقٍ رغم الريح الباردة التي تثير دموعي. أسندت كماني على ركبتي، وبدأت أعزف في هدوء، وعيناي تتأملان الماء الذي يترقرق في طريقه نحو الوادي مرتطماً بالأحجار، ويضفي على الطبيعة جماله وألحانه الخاصة الرائعة. كان النظام الذي يؤمن الاستقرار والتوازن عبر الزمن قد بدأ يترنح تحت تأثير الحصار الموسيقي المحكم، وشرعت أعزف أغنيةً يونانيةً قديمةً، لأحاول بعدها عزف أغنية قديمة كانت أمي تترنم بها في طفولتي.

بدأ النهار يميل نحو الغروب من دون أن يلوح أحدٌ في الأفق. وكانت الريح قد سكنت وتركت مكانها لبردٍ خفيفٍ يداعب رئتيّ. وحين اعتدلت أريد الوقوف، وامتدت يداي إلى حقيبة الكمان الجلدية، إذ بصوتٍ جهوريّ قوي يأمرني: «قف».

قفزت في مكاني من هول المفاجأة، وأدرت ظهري لأرى صولاق

باشـي[1] على بعد أمتار مني وثلاثة من الإنكشاريين بأجسـامهم الضخمة، وقفطاناتهم المجردة من الأكمام والمشـدودة حول أجسـامهم كما لو أنها مآزر، وأحذيتهـم الحمراء الموحلـة التي تصل إلى ركبهـم. وكان صولاق باشـي بقفطانه الأحمـر الذي تعلـوه قطعة فـرو تغطـي كتفيـه العريضتين، وجزمتـه الصفـراء، وحزامـه الأزرق المشـدود حـول سـرواله الأخضـر الفضفـاض يبـدو قوياً كبـاب قلعـةٍ كبيـرة! وبالكاد تحـرك شـارباه الكثان المعقوفان وهو يسأل: «چلبي[2]! أأنت عازف الكمان؟!».

تمتمت في حذرٍ وخوفٍ: «نعم، آمل ألا أكون قد أزعجت أحداً».

فرفع رأسه قليلا وهو يقول: «ستأتي معنا».

---

(1) قائد لأربعة من حرس السـلطان، يتقنون رمي النبال والرماح باليسـرى، يسـير اثنان مـن الصـولاق عن يمين حصـان السـلطان، واثنان عن يسـاره، ويتـم اختيارهـم من قادة الإنكشـاريين (الإنكشـارية)، ويتصفون بالجرأة والقوة والطول وسلامة النطق والاحترام بين الناس.

(2) چلبي: لقب للنداء، يقوم مقام «أفندي، سيد...» اليوم.

IV

هكذا بدأ كل شيء. فقد انتزعني سليمان خان من السيدة أيبيكة هانم بأمرٍ بسيطٍ منه، لقاء عقد ألماسي ثمين جداً، وألفين وخمسمئة قطعةٍ ذهبيةٍ. وعلمت أن سيدتي رمت العقد والأموال المقدمة أرضاً، وطلبت استعادتي.

عندها، فغر الوسيط الدفتردار[1] سنان باشا فمه متعجباً - كما حدثني بالتفصيل عما جرى في ما بعد - وقال في حيرةٍ وغضب: «هانم! هانم! ماذا تقولين؟! أهكذا يكون الرد على رجاء سليمان خان الذي سيكون حاكماً للعالم عما قريب؟!».

صرخت أيبيكة هانم التي كانت تقف على قدميها بصعوبة بمساعدة القلفة حاجي إلياس ونظراتها زائغة من الغضب: «لا يحق له فعل هذا».

- أيتها المرأة، إنك تستطيعين شراء مئات العبيد بما قدّمه لك الأمير من مال. ثم هل تظنين أن إبراهيم يود العودة؟!

- لا شك في أنه يود ذلك!

هز الباشا رأسه بوقارٍ يمنةً ويسرةً قائلاً: «إنه لا يريد العودة أيتها الهانم، لا يريد... وإن كنت تريدين له الخير، فدعيه يذهب، فهذا أفضل لكما معاً».

كانت أياماً كدت أطير فيها من شدة الفرح. لقد أصبحت واحداً من الأصدقاء المقربين لثاني أقوى رجلٍ في الدولة. كنا نأكل إلى المائدة نفسها، وربما نسهر معاً في غرفتي حتى الصباح، مستلقيين على فراشين

(1) المكلف بضبط الأمور المالية للدولة، وهو ناظر المالية في مراحل متأخرة من الدولة العثمانية، وهو أيضاً المكلف بضبط الأمور المالية في كل ولاية.

متجاورين، مـن دون أن يرفّ لنا جفن. وهكذا أخيـراً، ابتدأت الرحلة نحو الرقي التي كنت أترقبها بفارغ الصبر، وإن تصرفت بحذرٍ وكما ينبغي؛ فإن المستقبل الباهر ينتظرني.

لم أذهب قـط للقـاء أيبيكة هانـم التي كانت تسـعى لاسـتعادتي من حيـنٍ لآخر وتأتـي إلى القصـر. نعم، لـم أذهب للقائهـا والترفيـه عنها قط على الرغم من تمكني من ذلك. وبقيت المسكينة أسابيع تروح إلى القصر وتغـدو، وقدمت طلبـات التمـاسٍ كثيـرة، وكان سـليمان خان يسـمح لي بقراءتها كلهـا. فما الذي كنت أحـس به في تلك الأيام؟ الحـزن؟ لا، ربما كنت أتألم لأجلها، ولكنني لم أحزن قط، فلو أنني لم أسعدها بخدمتي لها منذ اليوم الأول؛ أكانت ستتردد في إرسالي مجدداً إلى سوق النخاسة التي جئت منهـا، لأعاد إلى تلك المخـازن الكريهة التي تفوح منهـا روائح الدم والروث مكبـلاً بالقيود والأغلال؟! ولو لـم أكن مباعاً إلى امـرأة ثرية؛ أما كنت سـأبقى منسـياً وأنا مقيد بالأصفاد؟! في سـني تلك، كنت أحس بأنه يجب علـيّ أن أطرق كل بـاب في سـبيل الحفاظ علـى حياتـي، ولـم أكن أفعل إلا ما يجب فعله من أجل تحقيق ذلك. وكان هذا كل شـيء بالنسـبة إليّ. نعـم، كان لأيبيكة هانـم فضلٌ كبيرٌ علـيّ، لا أنكر ذلـك، لكنني أقول دائماً: أن تنتظر معروفاً من عبدٍ فهذا مسـتحيل، إنه فقط ينتقم عندما تسـنح له الفرصة.

لم يتوقف سـليمان خـان عند هذا الأمر رغـم أنه وجدني قاسـياً، بل منحني حريتي بعد فترةٍ قصيـرةٍ، وأفصح بجلاءٍ أنه بإمكانـي المغادرة متى شـئت. لكنني كنت أحس ببداية عهد القوة والسـلطة الدافئ، فلم أفكر قط بالذهـاب إلى أي مكانٍ. لقـد عرض عليّ الشـاهزادة المعظـم ذلك - ولو أنه فعل ذلـك بطرف لسـانه - فاضطربـت قليلاً، ثم سـرعان ما اسـتعدت السيطرة على نفسي واتخذت قراري، واستعملت مواهبي في التصرف بما

تقتضيه ظروف الزمان والمكان والموقف، وأطلقت صيحتي وأنا أقول: «سيدي، لا أرضى باستبدال عبوديتي لك بمال هذه الدنيا كلها». لم يكن لأي مدّاح[1] أو ممثل مسرحي أن يجاريني في مثل هذا الموقف، حتى إن سليمان شاه أكرمني بخمسمئة قطعةٍ ذهبيةٍ لإرضائي، فعاندت قلبي وطلبت توزيعها كلها على الفقراء والمساكين، وتركت قلبي ينفطر حزناً، ولم آخذ منها قطعةً واحدةً. فلما بلغ ذلك سمع سليمان خان اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «إننا منذ الآن أخوان». ووعدني بأن أعيش بجواره في أمانٍ واستقرارٍ طالما بقي على قيد الحياة.

نشأت بيننا صداقة حميمة إلى درجة تثير حفيظة الحساد. إذ لم يكن الشاهزادة المعظم يتصف بشخصية حازمة كأبيه، ولم يستغرق فهمي الطفولة البسيطة التي تعيش في أعماقه وقتاً طويلاً. فقد كانت طفولته تلك تظهر عليه بمجرد لقائه صديقاً ينال ثقته، ولم يكن ذلك عيباً في حقه. ولذلك كان محبوباً أكثر من أبيه، وحبه هذا كان دافعاً للأمة والإداريين للتمسك أكثر بمفهوم العدالة. كنت أدرك أنه يحس بالحمل الثقيل الناجم عن كونه الوريث الوحيد للعرش، فهو يبحث عن صديقٍ يتجاوز به عزلته الكبيرة، وكان سعيداً بعلاقته مع صاحب موقفٍ وفيٍّ مثلي. أما أنا فقد كنت أخطو خطوةً هامةً كبرى، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى صغيرة ومتواضعةً في نتائجها. ولست أدري أي قوةٍ خفيةٍ في أعماقي كانت ترشدني وتهديني إليها بكل مهارةٍ وذكاءٍ، وأنا مدينٌ لتلك القوة بالتأكيد.

كنت أغسل قدميه مساءً في الوعاء الموشى بالذهب، ثم أشرب الماء حتى آخر نقطة فيه، وتتملكني السعادة وأنا أرى عينيه تغرورقان بالدموع. كنت موقناً بأنني أصبحت نقطة ضعف لديه. فنحن لم نفترق عن بعضنا

(1) المداح لقب يطلق على الممثل الذي يؤدي المواقف الطريفة والتهريج بما يقابل الممثل المسرحي في أوروبا في ذلك العصر.

منذ لقائنا، حتى بات يشعر أنه يحتاج إليّ أكثر من ذي قبل في الأيام التي اعتلى فيها العرش؛ لأن كل واحدٍ منا يحتاج إلى من يقف معه في هذه الحياة. فالإنسان كلما ازداد قوةً يرى نفسه خلف جدار العزلة الظالم ذاك، فلا يقوى على الابتعاد عن حافة الجنون. حتى أنا كنت أشعر بين الحين والآخر أنني على حافة جنونٍ لا شفاء منه.

في اليوم الثاني والعشرين من أيلول عام 1520 م بلغنا نبأ وفاة والده المحترم ياووز سلطان سليم خان وهو لا يزال في الخمسين من عمره في قريةٍ صغيرةٍ قرب أدرنه. كنا حينها في رحلة صيدٍ على السفوح الممطرة لجبل سبل، فسرنا على عجلٍ عبر الوديان الضبابية، وفوق القمم الصخرية الملساء المنحدرة والزلقة والمغطاة بالسحب وعلى ضفاف الأنهار الفائضة. نصبنا الخيمة ذات ليلةٍ تحت بقعةٍ صخريةٍ غريبة الشكل، فأعددت له الطعام بنفسي بسبب قلقٍ غامضٍ مجهولٍ... لم نكن نقوى على الحراك من شدة البرد والتعب، وكانت الصخور تثير الرعشة في نفسينا وتجعل ليالينا مليئة بالكوابيس؛ فكنت الحارس الذي يحرسه، ويبعد عنه كوابيسه.

بعد تسعة أيامٍ بلغنا إسطنبول، وبالتأكيد كنت أنا من رددت الصدر الأعظم بيري محمد باشا على أعقابه بحجة التعب. ثم استقبل نعش المرحوم سليم خان أمام قصر طوب قابي، ونقل إلى صحن جامع الفاتح. وبالطبع، كنت أنا من يقف إلى جوار السلطان سليمان في مقدمة النعش. وباءت كل محاولات بيري باشا العجوز في الحلول مكاني في المقدمة بالفشل. كنت ملازماً لسليمان لا أفارقه؛ وهذا أمرٌ لم يغب عن عيون الحاسدين. وكانت النظرات الحائرة في عيني الصدر الأعظم بيري باشا الواسعتين تستقر أول ما تستقر عليّ. فقد تراجع إلى الوراء، وتناثرت

خصلات لحيته البيضاء، وانحرفت قبعته، واحمرّ وجهه النحيل.

خلال مراسم تقليد سليمان خان السيف كعاشر سلطانٍ عثماني في أيوب سلطان من قبل المتوكل الثالث الخليفة السابق في المنفى[1] في الأول من شهر تشرين الثاني من عام 1520م؛ كان يقف إلى يمين العرش على التوالي بيري باشا والوزير الثاني مصطفى باشا والوزير الثالث، إضافةً إلى فرحات باشا صهر سليم خان، وكنت بجوارهم. وحين طلب مني سليمان خان الوقوف بجواره، اعتذرت منه بلطفٍ لأن ذلك لن يكون مناسباً، وقلت له إن صدراً أعظم مثل بيري محمد باشا لن يتقبل هذا التصرف المنافي للأصول العامة، وإنني لا أحب أن أكون سبباً في حدوث فتنة. ولم يعد يهمني وجودي أو غيابي هناك بعد أن رأيت ما رأيته من ضيق ظاهر على وجه السلطان... كلّ ما قلته صحيح، فالسلطان سليمان كان يمضي وقته معي أكثر مما يمضيه مع خاصة أهله؛ زوجته الأولى غولفم هانم والثانية السلطانة ماهي دوران، وابنه الأمير مصطفى خان. وكان لتخصيصه الغرفة المجاورة له كغرفة لي فعله في تأجيج حسد الحاسدين، حتى بلغت مسمعي الشائعات بأنني سحرت السلطان سليمان. فقد كان لدي معملٌ سرّيٌّ في مانيسا حسب ما سمعه آغا البنات من آغا الرقاب دار، نقلاً عن آغا الجوخ دار، وهو بدوره عن آغا السلاحدار، وحسب زعمهم كنت أعمل هناك سراً في الليالي على إيجاد رقىً وسمومٍ تسبب الجنون لمدة قصيرةٍ أو لمدة سنةٍ أو تقتل الإنسان

(1) هو الخليفة العباسي محمد بن يعقوب المستمسك بالله العباسي، والملقب بالمتوكل على الله الثالث، شغل هذا المنصب تحت الوصاية المملوكية في القاهرة من 1508م وحتى 1516م بعد مقتل والده المستمسك بالله على يد المغول في بغداد. وبعد فتح مصر عام 1517م، تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول، فكان أول خليفة عثماني للمسلمين. وبعد وفاة السلطان سليم الأول تولى الخلافة ابنه السلطان سليمان الملقب بالقانوني بطل الرواية. توفي المتوكل على الله الثالث عام 1534م.

وهو يتعذب، كما تضيف الشائعات أن أمي حسب القيل والقال كانت ابنة إحدى مشعوذات اليونان المشهورات، والتي قتلت حرقاً قبل مئة سنةٍ. صحيحٌ أنني أعرف تركيبة نوع أو اثنين من السموم ولا أنكر هذا، إلا أننا كنا نتناول شائعات المعمل السري ضاحكين ساخرين.

كان الصدر الأعظم بيري محمد باشا محل ثقة ياووز سليم، وكان رجل دولةٍ يولي المراسم أهميةً عظيمةً، ويعمل بخبرة ثمانٍ وخمسين سنة بنضجٍ كبيرٍ وسعيٍ دؤوبٍ، ويطبق القواعد بحذافيرها. وكان قد حظي بتحمل مسؤولية الصدارة العظمى مرتين في عهد سلطانٍ حازمٍ مثل ياووز سليم، ونجح في صون رأسه ومكانته. ولكن، كان هناك أمرٌ آخر يقلقني بكل ما للكلمة من معنىً. فبعد فتح إسطنبول، وعلى مدار مئةٍ وأربع وخمسين سنةً كانت أسرة تشاندرلي والأسر التركية العريقة في مقاليد الحكم تشكل فواصل صغيرةً، فقد أبعدت كل الأسر التركية العريقة عن الإدارة، وصودرت أموالها، وكان ذلك سبباً في ترجيح كفة الدّوشرمة[1] في الإدارة، حتى غدوا - وهم في موضع العبيد - من القوة بمكانٍ يمكنهم من تصفيته من دون أن يلقوا احتجاجاً من الناس. وقد أدرك السلطان محمد الفاتح الثاني في أواخر حكمه خطورة الدوشرمة، وبدأ يشعر بفقدان الثقة بقادتهم، وأزعجته تكتلاتهم وتنظيماتهم السرية في مؤسسات الدولة، ولعله ندم على السياسة التي اتبعها تجاه الأصول التركية بعد أسرة تشاندرلي، فولى محمد قره مانلي باشا من أحفاد المتصوف الكبير مولانا، والذي سرعان ما توفي مسموما وهو في سن الشباب قبل أن تمضي فترةٌ طويلةٌ على توليه منصبه. وعندها، عاد الدّوشرمة مجدداً إلى احتلال مراكز السلطة. ومهما قيل إن غالبية

(1) وتعني النخبة، حيث تشكل وحدة عسكرية من أبناء الملل غير المسلمة وأبناء العبيد، يضمهم السلطان إلى القصر، ويتلقون التربية والتدريب الخاصين.

المناصب العليا والحساسة كمنصب شيخ الإسلام، والقاضي عسكر، والدفتردار، ورئيس الكتاب ظلت غالباً في أيدي ذوي الأصول التركية؛ إلا أنهم ظلوا محرومين من الشعور بالوحدة التي كان الدوشرمة يتمتعون بها بسبب الصراع على المناصب؛ حيث كان يتم إرضاؤهم بتغييرٍ مستمرٍ لمناصبهم أو إحالتهم إلى التقاعد برواتب عاليةٍ وما شابه، وهكذا تأسّس نظامٌ بدا أنه لن يتغير أبداً، حتى كان عهد السلطان ياووز سليم خان. عمل ياووز مع ستة صدور عظماء أعدم ثلاثةً منهم، وكانت الولاية الثانية لبيري محمد باشا قونيلي من أحفاد العلامة الكبير جمال الدين أقصرايي في منصب الصدر الأعظم في آخر عهده تدل على أنه لم يعد يثق بغير ذوي الأصول التركية، لكنه مات أيضاً في سن الشباب مثل جده الفاتح.

والآن، ها هو هذا التركي الخبير الذي كان يراقب الدّوشرمة عن كثبٍ على رأس الدولة أيضاً، ويبدأ يولّي الأتراك المناصب الحسّاسة. وكان الزمان كفيلاً برسم خطوط المستقبل. ولو أنني وجدت حليفاً قوياً من دون أن تنالني عداوة الدوشرمة الآخرين؛ فأنا أستطيع أن أوقف آمال الأتراك في السلطة. ولا ينبغي لرجلٍ مثلي أن يستهين بذكاء سليمان خان وإحساسه المرهف، وعليّ أن أمشي بخفةٍ في الخفاء كعادتي دائماً.

وشيئاً فشيئاً، بدأت أنشر إشاعات تتحدث عن غضب إلهي بسبب اعتلاء الأتراك السلطة، فعلت ذلك بمهارة؛ حتى إنني صدقتها خلال فترةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز عدة أسابيع. انتشرت الشائعات بسرعةٍ واتسعت حلقتها وكبرت. ولِمَ لا؟ ألم يكن ذلك رداً على ما قيل عني وعن أمي؟! نعم، أستطيع أن أجد ألف شخصٍ يشهدون على وجود ضوء أصفر في السماء قبل عواصف الخريف التي تشتد هذا العام على غير العادة، وها هي طيور البوم تعشش داخل المدن على غير عادتها، وتنتشر في المقابر. وهل كانت ولادة عجلٍ ذي رأسين بالقرب من كبزه كذبة؟ كما وجد أحد الصيادين

أفعى تبتلع ذيلها في غابات اسكدار... ومثل هذه الأمور في الأساطير المصرية واليونانية نذير شؤمٍ وسوء، وبداية النهاية. أما صيادو السمك فقد تحدثوا عن نزيف دم وجدوه في أفواه الأسماك التي اصطادوها في الشهر الماضي! لم يكن صعباً عليّ نشر كل تلك الشائعات في المجتمع العثماني الهجين البسيط من دون أن أثير أصابع الاتهام لتتجه نحوي...

فلتنته المراسم والتهاني التي لا تعرف نهاية، ولتصفُ الأجواء، وليتربع سلطاني على عرشه، وليتمكن منه جيداً... حتى أمضي إلى الجاسوس العميل الذي أثار الفوضى في الميدان منذ زمن سليم خان وأستمع إليه. لم يعد أحدٌ يجهل تجوال جواسيس البابا في طول البلاد وعرضها. كان ينبغي لي أن أتعرف عن قربٍ التدابير التي يتخذها هذا الثرثار... لم ينشرح صدري لوهيمي أورخون جلبي منذ لقائي الأول معه، فهو أسمر مثلي، ويتطاير الشر من عينيه، وجسمه المليء يجعله يبدو قوياً كالثور. ورغم ذلك، فإن شكله الموحي بالتزلف يزيد من نفوري منه. وكذلك لم يسعدني أيضاً لقائي الأول مع مصلح الدين مركز أفندي في قصر مانيسا، وكان سليمان خان قد أرسلني إليه ليطلب منه القدوم إليه في إسطنبول. ومركز أفندي رجلٌ يناهز الستين، ذو لحيةٍ بيضاء، ومظهر محبوب. أحسست بقلبي يكاد ينفطر ضيقاً ونفوراً منه حين علمت أنه لم يكن يرتاح لي. ويحيى أفندي أخ السلطان بالرضاعة مؤثرٌ حاضرٌ كالظل في مجلس السلطان،كما أنه حاضرٌ في غيابه. وأشعر أن روحه تلاحقني مثل ظلي، أو إنها حقيقةً ورائي، فمن يدري؟! حين ولد سليمان خان كان حليب أمه قليلاً لا يكفيه، لذلك أرضعته أم يحيى أفندي، وكان ضم أخيه الكبير في الرضاعة يحيى أفندي إلى قصر أق صراي، وجعله في خدمة الشيخ المهيب مفتي الأنام علي جمال أفندي المشهور بالزنبيللي، وحضوره دروسه أول ما قام به السلطان بعد اعتلائه العرش. ويبدو أن

آفاق يحيى أفنـدي الروحية المعنوية كانت واسـعةً وتحلق عاليـاً بعيداً عن مشـاغل الدنيا، وشـهدت عدة مراتٍ عدم تردده في الكلام أمام السـلطان، فكان سـلطان العالم يقـف أمامه مطأطـئ الـرأس متواضعاً... أنـا لا أفهم طبيعة الأتراك وسرّهم المؤنس الصبور.

علـى أي حال، سـأبحث بعد الحديث إلـى وهيمي أورخـون جلبي في الهدايا التي جاء بها التتار إلى سليمان خان لتهنئته، علّني أعثر في هدايا هؤلاء المتوحشين على أشياء تليق بسلطاني، أو أختار لنفسي منها شيئاً ينفعني.

الوحدة في المرايا
(سليمان شاه)

I

السّرّ ملكٌ، فحافظ عليه!

الشيخ غالب (حسن العشق)

21-22 تشرين الثاني

نظرت إلى المرآة، فرأيت صورتي وصفحة السماء منعكستين عليها، فخاطبت نفسي قائلاً: «أنت، خيالي المنسرب في السماء الآن، لا بد من الوقوف في الظل حيناً آخر، والانتظار بصبرٍ حتى تقوى على حمل أمانة الدولة ومسؤوليتها على كاهلك. كما ينبغي لك أن تمرن كاهلك وأنت تعد نفسك لهذا الأمر الجلل!».

أترك دواتي وريشتي وأنهض، وقد تعرق ظهري قليلاً، وأفكر في سري: إن البلاد الواسعة التي استلمت قيادتها، والتي تبلغ مساحتها نحو سبعة ملايين كيلومترٍ تقع مسؤوليتها على عاتقي؛ وهذا التفكير يؤرقني. أنا سليمان، أنا السلطان سليمان، ألتقط أنفاسي فقط في الأوقات القصيرة حين أكتب أشعاري وأنحت الأحجار الثمينة.

ها أنا أستيقظ عند الساعة الرابعة صباحاً مجدداً، وأبدأ بالكتابة. وبعد قليلٍ، سأرى وجه رئيس الحرس الكالح، حين يأتي ليوقظني كي أقوم بتدريباتي اليومية. أمجبرٌ أنا على الاستمرار في هذا البرنامج الثقيل الآن؟ نعم، فأنا لا أريد أن أواجه مشاكل مع بيري باشا منذ أيامي الأولى،

فإن ذلك التركي العجوز يخيفني بهيبته، وكأنه يخنقني.

نعم، في صحوة الصباح البارد يتخذ الجنود الحراس عند أسوار القصر وضعية الاستعداد حين يرونني: أذرعهم منفرجة على الجانبين كالنسر، ورؤوسهم مرفوعة. وعلى الرغم من السيوف في أغمادهم، فهم يقفون وكأنهم تماثيل حجرية. أنا اليوم في غاية الإرهاق. يا الله! لم أكن أتعب هكذا سريعاً حين أجري... ينبغي أن لا أتعجب، فأنا متوتر، وهذا وحده يرهقني. هذا وقت التدريب على رمي السهام، سيأتي المدرب المشهور الكبير محمد بورصلي من الإنكشارية، وحين يراني مرهقاً سيظن أنه أدرك فرصة التغلب عليّ بسهولةٍ. لكن إحساسه وتجاربه لن تفيده؛ لأنني سأتغلب عليه هذه المرة أيضاً. فالمسألة ليست فقط في أن أكون قوياً وسريعاً، كما أنها ليست في ترقب هفوات الخصم والهجوم عليه في اللحظة المناسبة، بل إنها أن يدرك الخصم الصورة التي تريده أن يراك فيها، وعندئذ تستطيع إجباره على المحاربة في الميدان الذي تريده. والمهارة أن أكون كوالدي الذي كان يشق العواصف، لا أن أقلب شجرةً عجفاء على حافة هاويةٍ، وأن أنحني بمهارة حتى تمضي الرياح، وأنتصب بعدها مرةً أخرى دونما كللٍ كسنبلة قمحٍ.

هلك أبي بسبب غضبه الذي يذكر بأجواء بحر الشمال المظلمة التي لا مثيل لها. نعم، ربما لا يمكن لمثل تلك المرحلة العظيمة القصيرة أن تتكرر مرة أخرى في هذه البلاد، لكنني واثقٌ بأنني قادرٌ على المحافظة على الأمانة التي استودعها والاحترام الذي ناله بين الأمم... نعم، أستطيع أن أتحمل المسؤولية؛ فمنذ طفولتي وأنا أعلم أنه لا سبيل لي إلا اختيار طريقٍ يناسب شخصيتي. كان أبي في الأربعين من عمره حين تولى العرش بعد ألف صراعٍ وصراع، وقد أنضجته صراعات الإخوة بعد اعتلائه العرش. وسياساته الفعالة تجاه بلاد فارس منذ أن كان أميراً أكسبته تجارب عميقة أثرت خبرته. أما أنا فما زلت في السادسة والعشرين من

عمري، وما زلت صغيراً في عيون الكثيرين على حمل هذا الإرث الكبير بشكلٍ سليمٍ، غير أنني حين ولدت كان أبي والياً على طرابزون التي كانت إمارةً أصغر بكثيرٍ من مانيسا، ولقد حكمت مدينةً أكبر من تلك التي حكمها هو، وكنت ناجحاً جداً. إن اكتساب محبة الأمة في قناعتي أصعب من إرهابها، ولذلك أنا أنزعج الآن من سماع الاتهامات التي تدور حول إرهابه، كما أنزعج من سماع اتهامات الضعف تنال مني في أمورٍ كنت أغض الطرف عنها أحياناً. لكنهم سيرون أنني لن أرضى بأن أعيش في ظل أبي، ربما سيستغرق هذا زمناً، فدرب المجاملات أشد صمتاً وهدوءاً.

في منامي، رأيت مدينةً مهجورةً تتحرك ببطء على سطح بحرٍ هائجٍ، تحت أشعة شمس الغروب التي تتراقص على جدرانها الغرانيتية السوداء، لعل هذه الرؤيا كانت نابعةً من قلق إنسانٍ يحمل في طيات نفسه مصاعب إثبات ذاته فقط، وهذه الرؤيا تنبيهٌ على الطريق، وعلي الاستعجال... عليّ أن أسرع كي أثبت للصديق والعدو أنني أستحق هذا المقام.

ها هو محمد أوقجي قادم! إنه أقرب إلى المصارع منه إلى الرامي، فيداه كبيرتان، ويمكن أن يمسك بهما بقطينةً من أعلاها، وصدره عريضٌ، وكان بذراعيه مفتولتي العضلات ومحيطهما الذي يتجاوز نصف مترٍ عملاقاً كالغول. لم يكن معلمي الأول في الرماية، ويبدو أنه سيكون الأخير. ربما لم تكن لدي قوة ذراعٍ كأبي، ولا أستطيع شدّ عدة أقواسٍ معاً، ولا أستطيع صرع المصارعين واحداً تلو الآخر، كما أنني لست جسوراً مثل جدي محمد الثاني، وربما لا أملك ذكاء يزيد في أثناء الحملات، غير أنني أملك شيئاً لم يكن أولئك يملكونه: هدوئي الذي يخدع الناظرين.

انحنى هذا العملاق أمامي حتى الأرض كي أسعى إلى طمأنته بأنه لن يلحق به أي أذى إن انتصر عليّ. هذه هي المباراة الثانية التي أخوضها مع محمد أوقجي. إنه أشد مراساً من الرماة الذين تباريت معهم في

مانيسا، وكان على وشك التغلب عليّ في المرة الأولى. لكنه لمّا رأى أنه تمادى كثيراً أرخى يده قليلاً، ولم يعلم أنني رأيته وهو يفعل ذلك. إنه يحسبني غرّاً تجب ملاطفته ككثيرٍ من ملوك أوروبا.

لو حصل هذا الأمر في حضرة والدي لغضب غضباً شديداً، ولصرع هذا الرجل العملاق في لكمةٍ واحدةٍ. لكن هذا التصرف لا يناسبني، لأن لديّ مظهري الهادئ الصبور كما لو أنني كنت أعمل بصبرٍ في ورشة الصياغة وأنا أعالج قطعة ألماسٍ نادرة، أو عقيقاً تحتبس في داخله أشعة شمس تميل نحو الغروب، أو ياقوتة تكتنفها الألغاز، أو حبات أوبالٍ زجاجية رائعة الألوان. في عهد إمارتي، حين كنت أنحت طغرائي الخاص (سليمان شاه بن سليم شاه خان المظفر دائماً)؛ كنت أخفي تحت أسارير وجهي المبتسم حمماً لا يعلم بها أحدٌ؛ حتى إبراهيم. لكنهم كانوا ينسون ابن من أكون. دعهم ينسون، فهذا أفضل يا سليمان... هذا أفضل... دعهم ينسون!

ها هو إبراهيم قادمٌ أيضاً، أي ليلةٍ قضاها؟! فعيناه المحمرتان منتفختان. إنه صديقي الوحيد الثرثار. جربت معه أول ما جربت نظراتي الهادئة التي تبث الراحة وتنشر الطمأنينة في النفوس، وأنا راضٍ لأنني نجحت في ذلك، ولاحظت الراحة والطمأنينة في تصرفاته وفي نظرات عينيه. ولئن نجحت في ذلك مع شخص ذكي مثل إبراهيم، فإن الأمر مع الآخرين سيكون أيسر. والحقيقة أن كل واحدٍ منا ممثلٌ بارعٌ يحتاج إلى الآخر.

إنه قريني وفي سن الشباب مثلي، أحب جديته المطلقة في سعيه إلى تحقيق أهدافه، وعزمه الذي لا يعرف الكلل. إنه ماهر جداً في بدعته التي ابتدعها مؤخراً عندما شرب الماء الذي غسل به قدمي. ففي المرة الأولى، بالكاد استطعت أن أكبت رغبتي العارمة في التصفيق له حتى تؤلمني كفاي، عجباً من قدرته على التمثيل! كانت حالة الشوق العارم التي يبديها

تجاهي مؤثرة جداً بقدر ما كانت هزليةً، حتى دمعت عيناي وأنا أكبت ضحكتي، وعانقته تعبيراً له عن إعجابي به، لا محبة به. لست مخطئاً إن قلت إنه بدأ يحتل عندي مكانة لا تمكنني من الاستغناء عنه، فهو بارع في تقديره للشؤون الدبلوماسية، ويتبع أساليب جديدة مختلفة عن الأصول المتعارف عليها، ولم يكن مثل بيري محمد باشا في جموده حين يمضي نحو هدفه، وكنت أرى روحه المتبرمة حزناً خلف ستار جديته المدهشة. رأيته أول مرةٍ عندما كنت في مانيسا، وأدركت حينها أننا معاً نستطيع القيام بأعمالٍ عظيمةٍ، ويمكنه تقديم خدماتٍ لا تحصى للدولة إن استطعت تأمين انضباطه. وسيبقى هذا التمثيل بيننا مستمراً ما بقي يقدم خدماته للدولة.

لقد حدثني جواسيسي أيام الصيد عن شاب كامل الأوصاف وحسن المعشر يسعى إلى لقائي، ولذلك يكثر التجول في الأماكن التي اعتدت أن أخرج للصيد فيها، وكان إبراهيم يتقدم في خطته البسيطة المؤثرة في ثباتٍ. وعندما كان يبحث عني كان في الحقيقة يجهل بحثي عنه... ففي الأيام الأولى التي وطئت فيها قدماي مانيسا، بلغتني معلوماتٌ تدور حول أغلى وأمهر عبدٍ في المنطقة، وحين علمت أنه يحوم في حرصٍ واهتمامٍ في ساحات صيدي، بدأت أتابعه يوماً بيومٍ، وتكلمت مع سيدته عدة مرات، فقالت السيدة أيبيكة: «لقد نشأ نشأةً جيدةً، وهو ذكيٌّ جداً، وبارعٌ إلى درجةٍ تحملني على القلق». لقد كان اليأس والإرهاق يظهران على وجهها: «لقد بذلت من أجله كل حياتي يا أميري لكنه يجاملني ويداريني على الدوام».

لمحت على وجه المرأة الجميل ملامح الألم بسبب اللامبالاة التي يتصرف بها إبراهيم معها. كانت دموعها تتدحرج على خديها كاللآلئ تاركةً آثارها البراقة. حاولت التخفيف عنها فقلت لها: «تخطئين أيتها الهانم! لعله يريد حماية مشاعرك ولهذا يضع حدود الاحترام بينه

وبينك!».

- لا يا مولاي الأمير. سترون أنه لن يترك وسيلةً حتى يتمكن من قلبكم، وبعدها سيفكر في ذاته فقط. وأنتم بما تملكونه من فراسة ستدركون حقيقة هذا الفتى، فأنا لم أستطع أن أفهمه طيلة تلك السنوات رغم كل ما أكنه له من الأحاسيس الأصيلة. وحين كان يحيطني بعنايته، كان في الحقيقة يحكمني، من دون أن يمنحني الحب الذي كنت أتمناه. لقد أنهكني ولم يعد لي أملٌ في حلمي المنتظر.

- أبيبكة، سأضمه إليّ.

- كيفما تريدون يا مولاي. ما دام كل شيءٍ يبدو للعيان، واستطاع أن ينجح في إظهار عجزي وافتقاري إلى كل شيء، إذاً لا يسعني إلا التسليم لأمركم.

- لكنه لن يعلم يا هانم بموقفك هذا، بل سيظن أنك ملتاعة من أجله، وأن قلبك ينفطر لفراقه.

- لكن ذلك لن يغير من حاله يا مولاي. ربما سيظن أنه ينتقم مني... واغرورقت عيناها بالدموع مجدداً.

- كيف تكونين متأكدةً إلى هذه الدرجة؟!

- إنه قلب الأم يا مولاي... قلب الأم.

- سلمت يا أبيبكة هانم، لتعلمي أنني لن أظلمك.

عادت أبيبكة إلى البكاء والنحيب، وجلست قرب قدميّ وهي تصرخ:

- أي انتقام يا مولاي؟ أي انتقامٍ هذا الذي ينتقمه مني أيها الأمير؟! لقد أفنيت عمري من أجله... فأطعمته، وسقيته، وألبسته، وعلمته، وأحطته برعايتي...

أطرق الأمير سليمان مفكراً ثم رفع رأسه وقال:

- أبي أيضاً لم يكن يثق بجماعة الدوشرمة في أواخر عهده مثل

جدي الفاتح يا أيبيكة هانم. لكننا سنرى، لا تهلكي نفسك هكذا، وعليك بالصبر. سنرى ما تخفيه الأيام...

ما زلت تستطيع أن تفتخر بأن مستوى ذكائك لا يمكن بلوغه يا إبراهيم، ولكنني أنا الفائز، أنسيت ابن من أكون؟ ستكون دولتنا وأمتنا الرابحتين، فبفضل أدوارك الناجحة في التظاهر بالبساطة الماكرة، وأنا في أدواري الناجحة في التظاهر بالسذاجة رغم ما أتمتع به من ذكاء، ستكون أمتنا ودولتنا الرابحتين من هذه العلاقة الغريبة، وستكون على رأس المجموعة التي أريد إنشاءها، وستحكم بقدرتك المخيفة على السحر، وسأتظاهر بجهلي مخططاتك للوصول، فيما أتحمل ظهوري كألعوبة بين يديك. ستقوم بكل الخدمات من أجلي، وسيشرق وجهك ظناً منك أنك تسعى إلى تحقيق أهدافك، إنني أعلم أنني عتبةٌ تطأها لتحقيق أحلامك، لكنك تغفل عن أنك سلّمٌ كبير في طريقي لتحقيق أهدافي. ليكن ذلك. المهم هو سلامة الدولة العلية، ولا أهمية بعدها للأفراد والمشاعر. ستكون أستاذاً بالدور الذي تقوم به لإظهار حبك المزيف، وسيأتي يوم تحبني فيه حقاً، ولعل الشيء ذاته سينطبق عليّ أيضاً؛ لأنك تعلم أن الإنسان عندما لا يظهر كما هو فعلاً، ينقلب تظاهره مع الزمن إلى حقيقة.

وهذه الليلة، بعد الاستماع إلى جاسوس والدي وهيمي أورخون جلبي، سأخطو خطوةً أخرى، وسأكرمك يا إبراهيم بمرتبة كبير مربي الصقور في القصر، وسأكون بذلك قد بدأت بتوطيد العلاقة التي تربطنا.

II

- استمع إلى ما أقوله يا إبراهيم. أنت تريد معاقبة وهيمي أورخون جلبي، لكنني أرى أن نزيد دعمنا له. فها هو مبعوث البندقية بارتلميو كونتاري قد جاء لزيارتي ظهر اليوم، وأبدى استعداد بلاده التام لدعمنا ضد الإسبان والبرتغاليين، مقابل دعمهم في أنشطتهم ضد شارلكان. وإذا سارت الأمور هكذا فستتوقف التجارة الإيطالية في البحر المتوسط تماماً، في ظل انضمام غالبية الإمارات الإيطالية إلى النفوذ الإسباني.

لم أر في حياتي رجلا سريع البديهة، يحسن إدراك اللحظة التي ينبغي عندها أن يتراجع خطوةً إلى الوراء مثل إبراهيم، فقد سارع بالرد قائلاً:

- سلطاني، ليست لدي مشكلةٌ مع وهيمي أورخون جلبي وجماعته، ولن تكون. إنه أمانة تركها لنا المرحوم سليم خان، واحترامي لخدماته بلا حدود. إلا أن إفلات ذلك الماكر سافينو ورجاله من قبضته في أراضينا لا يغتفر.

- في هذه الحالة، أنا أعاقبه بأن يقبّل يدك ويركع أمامك لتعفو عنه.

لا شك في أن هذه العقوبة لم تكن ترضي غروره، ورغم ذلك أظهر الرضى بها. سيأتي وهيمي أورخون جلبي غداً إلى الديوان في الصباح، وسيقبل يد إبراهيم أمام حضرات الوزراء والوجهاء في الديوان باعتباره رئيس عسس إسطنبول، وهكذا سيعتبر هذا الاعتذار بمثابة ترقية لإبراهيم، ورسالةً بسيطةً إلى بيري محمد باشا ليعرف حدوده. أعرف أن هذا الأمر سيجرح شعور أورخون جلبي، لكن دعمي له سيكون أكبر تكريمٍ له. ورجل خبير مثله سيكون سعيداً بذلك.

أشـار إبراهيم إلـى الخرائـط المنشـورة علـى الطاولة وهـو يخاطب أورخون:

- انظـر يا أفنـدي إلـى هـذه الخرائـط، وتأكد مـن عظم المسـؤولية الملقاة علـى عاتقك مرة أخرى. فبأمـر من مولانا السـلطان، توضع جميع مصادر الدولة أمانةً بين يديك. انظر جيداً، وتعـرّف مرةً أخرى على عظمة الدولة التي تتولى إدارة أنشطتها الحساسة، لقد تضاعف حجم هذه الدولة خـلال السـنوات الثمانـي الأخيـرة مرتيـن ونصـف بفضـل جهـود مولانا السلطان سليم خان أسـكنه الله فسـيح جناته. فلقد وضع أساساتها المتينة في القارات الثلاث، فوصلنا فـي الجنوب إلى البحر الأحمـر وبحر عمان وسـواحل المحيط الهندي، ودخولنا خليج البصرة مسألة وقتٍ، وسندخله في القريـب العاجل إن شـاء الله. وفي غـرب البحر المتوسـط، نحن نزيد قوتنا هناك يوماً بعد يومٍ...

أجاب وهيمي أورخون جلبي وفي عينيه علامات الانكسار:

- لقد كنت في كل هذه الأقاليم التي تحدثت عنها تقريباً.

- أورخون أفنـدي، قلت لـك إننـي لا أنكـر خدماتـك، لكنني فقط أنبهك قليلاً كي لا يدفعك رحيل قائد جبار مثل سليم خان، وطبع سليمان خان الرحيم، إلى أن تركن إلى الراحة.

عندها، استشاط أورخون جلبي غضباً وقال:

- أعلم أنني مخطئٌ، وأرجو أن تعلموا أنني سـأفعل كل شـيءٍ لعدم تكرار هذا الخطأ. لن يتسـلل سـافينو إلينا بسـهولةٍ هكذا مـرة أخرى... ما حدث مرةً لـن يحدث مـرةً أخرى. لذلـك، يا إبراهيـم آغا، سـيرى مولانا السلطان وسترى أنت عما قريبٍ أنني لن أعود خالي الوفاض أبداً.

تحـرك إبراهيـم فـي مكانه فـي اضطـرابٍ، وهـو يبـدو منزعجـاً من مقاطعـة حديثه بمثل هـذه الحدة. نظـر السـلطان إليهما مـن حيث يجلس وهو يفكر في سـره: يظـنّ أنني لـم أفهم مـا يريده، وأعلـم أنـه لا يريد أن

يفكر مجرد تفكير في أن يبقى موقعٌ هامٌّ كموقعه بعيداً عنه. وعلمه أن الطبقة العليا لهذه التشكيلات مؤلفة من أتراك يزعجه من دون شك، ولذلك سيتقدم إليّ بعرضٍ في أقرب وقتٍ. لكن والدي كان يردد دائماً أن أورخون جلبي ليس لقمة سهلة الابتلاع، وسيدرك إبراهيم ذلك قريباً. ينبغي أن يبقى إبراهيم خلف وهيمي أورخون جلبي، وينبغي هنا ألا أنسى أن الحد من قلقه سيكون لمصلحتي... الأتراك هم العناصر المؤسسة لهذه الدولة، والرعايا الأكثر أصالةً وصدقاً، وهم أناسٌ صادقون ولطفاء بطبيعتهم، والفتنة الشيعية الصفوية لم تكن لتطل برأسها لو استطاعت الدولة العثمانية اتباع سياسةٍ مستقرةٍ لكسب تعاطفهم. عند تلك الفكرة، تدخل السلطان بينهما وهو يقول:

- أكرر يا إبراهيم، إن دعمي لأورخون جلبي تامٌّ ومستمرٌّ، ودعمك المعنوي له هامٌّ أيضاً. ومن حسن حظّنا وجود رجلٍ مؤهّلٍ بيننا مثل أورخون جلبي في هذه الأيام التي يصول فيها الجواسيس بيننا، وعلى رأسهم جواسيس البابا والإسبان والبرتغال. من المؤكد أنه ستقع بعض الأخطاء، لكن المهم تفاديها.

بدت علامات المكر على وجه أورخون، وانطلق يقول بشيء من المزاح:

- كما تفضلتم. واسترق نظرةً إلى عيني إبراهيم ثم أضاف: «وحتى أتلافى خطئي، إن آخر الأنباء التي بلغتني موجودة في طيات هذه الرسالة الموجهة إلى رجالي في ساعات الصباح يا مولاي السلطان».

نظر إبراهيم إلى أورخون جلبي بعينين تملأهما الدهشة والانفعال، ونهض فوراً ليلتقط الرسالة منه:

- عليها ختم والي مصر خير بك يا مولاي السلطان. ولكن، لحظة...

أخرج الرسالة من غلافها الجلدي، فظهر غلافٌ جلديٌّ آخر معطّرٌ

بالمسك، فهمهم إبراهيم:

- إنهـا من خيـر بـك ينقلهـا لنا مـن والينـا على سـوريا جـان بردي غزالي، وها هي رسالة خير بك: «إلى أساس العالم، ودولة سيدنا السلطان سليمان خان وشـخصه، إن صاحب المكيدة المدبرة في الأيام الأولى من ولايتكم هو والي سـوريا جان بردي غزالي الخائن. فبعد انتقال سليم خان إلى رحمة الرحمـن، راودته أحـلام بعث الدولـة المملوكية التـي اندثرت في التاريـخ، وعرض علي تحالفـاً خبيثاً، فكتبت إليه رسـالةً بحصار حلب ودعمي له بقواتي حتى أفضح فسـاد هـذا الخائن الجاحـد للنعمة، وليلقى مصيره الذي يستحقه. عشـتم طويلاً بدولتكم أيها السـلطان سليمان خان، رأسي فداؤكم ما دمت حياً. واليكم على مصر خير بك».

بعد دعواتي لخير بك عدت إلى إبراهيم وقلت:

- إن جان بـردي غزالي هذا لـم ينظر قط إلـى إدارتنـا بارتياح، وهو اليوم يحتمي بعدالتنا يأسـاً وعجـزاً. يعلم الجميـع أنني أقـول دائماً: تنجز العدالة ما لا ينجزه السيف.

علت وجه إبراهيم ابتسامةٌ مريرةٌ:

- مولاي، إنه هـو الذي يخـرب ميزان العـدل بيديه. وهـذا يعني أن رؤوس بعض الأشخاص ثقيلةٌ على رقابهم.

- من يـدري عـدد التحالفـات التـي عرضهـا علـى آخريـن؟ وعدد الأطـراف التـي دعاهـا إلـى العصيـان؟ الخيـر والقـوة فقـط فـي الوحـدة وحدها، ويبدو أن جان بردي ينسى هذا دائماً، ويسـعى إلى بث الفرقة بين المسلمين. فليُرسَـل إلى خير بك على الفور سـيفٌ مرصّعٌ وهدايا أخرى، وليتصـرف وفـق فرمانـي، وليطفئ بعـون الله نـار العصيـان فـي المنطقة، وليحدّد رؤوس الفتنة وليزلها مـن الوجود، وليتحرك وزيرنـا الثالث صهر والدي المحترم فرحات باشـا فوراً مع عدد كافٍ من القـوات إلى المنطقة للمسـاعدة، وليقدّم له والينـا على سـنجق قيصري وبـوازق ومرعش علي

شـخصور أوغلو بـك المسـاعدة بـكل قواتـه، وليكـن والينا على سـنجق طرابلس الشـام قاسـم باشـا دعما لهم. وحفظـك الله يا وهيمـي أورخون جلبي، وستصلك مكرمتي، فلتدع لنا ولتشكر الله.

نهض أورخون جلبي وأسـرع نحوي كالسـهم، وانحنـى فوق طرف عباءتي يقبله. ولا بد أن التعبير الذي رأيته علـى وجه إبراهيم كان نوعاً من الحياء، لكنـه حافظ علـى نضجه، وقبـل رأس أورخون جلبـي وضمه إلى صدره:

- أخي أورخون أفنـدي، إن كنت قد جرحت مشـاعرك فسـامحني، كل ما أتوقعه منك هو هذا.

ظهـرت علامـات الانتصار علـى وجه أورخـون وكأنه يقـول: هكذا! ينبغي أن تلتزم حدك وتعرف قدرك.

- اطمئن يا سيدي، الموت صديقي الحميم بإذن الله. لست مهموماً ولا قلقاً، وسـأمضي حتى النهاية، ولن يسـودّ وجه مولاي السلطان بسببي مطلقاً.

أضفت في لطفٍ:

«والآن، أنـت أيضـاً يـا إبراهيـم أرحـت قلبـي! واعتبـاراً مـن اليـوم سأجعلك كبير مربي الصقور في القصر».

صفقت بيـدي مرتيـن، فظهر عنـد مدخل البـاب تحت ظـلال الليل آغا الخدم الـذي كان ينتظر في صمـتٍ وبجانبه كبير البسـتانيين الأخرس. لا أعرف عمـا يتحدثان، ولمـاذا لا يفترقان أبداً. ولغة البكـم التي يتكلمان بها لا تـدرك إلا بالإشـارات. ظهر كبيـر البسـتانيين بطلعته البديعـة بقبعته المصنوعـة من الجـوخ الأحمـر، وملابسـه المصنوعة من قمـاش الكمخا الثمين، وحزامه الأخضر السميك.

- أخبرا آغا الباب حيدرة أن إبراهيم خاص أودة باشـي، قد عيّن في

منصب كبير مربي الصقور في القصر[1]، فليكتب الأمر الهمايوني، وليكن جاهزاً للختم خلال نصف ساعة.

غادر آغا الخدم والعملاق الأبكم بهدوءٍ كما ظهرا بهدوء.

انفرجت أسارير إبراهيم، وبفضل الإشراقة التي علت وجهه الآن أدركت كم كان كالحاً قبل لحظات.

- فلننتظر الآن حتى نرى كيف ستكون عاقبة الإساءة إلى دولة آل عثمان واستهداف وحدة المسلمين فيها، بدلاً من إدراك قوتها ووجودها. إنك ضيفي هذه الليلة يا أورخون جلبي.

انحنى إبراهيم بكبرياءٍ، تعبيراً عن خضوعه لأمري وشكرني:

- أستميحكم عذراً يا مولاي السلطان، فعليّ أن ألتفت إلى أولئك التتار الغزاة حتى أرى الهدايا التي قدموا بها. فإن وجدت فيها ما يليق بكم عدت لتقديمه إليكم، وإلا فسأسلمها إلى الخزندار لترتيبها؛ حتى تتمكنوا من استعراضها بنفسكم لاحقاً.

في هذه الأثناء، استأذن آغا دار السعادة بالدخول، وأخبرني أن الصدر الأعظم بيري محمد باشا يستأذن بالدخول. تلاقت عيوننا نحن الثلاثة في صمتٍ، وكأننا أطفالٌ أشقياء يفعلون شيئاً من دون علم ذويهم. إنني أكره هذا الشعور، فاحترامي لبيري محمد باشا وخبرته بلا حدود، فهو رجل دولةٍ كبير، لكنني كلما ذكر اسمه أحس بنفسي مقيد اليدين، ولا أعلم كم سيستمر صراعي ضد هذا الإحساس.

انتقلنا من غرفة العرش إلى القسم المخصص لتناول الطعام في الجانب المطل على بستان في جناحي الخاص، حيث تشتعل النار في موقدٍ مغطىً بالزبرجد والعقيق والفسيفساء على شكل قبعة عالية. وفي زوايا الصالة الكبيرة التي تعلوها قبة واسعة، تستقر مناقل الجمر على قوائمها المنمنمة بالفضة والذهب والمجوهرات. وكان قد سبق للخدم

(1) ربما كان هذا المنصب بمثابة جهاز استخباراتي خاص تابع للقصر.

أن رشّوا على الحطب ماء الورد والعنبر، فكانت الغرفة في الداخل دافئة وعطرة. جلسنا على الأرائك المغطاة بالديبا المصنوعة في بورصة فيما كان يجري إعداد المائدة. أريد في مثل هذه المواقف أن أصرخ في وجه بيري باشا: «أنا السلطان»، لكنني لا أستطيع.

إن الاحترام الذي أكنه له يتحد مع الحب، فهذا الرجل العجوز الوقور يمكنه أن يغطي كل عيوبي، لكنه في الوقت نفسه يلغي استقلاليتي، فما الذي يمكنني أن أفعله؟ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟!

نظرت إلى وهيمي أورخون جلبي وهو يشاهد المناضد ذات الأشكال الهندسية المصنوعة من خشب الورد، والجدران المغطاة بالخزف الثمين الذي صنع خصيصاً للقصر العثماني من قبل حرفين مهرة من الأوزبك والهنود، والخزائن الخشبية المنقوشة على أيدي مهرة أدرنة والتي لا تقدر بثمن، والصناديق المصنوعة من خشب الجوز، والمنحوتة أطرافها على أيدي المهرة التركمان، وهدايا أسرة مانغ من الزهريات الخزفية، والمباخر البراقة، وزجاجات ماء الورد المصنوعة في البندقية... لا يبدو أنني أعيش ببساطة كحال أبي؛ وهذا أمرٌ يثير الدهشة لديه. فهذه المبالغة التي تجاوزت مظاهر الترف لدى ملوك أوروبا بكثير؛ تربك المسكين كثيراً. وربما كان هذا ما يثير أيضاً غضب بيري باشا.

يبدو أن وهيمي أورخون جلبي غاب عن الحضور في عالم الأحلام تحت أضواء القناديل التي يحملها الغلمان، والكؤوس البلورية. فعيناه الضيقتان تشيران إلى انكفائه على ذاته للاستمتاع بهذا المشهد المثير الذي يستولي على العقول. وبعد برهةٍ، ملأت الغرفة رائحة لحم الخروف التي تفوح من أطباق المرق ذات الأغطية المرصّعة بالياقوت والصّفير، تلك الرائحة التي تكاد تثير الجنون. وعلى المائدة، انعكست أضواء القناديل الموضوعة هناك على الكؤوس البلورية الملأى بشراب الكرز المثلّج وأضفت عليها لوناً أحمر قانياً.

انهمك بيري باشا في تناول الطعام؛ فتارة كان يأكل الكلاوي بعد تقشيرها بحنكةٍ، وأخرى كان يأكل لحم الخروف المشبع بالدهون مع البصل والأرز العجمي المعطر بخفة وخبرة. ربما سئم من شرب حساء الدقيق على مائدة والدي المتواضعة. وعلى الرغم من خلعه قفطانه الأخضر ذا الحواشي المطرزة، إلا أن قطرات العرق تسللت على وجهه، فيما كان يبتسم في أدب. وأنا في الحقيقة أحب هذا الرجل الكريم الذي يسبب لي الضيق.

كان أبي رجلاً عسكرياً صرفاً. ومنذ توليه السلطة، أمضى حياته في السفر مع جنوده لخوض الحروب، ولم يفكر مرةً بسلامته الشخصية، ومات في ريعان شبابه. ولو حاولت الآن أن أعيش كأبي، ووجهت وجهي نحو التفاحة الحمراء، نحو أوروبا التي تتقدم بسرعة في طريق الوحدة، فماذا سيقول وزرائي وقادتي وجنودي؟! وكم هم مستعدون للتضحية في ساحات الحرب بعد حياة والدي المفعمة بها؟ هل سيكفي التفكير بالغنائم لتسخين دمائهم؟ لعل أهم نقطةٍ هي أن تبعث ضد الغرب روح الجهاد مجدداً، فالمشكلة التي كان والدي يعانيها كانت في توجّهه نحو المسلمين الأتراك مثله؛ مما سبّب قلقاً بيّناً لدى الأمة. والإمكانيات والشروط التي تنهي هذا الوضع قائمةٌ.

يبدو أن بيري باشا لا يريد أن يرد على تساؤلاتي بالإجابات التي أنتظرها قبل أن أطرح عليه الأسئلة. كنت قد أمرت باتخاذ الإجراءات اللازمة لإخلاء سبيل ألف وثمانمئة شخصٍ ساقهم أبي إلى إسطنبول بعد حملته على مصر. وكانت محاكمة قائد البحرية جعفر آغا مستمرة، فقد استطاع هذا المجرم القاتل أن ينجو من غضب والدي بحيلٍ شتى، وذر الرماد في عينيه، ولكنه لن يفلت هذه المرة بسهولةٍ، وسيدفع روحه ثمناً للجرائم التي ستثبت عليه قريباً.

بدأت الحديث باللهجة الحادة التي أرغب بها: «لماذا تصمت

يا بيري باشـا؟! تكلّم، هـل نفّذت أوامـري؟! هـل تتّخذ إجـراءات تقديم الضمانـات تعويضـاً للتجـار الإيرانييـن عـن قوافلهـم التجاريـة وأموالهم المحجـوزة؟! هيا، وضح لي مـا تم في مـا يتعلق برغبتي في إخلاء سـبيل التجار الصفوييـن المنفيين إلى البلقـان، والتجار الذيـن كادوا يهلكون في السـجون. الشـيء الوحيد الذي أعرفه هو انتشـار الشـائعات حول الرشى التي بلغت ذروتها، وعزل آغا السلحدار، وتعيين سليمان آغا مكانه».

مدّ بيري باشـا يده إلـى المنديل المبلّـل أمامه، ثم وضعـه في الوعاء المفضـض المليء بخليـط المسـك والصـودا، ونظّـف يديه وفمـه. وبعد ذلك شرع في الكلام: «كنت أنتظر سـؤالكم يا مولاي!». كما لو أن ابتداءه الكلام ينال من هيبته ويقللها. ثم تابع يقول:

«إنني أتابع تنفيذ أوامركم بدقةٍ، إلا أن تعويض التجار يبدو أنه سيزيد على مليـون آقجة يا مـولاي السـلطان. فهـل من الصـواب فـي رأيكم أن نحمّل الخزينة هذا الحمل فجأةً؟!».

كنت أتحدث محافظاً على ابتسامتي:

– «ليس المهم هو الأمـوال المصروفـة، وإنما المهـم تحقيق العدل أيهـا الباشـا! ربما عاقـب والـدي أولئـك البؤسـاء لأسـبابٍ محقـةٍ، لكنّ الاسـتمرار في هذا لـن يكـون صحيحاً. ومـن أجـل هـذا، لا يهمني حتى لو فرغت الخزينة مـن الأموال التي كدسـها والدي فيهـا، وأقفلها وختمها بخاتمه».

– أوامركم على رأسي يا مولاي السلطان. غير أن قضية تجار الرقيق هي مـا يثيـر خوفـي؛ إذ إن تلطـف إبراهيم آغـا فـي تأكيده وحرصـه على إعدامهم يبدو أنه سـيثير مشـكلة؛ فهناك نظام كان سـائداً فـي الخفاء طيلة تلك الأيام، وكان البائع والمشـتري فيه راضيين، والـكل يغضون الطرف، أما الآن...».

قلت في غضبٍ:

– يا باشـا، لقد تم إيضاح المسـألة عدة مـراتٍ، لكنك لـم تفهم هذا الوضع على الوجه الصحيح كما يبدو...

– لقد فهمت يا مولاي. ولكن...

– لا تقاطعني أيها الباشا.

أحنى بيري باشا رأسه من دون أن يفقد شيئاً من وقاره وقال:

– عفوكم يا مولاي.

– اسـمعني جيداً. إن ما يرمي إليه إبراهيم هو في الأصل قانونٌ سـارٍ يطبّق؛ وإلا لماذا وجدت القوانين؟!

– أنتم على حق يا مولاي. القانون الذي لا يطبق لا يمكن أن يسمى قانوناً.

– إذاً، المهمـة الأولـى للدولـة هـي تطبيـق القوانيـن السـارية. إن اختطاف النسـاء الشـابات والأطفال في أثناء غاراتنا على سـواحل الكفار يحرجنا فـي اتصالاتنا مع الخـارج. وعقوبة هـذا الأمر هي الإعـدام طبعاً؛ إلا أن هنـاك تراخيـاً في تطبيقـه! فالعثمانـي يسـن القانون لكنـه يمتنع عن تطبيقه. وليكن معروفاً للجميع منذ الآن أن كل شـيءٍ في عهدي سـيجري وفقاً للقوانين. وأنا لا أريد أن ينقل إلى بلادي بشـرٌ بطرائق غير رسميةٍ من غير أسـرى الحرب. إن اسـتخدام أسـرى الحرب في المعامـل والأراضي حسـب نظام المكاتبة حقّنـا الطبيعـي، ولمصلحـة كلا الطرفيـن؛ لأن هذا النظام يمكنهم من نيل حريتهم في نهاية المـدة المحددة، ومن فتح صفحة جديدة في حياتهم. فأولئك الذين يتم بيعهم خلسة من دون مكاتبة يقضون حياتهـم في ظـروف عملٍ صعبـةٍ؛ وهـم يعانون مـن الجـوع والعطش من دون أن يعلمـوا بنظام المكاتبة. وهـذا ظلمٌ، والظلم يسـتدعي غضب الله، ويمحق البركة. إنه فرماني، فليسـجّل كل واحدٍ عبده في سجلات القاضي في قسـمٍ إضافـيٍّ ملحقٍ، ومـن لا يفعـل ذلك فسـيتعرض لعقوبـاتٍ يراها القضاة، ولينظر في ظروف حياة الأسـرى العبيد، ولتعـدّ اللوائح التي تنظم

هذه الأمور، ولتطبّق في حق المخالف أقسى العقوبات، ولتنظّم جداول مراقبةٍ نظامية، ولتفتّش بانتظامٍ، وليتمّ اختبار النظام، ولترفع التقارير المعدة إليّ في يومٍ معينٍ من كل شهرٍ».

- الفرمان لمولاي.

خطر ببالي رسولنا إلى ملك المجر فجأة:

- ماذا حصل مع المبعوث إلى ملك المجر الشاب لاجوس الثاني في ما يخص الضرائب الجديدة؟ هل من أخبار جديدة؟

بدت على وجه بيري باشا علامات القلق وهو يجيب:

«لا يا مولاي السلطان. إن ما يقلقني هو أن هذا الملك الشاب يتخذ موقفاً معانداً، ويبدي في موضوع الضرائب تراخياً، ويبدو أنه سوف يزعجنا مستقبلاً. فهو يعمل على التقرب من الفاتيكان، ومن شارلكان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الجرمانية. ومن الضروري جداً وجود منطقة هائلة فاصلةٍ بيننا وبين شارلكان كأنجروس (المجر)؛ تمتد من الأدرياتيك إلى ترانسيلفانيا وكارباط روتانيا (أوكرانيا). فشارلكان وريث ماتياس كورفينوس سيبذل ما في وسعه للسيطرة على هذا الشاب».

- طبعاً كان هؤلاء جميعاً يظنون أنهم سيتركون وشأنهم حين ينشغل والدي بالمسألة الشرقية.

وجّهت وجهي نحو الغيوم التي تعبر سماء المضيق بسرعةٍ نحو الجنوب محملةً برائحة الثلج، فيما الريح القاسية تصفر وهي تمر بين الأعمدة والجدران، وتتسلل من حواف النوافذ، وضربت ركبتي بقبضتي ضربةً خفيفةً:

- إن المساعدة التي يقدمها شارلكان للصفويين تهدف إلى كسب الوقت فحسب. والشاه إسماعيل القوي فرصةٌ لا يمكن تفويتها بالنسبة لشارلكان الذي يسعى لتوسيع ملكه عن طريق الزواج والتحالفات. وإسماعيل لم يتأخر عن تقبيل اليد التي تمسح رأسه، لكننا لن نتردد في

إنزال صفعتنا القويـة على أوروبا مجدداً بعد أن نسـيت تأثيرهـا. يكفي ألاّ يثيروا الشـغب ضدنا حتـى لا نضطر إلـى الخوض في حرب تسـفك دماء الآخرين. أنـت تعرفني أيها الباشـا منذ طفولتـي، وتعرف أننـي لا أتحامل على أحد من دون سببٍ، لكنني ورثت إرثاً كبيراً من أبي، وعليّ أن أصونه وأطوره.

- أقدر حساسيتكم هذه يا مولانا. يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن المجر كانت منطلـق الكثيـر مـن الحمـلات الصليبية، ومـن هذه البـلاد خرجت الجيوش التي ظلمت المسـلمين. وفي ظل هـذه الحقائـق، أولئك الخونة لن يتـرددوا. لكـن مبعوثنا بهـرام جاويش سـيتحدث بلغـةٍ يفهمونهـا، إنه دبلوماسـيٌّ قديرٌ عندنا، ولـم يحدث أن عاد مرةً من دون إنجاز المهام التي أرسل لتنفيذها.

- فلتتّخذ كل التدابير أيها الباشـا. إنّ لاجوس هـذا ذبابة صغيرة تثير الاشـمئزاز، وجرأته تزداد مع مرور الأيام، ويجب اتخاذ التدابير المناسـبة في أقرب وقتٍ.

III

سكون الليل وأشعاري...
هل من أحد يسامر روحي
من يليق به الأسر فيسامر السلطان
جور الجفاء منه أحب إلي من وفائه
وهل يجادل الدواء من يعرف وقع الداء

عجباً، لقد مضى إبراهيم بحجة مشاهدة غنائم التتار ولم يعد حتى الآن. أعود مجدداً إلى الرسالة التي وردت قبل قليلٍ من إمبراطور روما شارلكان، فوالده هو فيليب الوسيم ابن الإمبراطور الألماني ماكسيميليان الأول من زوجته جوانا من عائلة هابسبيرغ. وبوفاة فيليب في سن الشباب، وانتقال لقب أبيه إليه، ورث هذا الابن الرعديد شارلكان هذا الملك الذي لم يظهر له مثيلٌ في أوروبا. لقد اجتمعت تيجان كاستيليا (القسم الأكبر من إسبانيا) وأراغون (منطقة واسعة على حدود كاتلان شمال شرق إسبانيا) وملكيات أنابولي وصقلية في شخص شارلكان. وعندما انتخب إمبراطوراً على ألمانيا بعد وفاة أبيه المفاجئة، خطت أوروبا باسم الوحدة التي تبحث عنها منذ عصورٍ وبشكلٍ مفاجئٍ خطواتٍ لم تتجرأ عليها سابقاً. والآن، يتقرب مني ممثل أسرة هابسبيرغ الأصيل. فلنرتقب، ولننتظر كم سيدوم منه هذا السلوك؟!

جالت أصابعي على الورق بخفة، وتحسست ملمسه الحريري. ورغم ذلك تظهر ألياف الورق الدقيقة شيئاً من المقاومة التي تدلّ على متانتها. أشم في عجينة الورق رائحة مسك غزلان جبال البيرنيه ودهن

حيتـان الجنـوب ممزوجيـن بنسـبة الثلث مـع زيـوت القطن والقنـب. إن كارلوس الشاب هذا يحاول أن يذكرنا بالأقاليم الواسعة التي بدأ يحكمها؛ حتى بواسطة الورق الذي يستخدمه!

إن هذه الروائح التي تبـدو لاذعة للوهلة الأولـى أصبحت مع الزمن تدغدغ حواسـي بامتزاجها برائحـة بتـلات ورود فالنسـيا المضغوطة التي تشـكل غلافاً للرسـالة. لا بـد أنـه انطلاقاً مـن معرفتـه بحبي للـورود أراد أن يقول لـي: «إن كنت معي حسـناً، كنت معـك مثل الـوردة ذات الرائحة الزكية!». وعلى الرغم من رأس الريشة المدبب؛ فإن الورق لم يتأثر، وهذا يدل على أنّ الرسـالة كتبت بريشـةٍ ذهبيةٍ. ولما كان الذهـب معدناً مطواعاً سـهل الالتواء، فالكتابة بريشـةٍ ذهبيةٍ تبدي دقّـةً ورقةً متميّزتيـن، واهتماماً أكبر من الكاتب. ولعله أراد أن يذكرني بمناجـم الذهب التي حصل عليها في أمريكا الجنوبية. وربما كانت نعومة الورق الناجمة عن اسـتعمال دهن حـوت العنبـر لتذكيري بهيمنتـه علـى المحيط الهـادئ. لتهنأ فـي صفائك الآن، فلا بد أنك ستحاسـب يوماً على دماء الأمريكييـن الأصليين الأبرياء التي أرقتها!

والحبر الذي اسـتعمله خليطٌ من ماء المطر الذي لم يمسسـه شـيءٌ وعفص البلوط والصمغ العربي وعسـل النحل والملح والرماد وسولفات الحديد؛ لا بد أنـه ذلك الحبـر النادر الموجـود في بلاد فـارس. طبعاً لأن علاقة الشـاه إسـماعيل جيدةٌ مع الجميع باسـتثنائنا. أشعر بابتسـامة مريرة ترتسـم على شـفتي وأنا أفكّـر: وأنـت يا إسـماعيل، تمتـع بأهوائـك التي تؤذي المسـلمين، ولا بد أن تسـأل يوماً عن الفتن التي تثيرهـا، وعن دماء المسـاكين التـي تريقها. فمـا الفائـدة لـو امتلكت أراضـي الأناضـول، بل الدنيا كلها، إن لم تحكمها بالعدل؟! أنت تسـعى لتكون جهانكير[1] يحكم

(1) أي سيد العالم، وجيهان: العالم.

العالـم، وعندمـا سـحقك أبي فـي جالـدران واقتحـم تبريز انسـحبت إلى قزويـن مـن دون أن تتصدى له مـرةً أخرى، أهـذه شـجاعتك؟! وقد كتب إليك أبـي قائـلاً: «لبينا دعوتـك، وقطعنـا الطـرق الطويلة ودخلنـا بلادك، لكنـك لم تظهـر في السـاحة. إن بـلاد الملـوك مثـل زوجاتهـم، والرجال الشـجعان لا يسـمحون لأحد بأن يمسّـها. وها أنذا قد دخلت بـلادك منذ أيـام، وأسـير فيها مـن دون أن أسـمع أيّ خبـر منك. فـإن آثـرت الاختباء فحرام أن تكون من بين الرجال، وعليك أن تلبس الحجاب وتنزع المغفر، وتلتـفّ بالملاءات بدلاً مـن الدروع، ثـم تتخلى عن هواك في سـرداريتك وشاهيتك»[1]؛ فماذا فعلت أنت؟! لقد تخلفت عن مواجهته بجيشك الذي طالمـا تغنيت بـه؟ والآن، افترض أنك من خـلال التحالفـات الكثيرة التي تقوم بها مـع الكفار قد ألحقت بنا جزءاً بسـيطاً من الضـرر؛ فلمصلحة من سـيكون ذلك؟ وافتـرض أن العالم النصرانـي الذي تتقرب منـه قد نصبك سـلطاناً علـى هذه البـلاد بـدلاً منا؛ أتظـنّ عندهـا أنه لـن يطالبـك بمقابلٍ للجهود التي بذلها أضعافاً مضاعفةً رغم أنفك؟!

سـمعت طرقات خفيفة على البـاب، وظهر آغا الخـدم جعفر أفندي وآغا البستانيين الأبكم بقبعته الحمراء:

– مـولاي السـلطان، إن كبير مربي صقـور القصر إبراهيـم آغا يرجو المثول في حضرتكم.

– اسمحا له بالدخول.

كان على وجـه إبراهيم الوضاء تحـت أضواء المصابيـح اختلافٌ لا يمكن تجاهله، ولا يمكن أن يكون بسـبب المنصب الجديد الذي استلمه. وبعد أن شبك يديه على طريقته الخاصة بدأ بالكلام:

– مولاي السـلطان، وأخيـراً جاء التتـار بغنائم تسـتحق الذكـر. لقد

(1) السردار: القائد العام للعسكر، والشاه معروف.

أعجبتني، وإنني على ثقةٍ بأنها ستنال إعجابكم، وسأعرضها عليكم إن كنتم تريدون ذلك.

أجبته مبتسماً: «تعلم أنني أثق بذوقك يا إبراهيم».

انحنى أمامي بتذلل وهو يحاول السيطرة على ابتسامته العريضة:

- أدامكم الله يا مولانا. قد لا تكون هذه الفتاة السلافية جميلةً جداً، إلا أن لها سحراً غير معهود.

- اقبل غنائم التتار، ولكن ذكّرهم أنني لا أريد بعد الآن من بلادهم أناساً اقتلعوا من أوطانهم بالقوة. وأنّ عقوبة ذلك ستكون الإعدام أياً كان الفاعل.

- تصرفت مثلما قلتم يا مولانا، وذكرتهم بالقانون، ولكنهم أصروا على القول إن هذه الغزوة على أراضي روتانيا في لاهيستان لم تكن بهدف النهب، بل كانت تهدف إلى إضعاف عزيمة العدو وجرأته يوماً بعد يومٍ. ولديهم وثائق تثبت أنها كانت حملةً مشتركةً لعدة قبائل تترية.

- أنا لا أثق كثيراً بهؤلاء يا إبراهيم! إن موقفهم أصبح غامضاً بعد أن انضمت إمارة قازان إلى إمارة القرم، فما رأيك؟

- الفرمان لمولانا!

- حسناً، قبلنا هداياهم، فلتحسن ضيافتهم، ولتبذل لهم الهدايا.

مضت ساعةٌ قبل أن تنار الغرفة الخاصة بقناديل إضافيةٍ ويدخل إبراهيم ومعه فتاةٌ طويلة القامة. أدركت من النظر إلى وجهها أنها لا تزال صغيرةً جداً؛ فنظراتها تدلّ على سذاجتها وخوفها. شعرها الطويل الأحمر نظيفٌ جداً، ينسدل متموجاً على كتفيها العريضتين. وكانت ترتدي ثوباً حريريًّا طفولي اللون، وتتلألأ الجواهر على طرفي كميها وياقتها العريضة وأطراف تنورتها، وارتدت فوق ثوبها عباءة بلا كمين بلون الكرز المتعفن، ووضعت على كتفيها شالاً أسود مثل سواد الليل القارس في

الخارج، وأطراف الشال تداعب حذاءها الزهري عند قدميها الصغيرتين. عيناها النجلاوان الزرقاوان بزرقة المحيط العميق أخفتا شحوب بشرتها البيضاء... كانت برودة النساء السلافيات بادية عليها طبعاً، لكن شفتيها الورديتين يبدو لي أنهما ستكونان حارتين في الوقت المناسب. وحين تبتسم فإن أسنانها السليمة كانت تلمع بوضوح مثل وضوح النجوم المتناثرة في صفحة سماءٍ مخمليةٍ في ليلة صيفٍ. أما وجهها الذي يتوسّطه أنفها الصغير فيحمل سرًّا يصعب حلّه، ولا يمكنك مقاومة الرغبة في رسمها على النمط الفرنجي إن رأيتها مرّةً واحدةً.

تكلم إبراهيم مع الفتاة بلغة روتينيا، ورغم أنني لم أكن أتحدث بلغة السلاف بسلاسةٍ كما يتحدث إبراهيم، لكنني أستطيع القول إنني فهمت بلغتي الروسية الضعيفة ما قاله. فقد سأل الفتاة:

- أتعرفين من أمامك؟!

بدا لي أنها تخلت عن الردّ المشاكس الهجومي الذي كانت ستتفوّه به. والأسلوب المتكلف الذي يتبناه إبراهيم عند الحديث معي، لفّ رأس الفتاة الجميل كطوقٍ فضي. إنه تعبيرٌ عن الرغبة في البقاء على قيد الحياة. نعم، أعرف هذا التعبير الذي يفيض من عيني عبد بائسٍ يعمل على التمسك بالحياة؛ هذا التعبير الذي لا أحب أن أراه لدى أي كان.

ولكن، لماذا يا وحدتي المطلقة؟! إن العبيد يكذبون بمهارةٍ، ومشكلة العبد ليست في أن يصدقه أحدٌ أو لا يصدقه، فهو يدرك أنه لا يستطيع أبداً إثبات إخلاصه الحقيقي... مشكلته الأساسية ألاّ يجد أحداً يصدقه.

هزت الفتاة رأسها بسرعةٍ وكأنها تريد أن تقول: نعم أعرفه.

فسألها مجدّداً: «إذاً، من هو؟».

فأجابت الفتاة: «إنه حاكم الدنيا؛ السلطان سليمان خان». ثم بدت على شفتيها الورديتين ابتسامةٌ تحيل ليلة الشتاء الباردة إلى حلم صباحٍ

صيفـيٍّ جميـلٍ. لم تخطـئ عينـاي، ولـم يكن فـي اسـتطاعتي عـدم التأثر، وعندها أدركت أنني ابتسمت لفترة طويلة.

قـال الحكيم الكبيـر والعالـم المتصوف مصلـح الدين مركـز أفندي ذات مرةٍ في إحدى السهرات المسـائية: «أميري، الناس العظماء محاطون بأكاذيب كبيـرة». قالهـا وعينـاه الخاليتان من الريـاء تضيئان مثـل جمرات المنقل قرب مجلسـنا، وأضاف: «ولا مفر لهؤلاء الذين يعيشـون في مركز الأكاذيب الكبيرة أن يشـعروا بأنهم أنفسـهم أكاذيب كبيـرة. وفي مثل تلك اللحظات، الجأوا إلى عون الله وتوجهوا إليه. ولا تنسـوا أن شرور الناس غير المخلصين أسوأ من شرور الشيطان!».

سألته حينها وشـعوري بالاسـتياء من الحياة يتحول في تلك اللحظة في أعماقي إلى شـعور عظيم بالفناء: «هل يمكننا أن نعتاد على حياة كتلك يا حضرة مولانا مركز أفندي؟».

تمطى وابتسـم ومـسّ ذراعي مـن دون تكلّـفٍ، فكانت لمسـةً نادرةً أزالت عني التوتر:

- مولاي السـلطان، أنتـم مضطرون مـن أجل وجود أمتنـا ووحدتها وسـلامتها إلى العيـش تحت الظـروف كافـة. وليكـن إخلاصكـم موجهاً لأمتنا. وإن احتـاج الأمر، فلتكـن الأكاذيب التـي تضطرون إلـى قولها في سبيل بقاء أمتنا...

- هذا صعب جداً يا حضرة مولانـا! يصعب عليّ جداً أن أعيش وأنا أتصرف هكذا... وعندما أتولى العرش سيزداد هذا الحمل ثقلاً.

- لا أتمنى أن أكون فـي مقامكم أبداً يـا مولانا. وبمـا أنكم الوريث الوحيـد للعرش، فمـن الصعـب عليكم معرفـة العـدو من الصديـق. ولما كانـت هـذه المسـؤولية قد أنيطـت بكـم، فإنـه يتوجب عليكـم القيـام بها والصبـر عليها. لا تحملـوا همـاً يـا أميرنا الجليـل. يجب أن تعتبـروا أن ما

سيحدث وكأنه قد حصل. وانظروا إلى حضرة الشيخ إبراهيم كولشاني في تبريز الذي يواجه هناك السلطة الشيعية وحده من دون كللٍ أو مللٍ. إنه يناهز المئة من عمره، وهو مستمرٌ في حياته ككل مجاهد حقيقي. وتبريز لم تهنأ مرةً أخرى بالاستقرار الذي كانت تنعم به في عهد السلطان أوزون حسن. لقد أصبحت مكاناً لا يطاق العيش فيه بالنسبة إلى المسلمين السنة. وإبراهيم كولشاني يصبر جاهداً في العيش في تكيته التي تشع في العالمين نوراً، من دون أن يُقدّم أي تنازلٍ عن عقيدته. وأخيراً، سيشن الشاه إسماعيل حملةً كبرى على هذا الشيخ الجليل. ورغم ذلك، لقد سلّم أمره لله إلى درجةٍ لا يمكن أن ينفع معها إرهابٌ أو تهديد.

إن حب هذه الفتاة سيبدأ كاذباً، فهل سيصبح حباً حقيقياً ذات يومٍ يا سليمان؟! هل يمكن أن يكون عبد كإبراهيم صديقاً حرًّا مخلصاً يا سليمان؟! لم أستطع أن أقنعك يا سليمان أنّ ما يدعى صداقةً لا يمكن أن يولد إلا من الإخلاص، وأنه ما من حبٌّ يستحق أن تعمى العيون من أجله، وأن الوحدة هي الحقيقة المرّة الوحيدة في الحياة.

انظر الآن... انظر جيداً إلى هذه الفتاة الجميلة التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وتفجر الصخور الصماء لشدة جمالها كيف أصبحت في خدمتك. انظر إلى إبراهيم الذي ترجو منه لحظة صداقة مخلصة في حين يرتعد العالم كله أمامك. نعم، هذه هي الدنيا التي لا تمنحك سوى هذه الفتاة الأمة، وهذا الفتى العبد! إن كنت سلطان العالم فهذا يعني أن الجميع أبناء رعيّتك، وأنك وحيدٌ على مائدتك، ليس لك إلا ما تأكله وتشربه، وأنك تحاول إلهاء روحك عن جراحها بالمظاهر وبثيابك المبهرجة وقصرك الذي يبدو مثل مستودعٍ لمتاع الدنيا. ربما يسجلك التاريخ كأعظم سلطانٍ عثمانيٍّ يحالفه الحظ، ولكن لن يعرف أحد أبداً أنه ليس هناك في الدنيا سلطانٌ سعيدٌ.

أخبرني إبراهيم بأنها تدعى روكسلانا. وكانت ابتسامة الفتاة بسمةً تنتزع الروح من أقوى رجلٍ في العالم، لكنه الأكثر عزلة أيضاً. إنها من غير شكٍّ تبتسم لي، وأحاسيسها الأنثوية تنبئها أنني لن أكون صيداً سهلاً. لكن ضحكتها تكشف عن أشياء تشرح النفس، إنها فتية جداً... فكرت لحظةً وقلت: «لا، اسمها منذ الآن فصاعداً سيكون حرّم، إن بسمةً كهذه تستحق مثل هذا الاسم».

فضحك إبراهيم مؤيداً، وهنأني، ثم خرج من الغرفة.

المارد يتحرك
(وهيمي جلبي)

I

«من يشفق على ظل؟».

إدغار آلن بو (إضاعة النفس)

5 آذار 1521م، إسطنبول

أمر الوزير الثالث داماد فرحات باشا آغا الإنكشارية، فأودع هذا الأخير كيساً مليئاً بالعسل في سطلٍ نحاسيٍّ كبير. ولسبب ما، كانت الشائعة اليونانية القديمةساريةً هذه الأيام في إسطنبول، وتقول الشائعة إن لون النحاس الأصيل ينتزع من نفس الإنسان رهبة الموت. نادى فرحات باشا الآغا مجدداً، فشمر كمي قفطانه عن ساعديه، وجثا على ركبتيه وسلاحه لا يفارقه. عالج رباط الكيس بيديه الكبيرتين المخشوشنتين نتيجة تدريبهما على الضرب على الرخام، واستطاع حله بعد جهدٍ، ثم مدّ يده داخل الكيس، وأخرج الرأس وقد أمسكه من شعره... ها هي نتيجة حلم الدولة المملوكية المستقلة التي أعلن من أجلها جان بردي غزالي العصيان على الدولة العثمانية.

قال فرحات باشا:

- وجدت جان بردي محاصراً أسوار حلب، وهو يرسل أوامره يمنةً ويسرةً في طمأنينة قائدٍ كبيرٍ.

كان تعب الطريق بادياً عليه؛ إذ كانت عيناه متورمتين وكأنهما

ستغمضان في أي لحظةٍ. ويبدو أنه لبس بذلة المراسم للتو وبسرعة قبل حضوره للمثول أمام السلطان. كان طرفا قفطانه أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل، ولحيته لم تكن مسرّحةً إلى حدٍّ أن سليمان خان قد يعتبر ذلك علامة استهتارٍ.

- لا بد أنهم قد فرحوا كثيراً عندما نشرت سنجق خير بك المصري الذي حملته معي. أشعر وكأنني ما زلت أسمع صيحات الفرح التي أطلقها جيشه. والعاصفة التي هبت لحكمةٍ ربانيةٍ ساعدتنا على الاقتراب من جان بردي مسافة رمية سهمٍ، فلم يعرف حقيقتنا حتى تلك اللحظة، لم يعرفنا إلا بعد فوات الأوان. ولقد انهزم جيشه عند أول حملةٍ لفرساننا، ولم يستطع رجاله تجميع صفوفهم مجدداً، إلا أن الخائن جان بردي نجح في الفرار بطريقةٍ ما وسط الفوضى يا مولاي السلطان. ومن جهة أخرى، إن علي شخصور أوغلو بك إنسانٌ جيدٌ، ومحاربٌ قويٌّ، علاوةً على أنه محبوبٌ كثيراً في منطقته. وعند فرار الخائن جان بردي، وبينما كنت ألاحقه، قام شخصور أوغلو بإعدام الأسرى الذين وقعوا في قبضته من دون استشارةٍ. ربما كان ذلك لفرط حبه لمولانا السلطان. فليسلم شخصور أوغلو، لكن أغلب أولئك الذين أعدموا كانوا من السكان المحليين من الشبان المغرر بهم بوعود الغنائم، فليته لم يفعل. فما يطفئ نار الفتنة في تلك المنطقة هو العدل وليس الدماء.

ثم استرق النظر إلى السلطان وهو يضيف: «وهذا لم يحصل».

طأطأت رأسي قليلاً، وأنا أقرأ شيئاً مخيفاً لم يتفوّه به لسان فرحات باشا، ولكنه ظهر على محياه وفي حركات يديه اللتين لم يعد يتحكم بهما، ومن رفة عينه اليمنى. لقد وقفت على أحاديث كثيرةٍ حتى اليوم، وكل المتحدثين كانوا كذّابين مهرة، إلا أن الإنسان حين يبدأ بالكذب يتصرّف فطرياً بطريقة معينة، ويتساوى في ذلك أبناء كلّ ثقافةٍ مهما بلغت خبراتهم؛ فهم لا يستطيعون إخفاء بعض تصرفاتهم. عندما أحسست بأن

فرحات باشا بدأ يكذب نظرت إلى سليمان خان، وللأسف كان السلطان يبدو متأثراً بما سمعه؛ ولا سيما بذاك الجزء المتعلق بالعدالة التي يوليها كل اهتمامه، وثارت من أجلها أعصابه. ولو كنت أتمتع بحق الحديث من غير استئذان، لانطلقت فوراً وسألت الباشا أسئلةً محرجةً، لكنني لم أكن أستطيع التصرف في حضرة السلطان تجاه وزيره هكذا.

تابع فرحات باشا قائلاً:

- وعلى الرغم من بحثنا عنه في كل مكانٍ محتملٍ، لم نجد أثراً لجان بردي، فلجأت إلى أسلوبٍ بسيطٍ جداً، فقد وعدت كل من يبلغ عن مكان وجوده بمبلغ كبير من المال...

لم يكن ذلك مفاجئاً للسلطان، فقد كان فرحات باشا ذكيًّا ومُهابَ الجانب، وبطريقةٍ ما استطاع أن يكون صهراً لسليم خان. كما لمح السلطان في نظرات إبراهيم آغا ذلك الإحساس الخارق الذي يشتهر به الدوشرمة. فوجهه الذي غابت عنه الحيوية يكاد يبدي أنه التقط رائحةً ما؛ إنها رائحة الكذب.

- ... لم تكد تمضي ثلاث ساعات حتى بلغنا أن جان بردي مختبئ في حظيرة أغنامٍ صغيرةٍ. كان المخبر بدوياً بالي الثياب، ويحمل بيده كتاباً مخطوطاً باليد كُتبت عليه كلمة «العازف». أغرنا على المكان، وقبضنا على جان بردي في المكان الذي أشار إليه الرجل الغريب بالضبط. كان جان بردي رجلاً جباناً في اختبائه منا، غير أنه ما إن ألقينا القبض عليه، حتى تحوّل فجأةً إلى بطلٍ يا مولاي السلطان. فقد وقف أمامنا بوجهه المتجهم وقفة الشجاع، ولما تلونا عليه فرمان الإعدام لم تتحرك له شعرةٌ واحدةٌ، وسلّمني الأشياء الثمينة التي كان يحملها لإيصالها إلى أهله، ثم توضأ وصلى ركعتين بخشوع، ومن دون أن ينهض عن سجادته نظر إلى الجلاد وقال بهدوء: «أنا فردٌ حارب من أجل سلامة دولته وشعبه فقط، ولست خائناً، نفذ عملك جيداً». وقذف إلى الجلاد كيساً مليئاً بالذهب

حين وضع الحبل حول عنقه؛ ثم تشهّد وسلّم روحه في لحظةٍ قصيرةٍ.

حانـت منـي التفاتـة إلـى سـليمان خـان، فأدركـت أنـه كان لا يزال تحت تأثيـر الخبر الـذي تلقاه قبـل قليل. فغضبـه من شـخصور أوغلو بادٍ على وجهه. لكن طبعه الرحيـم كان يغلب عليه، فيعمل على ضبط نفسـه. وحرصه على تجنب الأخطاء لـم تكن أيّ عين تخطئه، لـذا كان حذراً من عدم القيام بأي خطوةٍ خاطئةٍ. وسـرعان ما قرأت في نظراتـه المفاجئة إليّ أنه اتخذ قرار التحقيق في صحة هذا العمل.

لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى جاء دور تكريم أولئك الذين أبدوا شـجاعةً في أثناء الحملـة؛ فوقعت واقعةٌ أعدّت بذكاءٍ. فقد جـاء كبير أطباء الجيش يسـتأذن لمقابلة السـلطان، ويصر على ذلك. لم تكن هذه الزيارة في وقتها المناسـب ولا مكانها المناسـب. غير أنّه يمكن أن يكون هناك أمرٌ طارئٌ، ولذلك قـرّرت الانتظار لأعـرف سـببها. دهش الجميـع بهذه الزيـارة غير المناسبة.

دخـل كبيـر الأطبـاء أحمـد جلبـي مجلـس السـلطان، وبـدأ يـروي بالتفاصيل الظلـم الذي ارتكبـه علي شـخصور أوغلو بك بحق الأسـرى، وقد غمرتـه الدموع. كان الحزن يبدو جلياً على سـليمان خـان، ولو كانت شـخصيته سـريعة المبـادرة مثـل أبيه لـكان الأمر قـد انتهـى سـريعاً، لكنه أدهشني برويته أكثر مما كنت أتوقع:

- إن مكانة شـخصور أوغلو كبيرة لدينا. وكما أن الله تعالى يسـامح من ارتكب خطيئة وندم عليها يجب علينا أن نسـامح أيضاً. وأكلف الصدر الأعظم بيري باشـا بمهمة تنبيهـه. ولتكتب في مذكرتك أننـي حزنت كثيراً لدى سماعي بما فعله أيها الباشا، وإن أقدم على عملٍ ما من دون استشارة وكيلنا مرةً أخرى فسنقطع عنقه.

- الأمر لسلطاننا.

- وأنا أعين بكلـر بك الأناضـول إياس باشـا ليكون بكلـر بك على

سوريا. فليبلّغ القرار الهمايوني.

ظهر عند الباب حيدر آغا مستأذناً، وكانت هذه هي الحادثة الثانية المزلزلة في تلك الليلة. فقد جاء محافظ أدرنة صالح باشا حاملاً أمانة نقلها رسولٌ من ملك المجر لاجوس الثاني. وبما أنه لم ترد أي أخبارٍ عن بهرام جاويش منذ فترةٍ طويلةٍ، فقد أثار هذا النبأ قلقاً كبيراً في الديوان السلطاني، فعقب سليمان خان قائلاً: «خيراً إن شاء الله. لكنني أشعر أن لا خير يرتجى من وراء هذا».

تدخل بيري محمد باشا بوقاره المعهود قائلاً: «يجب أن يكون ردنا قاسياً في وجه أي إهانةٍ محتملةٍ يا مولاي السلطان».

بعد فترة صمتٍ قصيرةٍ مليئةٍ بالتوقعات، أصدر سليمان خان حكمه بما يليق بحاكم العالم: «إن تجاوز هذا الملك الشاب الأدب، فأنا حاكم الشرق والغرب سأصون الأمانة التي ورثتها عن أبي، وسأحترمها بطريقةٍ سيبقى المؤرخون يتحدثون عنها طيلة الدهر؛ وذلك بالقرارات التي سأتخذها هذه الليلة!».

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى جاء صالح باشا، وقبّل طرف عباءة سليمان خان، وقدم له في هدوءٍ الصندوق المرصّع بالمجوهرات. ومن تعابير الحرج والانكسار التي بدأت تعلو وجهه؛ أدركنا ما هو متوقّعٌ، وكنا متعلقين بالآمال في حصول أعجوبة ما.

اقترب كبير البستانيين الأبكم العملاق بأدبٍ، وتناول الصندوق وفتحه بعد أن جعل جسمه الضخم ستاراً للسلطان. وبدأت علامات الطغيان الظالم والمخيف تظهر ملفوفةً بشاشٍ نظيفٍ طبقةً بعد أخرى؛ إنها أذنان وأنفٌ مبتورة بمهارة جرّاحٍ... ومعها الرسالة التالية:

«هذا ما بقي من رسولك الذي استعرض فتوته عندي يا سليمان. أعرف أنه أحد رجالك الأوفياء وتود أن يكون له قبرٌ. أنتظر تقديرك هذا الكرم مني. ولا تنس، إنّ أيّ رسول سيأتيني منك مجدداً بالنية ذاتها لن

يعود إليك مطلقاً».

مـا إن أنهـى إبراهيـم آغا قـراءة الرسـالة حتـى بـادر بيري باشـا قبل سـليمان خان الذي انتفض من شـدة الغضـب إلى درجة منعتـه من الكلام قائـلاً: «إنه قتلٌ واضـحٌ للعهـود الدولية يا مـولاي السـلطان! وإن التدخل حقنا المشروع». وأيده الموجودون في المجلس.

شرع سـليمان خان بالكلام مذكراً الحضور وهو يمسـح عنقه بخفةٍ: «يا وزرائـي، ويا قادتي، ويـا أمرائي، تعرفـون جيّداً أن الرسـل لا يجب أن يقتلوا، وأنني كرهت موقف أبي السلطان سليم الذي أمر بسجن رسل شاه بلاد فارس. والآن، كيف لي أن أسـكت علـى ظلمٍ تعرّض لـه رجل كريم ومخلص لسلطانه ووظيفته لأنه نقل كلامنا ونيتنا فقط؟!».

وانبـرى إبراهيـم البرغالي قائـلاً: «لو لـم يدعمه شـارلكان لما تجرأ لاجوس على القيام بفعل كهـذا يا مولاي. فالمجر ليسـت قوية كما كانت أيـام كورنيفـوس، لكنهـا تأمل فـي العـودة إلـى سـابق مجدها بدعـمٍ من شارلكان والبابا. وربما كان لاجوس يسـعى إلى تحقيق ذلك بتمرده علينا. غير أنه سيفهم قريباً أي خطأ ارتكبه، وسنرى كم سـيقف إلى جانبه أولئك الذين يمنحونه الجرأة للتطاول علينا».

ظلت علامات الدهشـة والحرج والغضب تكسـو وجه سليمان خان الجميـل وهو يقـول: «لن يهـدأ بال شـارلكان حتى ينتـزع منـا أراضينا في أوروبـا. وهو يسـتخدم لاجـوس الشـاب وسـيلةً لتحقيق ذلـك. وفي ظل هذا يـزداد لاجوس جـرأةً يوماً بعد يـومٍ. سـأريهما أي أوهامٍ يسـعيان إلى تحقيقها، وسأسحقهما معاً».

كانت عينا الوزير الثاني مصطفى جوبان باشـا الواسعتان والزرقاوان مستقرتين على السـلطان سـليمان وهو يقول بثقة: «يا مولانا، إن اتحادهما ضدنا، وخطر الشـاه إسـماعيل الذي لم يتم القضاء عليه بشـكلٍ كاملٍ بعد يشجعان جميع أعدائنا».

أطرق سـليمان خان مفكـراً ملياً، ثـم رفع رأسـه متحدثاً بنبـرة حادةٍ ساحقةٍ وصوتٍ متمكنٍ ثابتٍ:

– مصطفى باشـا، ليتحرّك الأسـطول السـريع بعد إكماله استعداداته من نهر الدانـوب، وعلى رأسـه أنـت. وإذا اسـتخدمنا مدافع الهـاون التي اخترعها جدي الفاتح على السـفن، فسـنتمكن من قصف ما وراء الأسوار بسهولة.

– وهذا مـا يفكر به عبدكـم يا سـلطاني. ويمكنني عندهـا أن أجرب تعليق السـلالم المصنوعة من الحبال القويـة الغليظة العصيـة على النيران على الأسوار.

ظلت البسـمة الحزينة مرتسمة على وجه سـليمان خان المتورد وهو يقول:

– أثـق بك يـا مصطفى جوبـان باشـا، فأنت رجـلٌ ماهرٌ فـي تقنيات السـلاح. لكن، عليك أن تعلم أنني في هذه المرحلة لا أستطيع أن أتحمل الفشـل. لذا عليـك الاهتمـام بمدافع الهـاون أكثـر، ولتؤمّن مـا يكفي من القذائف والبارود حتى لا نقع في ورطةٍ إن طال الحصار.

– الفرمان لمولاي السلطان.

كان سـليمان خـان في هـذا الموقـف شـبيهاً بالمرحوم سـليم خان، واستمر السلطان في إصدار أوامره:

– بيري باشـا، فلتتـولّ سـريعاً قيـادة جيـش روم إيلي، ولتسـتكمل اسـتعداداتك للتحـرك، وسـينضم إليك قاسـم باشـا بيلـر بيـي الأناضول، وأحمـد باشـا الأرناؤوطي أميـر أمـراء روم إيلـي، وخسـرو بك بيلـر بيي سـمنديرة. وليكلّف الوزير فرحات باشـا بمهمة تأميـن الأرزاق وما يحتاج إليـه الفرسـان. وإن لـزم الأمـر فسيسـتنفر أحمـد باشـا كل الوحـدات في المناطق الواقعة تحـت إدارته لتأمين الحاجات الاسـتثنائية للجيش، ولكن مـن دون أن يلحق ظلمٌ بأحـدٍ. ولتؤدّ قيمة كل شـيءٍ يؤخذ؛ إبـرةً كانت أم

خيطاً، ولتعلموا أنني لن أتساهل مع أي مخالفةٍ. وليكلف الرئيس دانشمند بأمن السـواحل الممتدة من البحر الأسـود إلى الدانوب، فهو رجلٌ جسورٌ وخبيرٌ بالمنطقة. سـيتوغل الغزاة بقيادة ميخال أوغلو ويحيى باشازاده بالي باي أميـر في أراضي المجر، وسـيقاتلون بـكل قواهم لإزالـة أي قوةٍ تعيق الحصار. وسأسير في طليعة قوات المركز وأكون معكم في أثناء الحصار، بعد أن أنهي القضايا التي يتوجب عليّ النظر فيهـا. إن بلغراد هدفنا، وهذه المدينـة بوابة أوروبا الوسـطى، وسـتكون لنا مركز قيـادةٍ جيـداً. وبدءاً من اليوم، بلغراد مركز حملتنا على أوروبا بإذن الله.

- الأمر لمولانا السلطان! ردّد بيري باشا ذلك بصوتٍ مرتعشٍ.

وعاود سليمان خان الكلام مخاطباً الجميع:

- لا تنسـوا أنّ أوّل حصـارٍ لبلغـراد تم من قبل السـلطان مـراد خان الثاني الـذي كان يعرف النقـاط الاسـتراتيجية للمنطقة. ففي عـام 1441م، حاصر جيشه المدينة بقيادة علي أورانوس أوغلو بك، وحين طال الحصار ذهب مراد خان بنفسـه لتولي قيادة الحصار، واضطر إلى رفع الحصار بعد ستة أشهرٍ بسـبب انتشـار الأمراض والإنهاك الذي أصاب الجنود، فبدأت تظهر في صفوفهم حالات فرار حقيقية ومني الجيش بالخسائر. إن السبب الأساسـي لحصـول ذلك يـا حضـرات الآغـاوات كان اليـأس الناجم عن السـلوك الفوضوي للجنود. وقد أصاب جدي مراد خان الثاني قلقٌ شديدٌ بسبب هذه الفوضى الشـديدة في صفوف الجند. ولنتذكر معركة فارنا عام 1444م، حيث هُزِمت فرقة الإنكشـارية علـى تراب أرضها فـي أول حملةٍ للصليبيين هزيمةً نكـراء مخجلة، وهـي التي كانت تسـتعرض فتوتها على أمتهـا وتتمرد على سـلطانها؛ ممـا أدى إلى تجـرؤ جانوس هونيـادي على التفكير بقيادة فرسـه نحو مركز الجيش العثماني مسـتعرضاً بذلك مستوى التفوق النفسي الذي حققه. صحح لي يا بيري باشا إن كنت مخطئاً.

- حاشا لله يا مولانا، فكل ما قلتموه صحيحٌ.

«لـذا، أقول لكـم إن عناصـر الإنكشـارية ممـن ربّتنا علـى ظهورهم باستمرارٍ في ظل شـعورنا بواجبنا تجاههم لا يرون - للأسف - حرجاً في الفرار مثل الأرانـب عندما يضطرون إلى ذلـك، تاركين سـلطانهم إلى قلةٍ قليلةٍ من خاصة جنوده. لذا، تذكروا أن من أنقذ كرامة الإنكشارية في ذلك اليوم لم يكن أيضاً سـوى رجل عجوز من الإنكشـارية وهـو قوجه خضر، ولو لـم تكن حملته المضـادة على العـدو وهو وحيد فـي الميدان مضرب مثلٍ يحتذى، لكان السـلطان قد وقع أسيراً أو شهيداً بين جنوده من فلاحي الأناضول وعبيد القصـر الذين تناقص عددهـم كثيراً. وفـي النهاية، تمكن الجيش من النهوض مجدداً، وانهزم الصليبيون. لكن مراد خان الثاني على الرغم من طبعه الرحيم كان في منتهى الغضب؛ إلى درجة أنه حاول إجبار جنود الإنكشـارية علـى ارتداء ثياب النسـاء في المراسـم، غيـر أن وزراءه أقنعوه بعـد ألف رجـاءٍ أن يتخلى عن رغبتـه المحقة. ولقد اسـتمرت هذه الطائفة التـي لا يوثق بها في سـلوكها ذاك، وفي إظهار سـوء أدبها في عهد جدي العظيم محمد الفاتح، فطالبت بمكافآتها بعد كل نصرٍ بقلب عربات التبن في طريق السلطان بطريقة خسيسة».

استغل بيري باشا صمت السلطان لحظةً ليشـرب عصير الكرز الذي يحبه كثيراً وقال:

- الحـق معكـم يـا مـولاي السـلطان. إن الطريـق الوحيـد للنجـاح ولضمان اسـتمراريته هو اتباع النظام بدقة. وطائفة الدوشرمة لديها ضعفٌ في هذا الخصوص. وقد ظهر هذا الوضع بسـبب المصاعب التي واجهت تحقيق الاندماج المطلوب بين الأتراك والمسلمين في بعض الفترات.

كانت هذه الكلمات كافيةً ليحبس كل من كان في المجلس أنفاسـه. فالعقول التـي كانت تحـوم لأعـوامٍ طويلةٍ حول هـذا الواقع الـذي لم يتم الحديـث عنـه بهـذا الوضـوح حتـى الآن تتجمـد اليـوم تحت أشـعة هذه الحقيقة التـي تعمي العيون. وسـاد المجلـس صمتٌ كالجليـد. أما أولئك

الذين كانوا يعرفون نية بيري باشا المستقيمة والشجاعة فلم يستغربوا هذا كثيراً. وانتقل بيري باشا إلى موضوعٍ آخر بهدوئه المعتاد وكأن شيئاً لم يحدث:

- وفي ما يتعلق بموضوع الأمراض التي يحتمل التعرّض لها في أثناء الحصار، والتي تحدثتم عنها قبل قليلٍ؛ فإن النظافة وحدها هي التي تحول دون ذلك. والجيش العثماني في مقدمة جيوش العالم من حيث النظافة والطبابة. ومع ذلك، إنّ استمراريتها ودوامها يكمنان أيضاً في النظام الخالص الذي لا يضطرب.

- أنت على حقٍّ يا باشا. ولكن، لا حاجة إلى تذكيرك بأن تكون أكثر حذراً في حديثك.

لم يُبعد بيري باشا نظراته الشجاعة عن السلطان. وبينما كان العجوز يتصرف على ضوء تجربته، بدا وكأنه يرى نفسه أساساً لا يمكن التخلي عنه. فقد عمل مع السلطان ياووز سليم خان أكثر من صدر أعظم؛ لقد كانوا ستة غير أنّ قوجه مصطفى باشا أعدم في أول عهد سليم خان في قضية الأمراء بتهمة وقوفه إلى جانب الشاهزادة أحمد، وأحمد باشا دقاقين أوغلو الذي تلاه مات طعناً بخنجر ياووز سليم نفسه في أثناء عودته من حملته على بلاد فارس بتهمة تحريض الإنكشارية الذين يثيرون الشغب دائماً خوفاً من حملةٍ جديدةٍ. ويونس باشا كان جندياً إنكشارياً قديماً، وأعدم أيضاً؛ لأنه في طريق العودة من حملة مصر عبَّر بجلاء عن استيائه من تعيين المصريّ خير بك بدلاً منه على ولاية مصر، وقال: «لقد تحملنا كل هذا التعب عبثاً، وهلك نصف الجيش في الرمال. ولو علمنا أننا سنترك مصر في أيدي الشراكسة هكذا لما تحملنا كل ذاك العذاب». ومن أجل ذلك أعدم. ولم ينج من الإعدام سوى سنان باشا (المخصي) سلف يونس باشا الذي سقط شهيداً في معركة الريدانية، ومات أحمد باشا هرسك زاده وفاة طبيعية بعد عزله، بعد أن أمضى خمسة أدوارٍ في

الصدارة العظمى من دون أن يتمكن من التأثير كما ينبغي في الجنود. وبذلك، كان بيري باشا أول صدرٍ أعظم ينهي هذه المرحلة الحرجة في منصبه من دون أن يعزل أو يعدم. ولا شك بأنه الآن يعيش نشوة هذا بحق، ومن يدري كيف ستكون نهايته لو أطال الله عمر سليم خان!

وتروى الحادثة التالية كدليل على أن بيري باشا لم يكن ليستمر طويلاً على قيد الحياة في هذا المنصب لو أن الحياة امتدت بالسلطان سليم، فقد قال له السلطان حين عينه في الصدارة العظمى: «أنت المسؤول عن جميع الأعمال الإدارية. وإن تكاسلت وأهملت فاعلم أن الخلاص من بين يدي مجرد خيالٍ، وستضيق بك الدنيا، وتكون في الآخرة مسودّ الوجه من شدة العذاب. لا بد من ردع الظالمين. فلا تغفل، ولا تظن أن حالتك لن تعرف، فلي عيون في كلّ مكانٍ، وسأعرف بالتأكيد كل ما تفعله. عليك أن تعرض هذا الخط الهمايوني على وزرائي وقضاة العسكر، وليعلموا أيضاً أنهم لن يفلتوا مني. أنت الرقيب على أعمالهم جميعا، عليك ألا تتوانى أو تهمل. وليكن معلوماً لديك أنني لا أرضى بالظلم مثقال ذرةً!».

عندها، تململ بيري في أدبٍ، وهو يحس بثقل المسؤولية المرعبة الملقاة على عاتقه، وهمهم: «ما دمت ستقتلني في النهاية بحجةٍ ما؛ فليكن هذا اليوم قبل غدٍ، ولأتخلص من هذا الخوف!».

فرد عليه سليم خان بضحكةٍ قاسيةٍ وهو يقول: «هذا ما فكرت به أيضاً، لكنني لم أجد من ينوب عنك بعد».

تابع سليمان حديثه عن حصار بلغراد: «ولنتذكر حصار بلغراد الثاني...» وحانت من أورخون جلبي التفاتة نابعة من إحساس داخلي غامض باتجاه إبراهيم البرغالي. كانت عيناه لا تفارقان بيري محمد باشا، وعضلات فكه السفلي تتحرك قليلاً، وبدا لي البرغالي في صورة ضبعٍ أدرك ضعف فريسته، ومرت على شفتيه ابتسامة تكاد لا تظهر، أو

- وصل السلطان الفاتح محمد الثاني في 13 حزيران 1459م إلى محيط بلغراد بجيشٍ مؤلفٍ من مئةٍ وخمسين ألف جنديٍّ ومئتي سفينةٍ، وثلاثمئة مدفعٍ. لقد صُدِم البابا والاتحاد الصليبي الذي يدعمه بانتقال القائد الذي يرتجف العالم أمامه رعباً إلى المنطقة. فتحرك جيشٌ صليبيٌّ على وجه السرعة نحو بلغراد، وتمكن من دخول بلغراد بهجومٍ مباغتٍ وقويٍّ بعد كسر الحصار. وعلى الرغم من كل ذلك الدعم؛ وفّق جند الفاتح في دخول القلعة في الثاني من تموز. إنني أتخيل دائماً كم كان جدي في تلك اللحظات سعيداً بذاك النصر المبين. لكن، لم يكد يمضي وقتٌ طويلٌ حتى وقع الجنود في كمينٍ داخل القلعة؛ لأنهم انهمكوا في جمع الغنائم، وعصوا الأوامر، فانقضّت عليهم الوحدات المنظمة في هجومٍ مباغتٍ منظمٍ، فتشتت الجنود، وأدرك جدّي أن العودة لم يعد منها مفرٌّ، وكان على رأس القوات الخاصة التي نجحت في صد الهجوم، والنجاة من نقطةٍ حرجةٍ جداً كان من الممكن أن تحطم هيبة السلطان الفاتح محمد خان، بل كان يمكن أن تقضي عليه. وفي النهاية، إن قائداً مثل الفاتح في أوج هيبته انزعج من الفوضى التي تسبب بها الجيش الإنكشاري، وقرر رفع الحصار في يومه الخامس والستين. عندها، شعر البابا كاليتوس ترتيوس بفرحٍ شديدٍ نتيجة نجاح الهجوم المعاكس، وأمر

بأن تقرع أجـراس الكنائس في وقـت الظهيرة على غير العـادة. ومنذ ذلك الحين ونحن نترقب الوقت المناسـب لفتـح بلغراد. والحمـلات الصليبية التي تشنّ حتى اليوم على أرض الإسلام، ولا تبقي فيها حجراً على حجرٍ، ولا رأساً على رقبةٍ، كان يقودها غالباً ملوك المجر الأرذال. ولا بد من يومٍ يسـألون فيه عما فعلوه، وسـأكون ذلك الشـخص المحظوظ الذي سيفعل ذلك إن شاء الله.

عـاود بيـري باشـا تكـرار تلـك الحقيقـة التـي لـم يـرق للحاضرين سـماعها: «إن عناصر الإنكشـارية قد أزعجوا سـليم خان أيضاً في حملته علـى بـلاد فـارس ومصـر يـا مـولاي. ومقابـل ذلـك، نـرى أن شـجعان الأناضـول الأتـراك بطبعهم الأنيـس المطيع كانـوا بعيدين إلى حـدٍّ ما عن اضطراباتٍ كهذه!».

أجابه سـليمان خان: «أيهـا الباشـا، إن جيش الإنكشـارية هو ضمانة السـلاطين العثمانيين، وضمان بقاء سـلطتهم فـي وجه قوة أمـراء تركمان الأناضول ونفوذهم. ووجود الإنكشـاريين ضـروري ولازمٌ لوحدة الدولة ولـدوام السـلطنة، لذلك هم دائمـاً مرفوعو الرؤوس. المسـألة ليسـت في النظام كما قلتم، بل في عدم مبالاة القائمين على تفعيل النظام».

ثم دار سـليمان خان نحوي بحركةٍ مفاجئةٍ مبديـاً انزعاجه من تكرار هذا الموضوع، وأحسسـت بدقـات قلبي تتسـارع كمـا لو أنني أقـف أمام سـليم خـان: «سـأبحث معـك مسـائل الأمـن الداخلي بعـد المجلـس يا أورخون أفندي». وبما أنـه كان يولي أهميةً كبيرة لسـرّيّة هويتي كما أعلم؛ لم يكن يزعجني التصرف وكأنني لست سوى كبير الحراس عنده: «أمركم على رأسي يا مولاي السلطان».

لم يدم اجتماع المجلـس طويلاً بعد اتخاذ القـرار بالتحرك، وأثارت الجميع فرحة الفتوحات والحملات الجديـدة على أوروبا بعد توقفها زمناً طويلاً. خرج الجميع باستثناء إبراهيم البرغالي، وبادرني سليمان خان فور

خروجهم قائلاً:

«عليك بالخروج هذه الليلة فوراً إلى بلغراد مع فرقتك. إن المعلومات التي ستتوصل إليها ستلعب دوراً كبيراً في هذا الفتح يا وهيمي أورخون أفندي. أنتظر أن تصلني منك معلومات عن النقاط الضعيفة في المدينة وأسوارها في أسرع وقت. كما أنتظر منك نجاحاً لا يترك لجيشي عملاً كثيراً عندما يصل إلى أسوار بلغراد. يجب ألا يتوقف جيشي كثيراً أمام أسوار المدينة، وعليك أن تحل هذه المسألة، واطلب مني بعد ذلك ما تشاء».

- لا أرجو إلا دعاءكم يا مولاي السلطان. يكفي أن يدعو السلطان لشخصٍ أو بلدةٍ حتى تنزل بها الرحمة والبركة.

أمسك سليمان خان كتفي وهو يضحك: «هيا، أرني ما ستبذله من جهد يا أورخون أفندي».

II

14 أيار 1521م، يوم الثلاثاء

«إنه وقت السرور يا مهتار باشي! هاي! هاي!». دقّت الطبول ثلاث مراتٍ على أصول صوفيان، ثم تقدّم مهتار باشي ووقف أمام رجاله. كان شارباه المفتولان يكادان يلامسان أذنيه. أمّا حاجباه فمتلاصقان، وطلعته مهيبة، وقد وضع يده اليمنى على صدره في تحيةٍ عسكريةٍ لفرقته الموسيقية: «مرحبا يا فرقة المهتران». فرددت الفرقة التحية جماعياً وبالطريقة نفسها: «مرحبا يا مهتار باشي!». ثم ساد الصمت وكأن الأرض والسماء قد تحولتا إلى صخر أصم، وكسر جدار الصمت ذاك صوت مهتار باشي الذي بلغ عنان السماء: «الله الله، الجليل الجبار، المؤنس الستار، خالق الليل والنهار، ذو الجلال، الله الواحد! على روح نبينا رسول الأنبياء، جناب أحمد المحمود المحمد المصطفى...» وعندها انحنى الجميع قليلا وأيديهم على صدورهم في وضعية الاحترام: «.... وعلى أرواح الإمداد المعنوي أولاد الرسول، وعلى أرواح الأولياء والمرشدين، والعشاق، والواصلين، والقراء، وأهل القرآن، وحملة القرآن، وجميع أهل الإيمان، ومن أجل نجاة خليفة الإسلام؛ السلطان ابن السلطان، وبالجملة أهل الإسلام، وعلى أرواح الأولياء، والثلاثة، والسبعة، والأربعين... فلنقل: هو هووو..». قرعت الطبول ثلاث مرات مع انطلاق الأبواق، وكررت بعد ذلك فرقة المهتران تسع مراتٍ: هو هووو، ثم ضَرَبت الطبل الضخم المحمول على العربة (لوس) ثلاث مرات.

«أعوذ بالله، أعوذ بالله... الشكر لله وحده، لا إله إلا الله! الملك الحق المبين! محمد رسول الله صادق الوعد الأمين! إنا فتحنا لك فتحاً

مبينا، وينصـرك الله نصراً عزيـزا! أيها السـلطان، يا خليفة اللـه، لكم عون الله! أنتـم حارس الديـن المبين، حارس شـريعة اللـه! فتح اللـه عليكم يا سلطاني! جعل الله سـيفكم بتاراً، ونوركم مديداً! وأسعد بكم روح رسول الله فخـر العالميـن، وبـارك الحق غزوتكـم الكبـرى، وأسـعدكم...». ثم تلا أحد قادة الوحدات بصـوتٍ جميلٍ قولـه تعالى: ﴿نصرٌ مـن الله وفتحٌ قريبٌ وبشـر المؤمنين﴾. توقفٌ قصيرٌ بمقدار قول كلمة الله ثلاث مراتٍ، انطلقت بعـده دقات خفيفـةٌ وسـريعةٌ على الطبـول، وعزف علـى الآلات الموسـيقية مجتمعةً انتهـى مع صيحـات الله، اللـه ثلاث مرات مـن أفواه الجموع، وعلا النشيد الجماعي: «على يده دمٌ، على سيفه دمٌ، صدره عارٍ، وقلبه نار. حقدنا وغيظنا يؤذيان الأعداء! يا رحمن!... يا هو... هو».

ثم علا صـوت مهتار باشـي وهو يقـول: «اسـتعداد» محـدداً بنغمته مقام العزف «يـا الله !». وبدأت مراسـم تحية سـلطان المسـلمين من قبل الجنود. وهكـذا، بدأت وحدات الجيـش التي يضم كل منها خمسـين ألفا من الجنود المنتظمين تمرّ أمام السـلطان فرقة فرقةً، وكتيبة كتيبة، بالألبسة النظيفة، والأسـلحة الفخمـة، والمدافع التي تهـدر كالرعد، متخـذةً طريق الديوان السـلطاني نحو أدرنه، مـن دون أن يرتبـك تنظيمهـا العظيم لحظةً واحدةً، وسط حشود الشـعب المكتظة في سـاحة الخيل. من جانبٍ آخر، كان سليمان خان جالساً على عرشه بهدوء بين حرّاسه الخاصين من الرماة العُسر ذوي المظهر المهيب، في نظام يليق بالجيش الذي يشعل الحماسة في النفوس، وقد بدأ يهب على مقره هواء الربيع المنعش.

كنت أنـوي لقاء السـلطان فـي أدرنه لأقدم لـه تقريـري، لكنني حين علمت أنه ينتظر اسـتكمال بعـض النواقص جئـت إليه في إسـطنبول. بعد انتهاء المراسم، رأيت آغا دار السعادة حسن أفندي يتقدم نحوي بخطواتٍ مثابرة والجمـوع تتفـرق، ومـن دون أن يعيـر تبديل لباسـي أهميـةً – ولـم يكن فـي ذلك حرجٌ لأنـه لم يكـن يرتـدي ثيابه الرسـمية أيضـاً – أخبرني

بأن السلطان ينتظر دخولي عليه، وقال لي حسب الأصول: «تعال معي». سرت خلفه تاركاً بيني وبينه مسافة أمانٍ، وبعد الصعود نحو القصر القديم، عاد فجأةً وانحرف نحو الشارع الممتد إلى السوق المسقوفة عبر تشامبرلي طاش، واختلطنا بمجموعةٍ من التجار، وتقدمنا بصمتٍ.

في الطريق الضيق المعبد بالحجارة خلف السوق المسقوفة، تيسر أمرنا حين التقينا قافلة من عشرة جمالٍ، وعلى كل جملٍ أربع خوابٍ مليئةٌ بسمن طرابزون. وبينما كان صوت لهاث الجمال يتردد صداه بين الجدران الصماء، سمعتُ أصداء جدالٍ حادٍّ على بعد أقدامٍ أمامنا. لا بد أن هذه الأصوات تأتي من دكان صورٍ يتجمّع أمامه حشد من الناس. وإذا كان هناك من يتعقبنا، فإنه بالتأكيد قد أضاع أثرنا في هذا الزحام. تدخلت سريعاً بين اليهود بأنشوطاتهم الحمراء والروم بقبعاتهم السوداء، وفصلت بينهم، وتابعت السير وعلى وجهي علامة دهشةٍ، ففي المدة الأخيرة كان اليهود والروم يتعاونون ضد الكاثوليك الذين قل عددهم كثيراً، ومن المحتمل أن ذلك التوتر يعود إلى هذا السبب.

كان حسن أفندي يتحرك بسكينةٍ وراحةٍ وكأنه واحدٌ من عامة الناس، ولكن بخطواتٍ سريعةٍ، حتى إنه توقف لبرهة لمشاهدة الجدال، وبحث في البسطات بدقةٍ، وقلب النظر يمنةً ويسرةً وهو يبحث عن شخصٍ يسأله عمّا يحدث.

وبعد جهدٍ خرجنا من بين الجموع، ووصلنا إلى جدران القصر التي تقع بمحاذاة البحر جنوباً. كان الجو يبدو ساكناً وبارداً بسبب الاقتراب من البحر، وهبوب هواء معتدلٍ وباردٍ. اقترب حسن أفندي من أسوار القصر فجأةً، وفي خطوةٍ غير مفهومةٍ، وبعد أن تلفت حوله وكأنه يريد الهروب، غاب فجأةً في الجدار. حصل ذلك في لحظةٍ خاطفةٍ، وحين أدركت أن هناك ممرّاً سرّيًّا، كان عليّ أن ألتقط نفساً عميقاً قبل أن أسترد برودة أعصابي مجدداً!

III

تحت أضواء القناديل الحالمة، كنت أجلس أمام العرش المصنوع من خشب الجوز والمزيّن بمجوهرات لا مثيل لها والمرصّع بالعاج والمغطّى بالذهب.

قال السلطان سليمان:

- إن كان ما قلته صحيحاً فلن يصمدوا كثيراً.

- لا، لن يصمدوا يا مولاي السلطان.

- إذاً، هل حدّدتم كلّ نقاط الضعف في القلاع الحامية للمدينة؟

- حدّدناها يا مولاي السلطان.

- إذاً، لديك الآن ثلاثة عشر رجلاً يتوغلون داخل صفوف العدو.

- لقد نقلنا سجلات التعميد في الكنيسة، بل إننا نقلنا سجلات خمسة أجيالٍ من العائلات يا مولاي السلطان.

- كيف أنجزت هذا العمل الكثير في زمنٍ قصيرٍ يا أورخون جلبي؟!

- إنه أمرٌ صعب يا مولاي السلطان، لكنه ليس مستحيلاً. فكما تعلمون، لقد هزّت الحروب الداخلية بلغراد، وضعفت السلطة المركزية كثيراً بعد ماتياس كورفينوس، وانتشرت الرشوة وتجاوزت حدها الأقصى. وتعرفون أيضاً أن بداية مسيرة الهلاك والفساد هي نفسها لدى الحضارات كلها، وارتكاب الفواحش كان سبباً لانهيار جناحي روما معاً بسرعةٍ كبيرةٍ. لقد انتقل إلى قسطنطين الحادي عشر العادل - الذي حكم القسطنطينية في المرحلة التي سبقت فتحها على يد الفاتح محمد خان، جعل الله الجنة مكانه - إرثٌ عرف منذ أيام ولايته الأولى عليه مدى صعوبة توليه. ولما كان الموظفون يعينون في المناصب حسب انتفاخ

جعبهم بالمال، لا بناءً على مؤهلاتهم، فإن قدرة السلطة المركزية قد زالت من الوجود، ولم يعد من الممكن التدخل في تغييرها بالقوة، فالفوضى التي تنشأ بعد ذلك لا تهدأ إلا بابتكار مناصب ووظائف جديدة وتوزيعها على أولئك الموظفين.

ارتسمت البسمة على وجه سليمان خان وهو يقول:

– لم يكن لدى البيزنطيين أسطولٌ يستحق الذكر. ولكن كانت لديهم مناصب أميرالية عليا. إلا أن عدد الجنود في إمرتهم لم يكد يبلغ طوابير قليلة من جيشنا.

– إن أشد ما أضحكني يا مولاي السلطان هو لقب وكيل خزانة الألبسة الإمبراطورية.

ضحكنا مدةً طويلة قبل أن نتمكن من استعادة السيطرة على نفسينا، وبدا لي أن السلطان الشاب قد تخلص قليلاً من توتره بسبب حربه الأولى التي اقترب موعدها، فتابعت الكلام وأنا أريد تكريس هذه الحالة:

– لم يكن الإمبراطور وحده من يعلم أن «محمد» الثاني خان سيسدل الستار على ذلك الفساد المستشري، بل كان شعبه أيضاً يعرف ذلك. وتولدت لدى الجميع حالةٌ من الرضى الخفي بالإدارة العثمانية العادلة. والآن، أرى يا مولاي أن الشعب المجري قد سئم من الفوضى الداخلية، وينتظر حكماً جديداً يجلب إليه الاستقرار. فالناس يبحثون عن راحتهم، ويفكرون في مستقبل أطفالهم، ولا يمكن أن يكونوا مذنبين من أجل ذلك. فلا تقلقوا، ولا تحزنوا، إننا في موقع الذروة من القوة في تاريخنا العثماني المديد، والإرادة في استمرارها موجودة في شخصكم، وكلّ من يحظى بفرصة النظر إلى وجهكم وعينيكم لا بد أنه سيلحظ القوة الروحية التي تملكونها.

لم أشعر بالانكسار حين رأيت في عينيه علامات الاستفسار، فهو السلطان، ويدرك أن كل من يحوز على ثقته يمكن أن يتزلف إليه ويقع في

المبالغة والإفراط، فتابعت الحديث:

- بموجب طبيعة العمل الذي أقوم به يا مولاي، تكونت لديّ الخبرة والفراسة اللتان أميز بهما الرجال، ويمكنكم الثقة في حكمي عليكم.

أحسست بالراحة تعلو محياه وهو يقول:

- كما قلت يا أورخون جلبي، إن أي دولةٍ تنتشر فيها الرشوة يمكنك أن تفعل فيها ما تشاء. نعم، أنت محقٌّ، فالمجر ضعيفةٌ، ولا فرق بينها وبين رجلٍ عجوزٍ يتسلى بذكريات الماضي. أما أنت، فإنك عيناي اللتان أرى بهما في بلاد الكفار، ويدي التي أمسك بها، وأنت سيفي الخفي... لم يخطئ أبي حين وثق بك، وأنا أثق بك الآن، فلا تبال برأي أحدٍ فيك...

كان بجملته الأخيرة يقصد إبراهيم البرغالي، فأثارت هذه الكلمات في داخلي رياح الثقة بالمستقبل وقلت مبتسماً:

- العبد يبني، والقدر يضحك يا مولاي. إنني أؤدي فقط الواجب الذي استودعني إياه أبوكم حضرة ياووز سليم خان، ومهما دعونا لياووز خان فإن ذلك لا يفيه حقه. فقد ترك شجرة دلبٍ عظيمة مثل بيري محمد باشا، ودولةً تهز العالم بنظامها وقوتها.

لقد أدرك ما أريد فعله، فهمهم في أدبٍ: «اطمئن!». ثم استند إلى الخلف، والتقط نفساً عميقاً، وارتشف القليل من شراب الكرز من كأسه البلورية التي قدمها له الآغا. إن سلوكه الذي يحمل الكثير من السرية قبل قليلٍ كان يثير امتعاضي: كيف يضطر إلى الهمس في قصره وهو حاكم العالم؟! استأنف السلطان حديثه مركزاً على شارلكان هذه المرة:

- إن أسرة هاسبورغ النمساوية هذه التي ينتمي إليها شارلكان... (وكأنما استدرك فقال) في البداية، أخذ شارلكان تاج ألمانيا التي تمثل كونفدرالية الدويلات الألمانية بالزواج، فأصبح وريث دولةٍ غنيةٍ بزواج ماكسيميليان الأول من ماريا الوريثة الوحيدة لتشالرز دوق بورغونيا التي كانت تضم أيضاً بلجيكا وفلندر. أما ابنه فيليب الوسيم فقد فعل

ما هو أفضـل، حيث ورث مُلْك إسـبانيا بزواجـه من ملكة كاسـتيليا جوانا المجنونة.

- إن هذا النمو المباغت مهمـا بدا جالباً للوحدة دليـلٌ على بنيةٍ غير سليمةٍ يا مولاي السلطان.

- أنـت علـى حقٍّ، ولكنـه رغم ذلـك يشـجع مخاطبينـا علـى الثقة المتزايدة يوماً بعـد يومٍ. إن شـارلكان في موقفٍ قويٍّ بعد الكشـوفات في القارة الأمريكية والموارد غير المتناهية التي حصلوا عليها. نعم، إن اتصال المجر الآن بالبحر الأسـود مقطوع، والقنـوات التجارية علـى الأدرياتيك تخضع لتهديد التجار البنادقة؛ واحدةً تلو أخرى.

- إن الـدول التـي لا تطـل علـى البحـار تبقـى إنجازاتها العسـكرية محدودةً دائماً يا مولاي السلطان.

- ولاجـوس الثاني يعـرف هذا، ولا بد لـه أن يفعل أي شـيءٍ مقابل بقاء ممرات الأدرياتيك مفتوحـة. ولو اختار القرب منـا والهدنة لما خاب أمله.

- مولانا، لا يود شارلكان أبداً أن يتخلى عن ألعوبةٍ مثل لاجوس.

- لقـد فضلنا الصلـح على القتـال دائمـاً. ولكن، للأسـف لا بد من التحـرك مـن أجل جيـشٍ كبيـرٍ يعيـش على حلـم الحصـول علـى الغنائم كجيشـي. وإذا كان لاجوس ألعوبةً بيد شـارلكان في سـبيل السـلطة، فإنه بالنسبة لي لا يمكن أن يكون سوى لعبة حربٍ فقط.

اتكأ نحو الخلف، وارتشـف من شـراب الكرز المفضـل لديه تحت أضواء القناديل المشـعة، وأحسسـت في داخلـي بالتناقض بيـن ظاهر هذا الشـاب اليافع وتوحده. ليتني كنت في عمر أسـتطيع فيه مسـاندته من دون أن تفارقـه عينـاي أبـداً. لكنني بلغـت الأربعين مـن عمري، ويـكاد هو أن يبلغ السادسة والعشرين. وليتني كنت أعرف سـر ارتياحه تجاه ذاك الرجل الغامض فـي تصرفاتـه؛ إبراهيم البرغالـي. ولا أنكر أنني كنـت أرى تحت

هذا المظهر الطفولي للسلطان سليمان بريق والده سليم خان الذي تعشى له العيون. وعلى الرغم من كل هذا، كان علي أن أفعل كل ما أستطيع فعله حتى أحول دون المكائد التي ينسجها البرغالي ضد الدولة والسلطان. وأفضل وسيلة في سبيل تحقيق ذلك هي مراقبته من بعيد. وتشكيلاتي قادرة على ذلك، ولو علم البرغالي بهذا لما استطعت إنقاذ رأسي.

لقد أحسست منذ اليوم الأول بشعوره بالقلق من وجود شبكةٍ كهذه، وقد تأكدت مراراً أنه يرانا عقبةً يمكن أن تعرقله مستقبلاً. وكان يبدو لي أنه في أوّل فرصةٍ تسنح له سيعمل على تصفيتي بكلّ ما أوتي من قوةٍ... على أي حالٍ، كان الوقت مبكراً لمثل هذه الأفكار. ونحن الآن أمام هدفٍ مشتركٍ: إنها بلغراد.

- إن مجالستك طيبة يا أورخون جلبي. سأغادر العاصمة في الثامن عشر من الشهر، ولكنني سأتفقد قبل ذلك الجامع الذي بدأ السلطان سليم خان بإنشائه، والذي يُطل على الخليج، وسأعطي تعليماتي إلى علي عجم حول أقسامٍ إضافيةٍ أفكر ببنائها، ثم سأتولى قيادة قواتي المرابطة في حلقة بينار بعد الدعاء لله عند المزارات المباركة. وقد عينتك قائداً للفرقة الخاصة لترافقني، ولا تحرمني من مجالستك، ولتروي لي عن مغامراتك في البلاد الأجنبية.

أحسست بسعادةٍ كبيرةٍ، وقلت:

- إنها متعةٌ لي، وفضلٌ منك علي يا سيدنا. وهذا الأمر مفيد أيضاً.

* * *

غير أن اللعبة طالت أكثر مما كنا ننتظر، فقد فاض نهر مريج بسبب أمطار الربيع، وحول ضفتيه إلى مستنقعين، فشكل ذلك مصاعب في وجه عمال الاستحكامات والحواجز. وثارت مشاكل أمنية غير متوقعة في آخر مركز رفدٍ للجيش؛ في صوفيا. فقد كانت في صوفيا جماعة نصرانية أعلنت انفصالها عن الكنيسة الأرثوذكسية، وأغلقت في الوقت

نفسه أبوابها أمام الأفكار اللوثرية، وتمردت هذه المجموعة على السلطة المركزية في صوفيا، وبدأت بضرب طرق الإمداد. وكان الوقت يمضي فيما الجيش منشغلاً بمكافحة هذه العصابات الصغيرة؛ فالذبابة وإن كانت صغيرةً فإنها تثير الغثيان. ومع ذلك استطاع الوزير الثالث الداماد فرحات باشا أن يلتحق بالجيش قادماً من الأناضول، ومعه ثلاثة آلاف ناقةٍ محملةٍ بالبارود والرصاص، وإمداداتٍ أخرى. وفي الطريق، تعرض لهجماتٍ كثيرةٍ باءت بالفشل، ولم يقبض على أحدٍ حياً سوى بعض من لا قيمة له.

في تلك الليلة من أول حزيران، استدعى السلطان سليمان خان إلى خيمته فرحات باشا وقال له:

- جئت بحمل ثلاثة آلاف ناقةٍ من الإمدادات، ولا يزال في الطريق حمل سبعة وعشرين ألف ناقةٍ كما تقول. وأعلم أنك تدرك ما قد يلحق بالقافلة في الطريق، فلماذا لست على رأس القافلة يا فرحات باشا؟ ألا تعلم أن أي خسارةٍ كبيرةٍ يمكنها أن تلحق ضرراً بالغاً بالحملة؟! فكما تعلم، حين حاصر جدي مراد خان الثاني بلغراد وقع في العجز عندما طال الحصار. كنا قد تحدثنا حول هذا قبل الحملة.

- مولاي السلطان، كان جيش مراد خان الثاني ضعف هذا الـ...

صرخ فيه سليمان خان قائلاً: «اسكت! إننا نتوقع الخير دائماً، لكننا نتصرف كما لو أن أسوأ شرٍّ سيقع، وإلا فكيف ستكون حالنا؟ هكذا يتصرّف سليمان خان، ويجب أن تعتاد على هذا.

- مولاي السلطان، إن جيشنا ذو خبرةٍ في حرب الحصون، ومدافعنا وأفيالنا المدرعة تشكل قوّةً لا تقاوم...

- اسكت يا باشا. إن الإنسان يجب أن يفكر دائماً، ألا تعرف هذا وقد بلغت سنك هذه؟؟!

أحنى فرحات باشا رأسه في أدبٍ، وعلى وجهه ملامح الارتباك: الفرمان لمولانا.

- إن كونـك زوج أختنـا السـلطانة بيهـان لا يعطيـك امتيـازاً، فانتبه لتصرفاتك.

بقيادة أحمد باشا الأرناؤوطي، صدرت الأوامر للتجمعات السكانية المحيطة بتسـليم عشـرة آلاف عربةٍ من الطحين والشـعير، ودفعت أثمانها كاملة حسـب الفرمان، والتزم العدل، وتم تجنّب الظلم. وتحرك الأسطول الخفيف المؤلف من خمسـين سـفينةٍ في الدانوب لحماية مؤخر الجيش، ونُقل قسـم من الجنود، وتمّ إعداد الاسـتحكامات في الخلف تحسباً لأي تراجـعٍ فـوريٍّ، ولإنشـاء مسـتودعات أرزاقٍ. وهكـذا، كان الوزيـر الثاني مصطفى باشـا بتجاربـه القديمة وخبراته يعمـل على أكمل وجـهٍ، وما كان ليخيّب آمال من يثقون به.

في الثاني من شـهر رجب، السـابع من حزيران 1521م، نزل الجيش في فيلبيه، ونصبت خيمة السـلطان خارج المدينة علـى الرغم من الأمطار الغزيرة. لـم يفارق السـلطان جنـده، فأصبحـت معنويـات الجنـود عالية، وانتشـر الجيـش على السـفوح على شـكل مدينـة من خيـامٍ بيضـاء نظيفةٍ حسـب ترتيبات وحداتهم. كانت مدن الخيام في مقـرات الجيش العثماني عـادة عميقة الجـذور، لا يختـل نظامهـا أبـداً، ولا يمكن لمـن يبحث عن خيمتـه في ظلمـة الليـل أن يضل مطلقـاً. وبفضل هـذا النظام، لـم يحدث ارتباكٌ قطّ في التقدم أو التحميل أو النزول.

كان السنجق الخاص بسـليمان خان أبيض وعليه الطغراء الهمايوني ومزخرفاً بماء الذهب، وكان يرفرف عالياً أمـام الخيمة الكبيرة، فيما يحيط بالخيمـة جنـود القـوات الخاصة علـى عادة آسـيا الوسـطى. كانـت خيام الوزراء والقادة والألوية تختلف أحجامها باختلاف رتبهم، وكانت الرايات الحمـراء التـي يحملها غلمـان القصر مـن الفرسـان، ورايات الإنكشـارية الخضـراء، والرايـات الحمـراء والصفراء ترفـرف بوقار في جو المعسـكر الرطب.

عقد مجلس الحرب بأمر من السلطان في ساعة متأخرة من الليل. افتتح المجلس بحديث شكر وجهه سليمان خان للحضور، واستمر بثرثرة إبراهيم البرغالي الذي تحدث قبل بيري محمد باشا خلافاً للتوقعات. وفي النهاية، حان دور أحمد باشا بيلر بيي روم إيلي، فاقترح السير نحو بودين أولاً، فبودين موقع استراتيجي خطير، والسير إليها والاستيلاء عليها سيربكان العدو، ويحققان الهزيمة النفسية، ويمهدان لسقوط بلغراد. والمهابة التي سنحققها لن تمحى من ذاكرة أعدائنا أبد الدهر. وعندما رأى كبير مربي الصقور إبراهيم البرغالي ميل السلطان إلى هذا الرأي أخذ يدعم هذه الفكرة، كما لو أنه كان يفكر بهذا الأمر منذ سنوات. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التفكير خاطئاً، فأي ضربة تنزل على قلب المجر ستجعل نهضتهم والتقاطهم أنفاسهم مجدداً أمراً بعيد المنال.

بعد تفكير عميقٍ، استقام سليمان خان في جلسته ببطء، وانحنى إلى الأمام قليلاً وقال: «نعم، إن الاستيلاء على المجر في لحظةٍ واحدةٍ، وفي ضربة واحدةٍ سيكون سبباً في فقدان شارلكان صوابه خوفاً وفزعاً. وعندئذ سوف يتخلى عن كبريائه، وسيشعر بالخوف من أن يجدني يوماً وسيفي المسلول بيدي واقفاً عند رأسه وهو في فراشه من دون سابق إنذار!».

لكن بيري محمد باشا بدأ حديثه محذّراً من مخاطر ترك قلعةٍ هامةٍ مثل بلغراد، والمشاكل الخطيرة التي يمكن أن تنجم عن ذلك مستقبلاً فقال: «لكي نحتفظ ببودين لا بد من فتح بلغراد أولاً، والتفكير ببديلٍ آخر ليس سليماً يا مولاي السلطان». وتابع وهو ينظر إلى عيني سليمان خان: «إن كلّ خطوةٍ خاطئةٍ نخطوها في هذا الوقت سوف تدفع أوروبا نحو حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ. علينا أولاً أن نستند إلى جدارٍ متينٍ، وذاك الجدار هو بلغراد. وكل ما عدا ذلك من أفكار ليس له محل من الاعتبار».

فكر سليمان لحظةً، لم يكن يُسمع في الخيمة خلالها صوتٌ سوى صوت الريح التي تداعب حبال الخيمة الأفغانية، وقماشها المنسوج من

القطن على طبقتين، ثم قال: «سمعتم بيري باشا، فما قولكم؟».

كسر مصطفى جوبان باشا جدار ذلك السكون العجيب في الداخل مؤيداً بيري باشا الذي يحترمه كثيراً، ولعله كان يعرف تفهم السلطان لهذا الموقف؛ لأنه ليس هناك أحد لا يكن الاحترام لخبرة بيري باشا الكبيرة. إلا أن عدم الرضى كان بادياً على وجه سليمان خان.

IV

وصلنا في الثاني من شهر شعبان، السابع من تموز 1521م، في ساعات ما بعد الظهيرة الحارة والرطبة إلى مشارف قلعة صباج. كان الجو مليئاً بالضباب، وكانت الغيوم الياقوتية تتكاثف مقتربةً في الأفق الغربي. وكانت قلعة صباج قد شيدت من قبل السلطان الفاتح محمد الثاني، بين عامي 1470–1471، وسيطر عليها المجريون عام 1476م.

رفض قائد القلعة سيمون لوغودين تسليم القلعة، وبدأت طلقات المدافع والسهام تنطلق منها. وفي هذه الأثناء، كانت الأنباء الواردة في 3 تموز عن سير بيري باشا على رأس عشرين ألفاً من قوات النخبة نحو قلعة زفلين المقابلة لبلغراد سارةً ومؤكدة. وإن لم يتوقف الجيش أمام قلعة بوغوردلان طويلاً، وتمكنا من شلّ المجريين وصد أيّ هجومٍ مضادٍ، فإن جيشنا بكل ثقله سيكون على مشارف بلغراد.

كان يبدو جلياً أنها تجربة البرغالي الأولى في الحرب. وكان وجهه الأبيض المكفهر الذي يسيل العرق عليه مثار شفقةٍ على حاله. كان يجفل دائماً في أثناء إطلاق نار المدافع والبنادق، ويبذل جهوداً ملحوظةً ليألف ذلك. ويبدو أن روائح البارود والدم والجثث المحترقة تثير غثيانه، وكذلك صرخات الناس الذين يواجهون الموت من دون رغبةٍ. إلا أنه بقدرته العالية على التكيف وذكائه كان يسيطر على نفسه خلال مدةٍ قصيرةٍ. كان إبراهيم البرغالي قد اقترح فكرة ردم الخنادق المحيطة بالقلعة بأسرع وقتٍ، وعندها لن تكون هناك حاجةٌ إلى بناء أبراج الحصار. وعلى الرغم من اعتراض الوزير الثاني مصطفى باشا، واعتباره أن ذلك سيكون مضيعةً للوقت، فإن الفكرة قد وضعت موضع التنفيذ بإرادة السلطان، وقد

ظهر أن البرغالي كان محقًّا قبل أن يمر وقتٌ طويلٌ.

مقابل اقتراح البرغالي، اقترح مصطفى باشا توزيع كامل الغنائم داخل القلعة على الجنود المرهقين من أجل تشويقهم. في بادئ الأمر، لم يستحسن السلطان سليمان هذا الرأي خوفاً من أن يظلم الجنود الناس، لكنه لم يشأ أن يتأخر كثيراً في الوصول إلى بلغراد، ولذلك قبل بهذا الرأي.

ونتيجة لذلك، كانت الخطتان مفيدتين، ولم يكن فقدان مصطفى باشا لمكانته في مصلحتي. فقد أثارت فكرة الحصول على الغنائم حماسة الجنود، فهاجموا القلعة بسلالم خشبيةٍ وحبالٍ هجوماً لم يترك للمدافع مهماتٍ كثيرةً. كان سليمان خان مصمماً، واستطاع الجنود العبيد الذين زحفوا نحو أسوار القلعة في كتلٍ بشريةٍ، يليهم جنود الإنكشارية، تسلق أسوار القلعة المتهالكة التي بدأت تتهاوى منذ الموجة الهجومية الأولى. وبدأت الرايات العثمانية الخضراء والحمراء والصفراء ترفرف على أبراج القلعة.

وقع قائد القلعة سيمون لوغودين في قبضة مجموعةٍ من جنود الإنكشارية، وأعدم فوراً وعُلّق على أحد الأبراج. كما أعدم المحاربون المجريون الذين هربوا إلى الأقسام الداخلية، حيث ألقي القبض عليهم، وتم إعدامهم من دون أي محاكمة. وعندها، قرر قادة الوحدات الكبار والباشاوات الذين كانوا يسيرون بين مئات الجثث المتجمعة على الأسوار وعلى أطراف الطرقات أن يبلغوا سليمان خان أنه لم يبق في الداخل من يحمل السلاح.

في الصباح التالي، وبينما كان السلطان يلج القلعة مع حاشيته، كانت عيناه تتأملان الدم والخراب، وهو يشعر بحزن وألم شديدين. وقال مخاطباً وزراءه وقادته: «إن هذه القلعة أول قلعةٍ أفتحها، وعليكم إعادة إعمارها!».

* * *

وصلنا إلى نهر ساڤا في السابع عشر من تموز. وفي هذا الموقع، وصل طلاب مدارس أدرنه وفيليبه وصوفيا إلى مقر القيادة راغبين في الاشتراك في الحرب، فسر بهم السلطان سروراً كبيراً، وكلف كل واحدٍ منهم بخدماتٍ يقوم بها خلف القوات.

وكان ساڤا نهراً عريضاً فاضت مياهه فشكلت مستنقعات قرب بلغراد. وكان لا بد من تشييد جسر، غير أن فصل الصيف الماطر هذا العام جعل من نهر ساڤا - كما هي حال المياه الجارية في المنطقة كلها - نهراً هادراً. ولمّا كانت المستلزمات المتوفرة لدى وحدات الهندسة غير كافيةٍ، والمعونات والعوامات التي كان الأسطول الخفيف ينقلها قد دخلت برزخ الدانوب، وغرقت بسبب أعمال العدو التخريبية وهيجان النهر، لم يكن هناك مفرٌّ من إنشاء جسرٍ من جذوع أشجار الغابات القريبة. عند هذه النقطة، عاد رأي أحمد باشا الأرناؤوطي بشنّ حملةٍ على بودين إلى جدول الأعمال، وأتذكر كيف انزعج بيري باشا من ذلك، لكنه استطاع أن يحافظ على صمته طويلاً إلى أن حلّ الظلام. فبينما كان يتجول في فسطاط السلطان سأل بيري أحمد باشا: «لماذا إصرارك هذا يا أحمد باشا؟!».

لا زلت أتذكر كيف أطرق الوزير الثاني مصطفى باشا برأسه نحو الأرض، ولن أنسى طيلة حياتي كيف احمر وجه أمير سمنديرة خسرو بك خجلاً ودهشةً، وكيف انتابته نوبة سعالٍ وهو يحاول تنظيف حنجرته. أما بيلر بيي الأناضول قاسم باشا فقد ركز عينيه المدهوشتين على يديه وكأنه يراهما لأول مرة. أما البرغالي، فإنه كان يفكر في كيفية خروجه من هذه المواجهات ظافراً أكثر من غيره، وكانت عيناي لا تفارقانه، وكانت نظراتنا تلتقي أحياناً في الفراغ، وعندها كنت أشعر بالقلق المدهش الذي يحس به. كان بيري يقول:

- إن بودين من دون شك هدفنا الأخير الذي سنسير إليه، لكن

الإصرار على هذا الآن أمرٌ مريبٌ.

رد عليه أحمد باشا بكثيرٍ من الارتباك:

- ماذا تريد أن تقول يا بيري باشا؟!

- إن كنت مصراً فإنني أستطيع أن أتكلم يا صديقي.

- الكلمة الأخيرة لمولاي السلطان.

- بالتأكيد، ولكن...

- يا بيري باشا، أنت لا تعرف كم هو جامح وغدارٌ نهر ساڤا، إنه بريءٌ براءة الأطفال الذين يلعبون على ضفتيه حين يكون هادئاً، لكنه يتحول إلى وحشٍ مفترسٍ حين يهيج، فيفيض ويجرف ما حوله، ولا يبقى من براءته القديمة أثرٌ، فتحسب عندها أنك في مكانٍ آخر وزمان آخر، وأن هذا النهر ليس ذاك النهر... وبناء جسرٍ هنا الآن سيستغرق منا على الأقل أسبوعاً، وبالتأكيد لا بد من بناء هذا الجسر لنتمكن من العبور، ولذلك يمكن أن نترك طابوراً صغيراً للقيام بهذه المهمة، فيما يسير بقية الجيش لحصار بودين...

- أتظن أن المجرمين لن يعرفوا ذلك يا أحمد باشا؟ إن لاجوس صغيرٌ، لكنه ليس أحمق، وإلى جانبه مستشارون خبراء، لا يمكن الاستخفاف بأحدٍ منهم. وعلى الأخص وكيل مجلس الحرب لاسزلو توكولي، هل من أحد بيننا لا يعرفه؟ إنه حقاً أستاذ في استراتيجيات الحرب. إن أي حركة نقوم بها تاركين بلغراد خلفنا يمكن أن تسبب الخسران المبين، وتعرض سلطاننا لتحطيم آماله في أول حملة يقوم بها، وستكون في ذلك وصمة عارٍ على دولتنا.

عند نهاية هذا النقاش الذي أصغى إليه السلطان بصبرٍ، تساءلنا جميعاً عن القرار الذي سيتخذه. كنا نعرف أنه يرغب في المسير إلى بودين، لكن بيري محمد باشا بتجربته القاهرة كان يمثل فينا صوت الحس السليم. لم يعد أحمد باشا الأرناؤوطي يستطيع التحمل، واحمرّ وجهه

البيضـاوي ذو البشـرة البيضـاء، وتجعـدت جبهتـه، وانتصب شـعر لحيته الكثيفـة الرمادية، وانطلـق صوته العالي يقـول: «لقد انتهى عهـدك يا بيري باشا. وبأفكارك هذه لا يمكنك إلا أن تكون عقبة أمام الجيش والسلطان».
لم يرد بيري محمد باشـا على هذه اللهجة القاسـية، وأدرك أنه كان وحيداً بسـبب السـكون الذي سـاد المجلس. كمـا أدرك مـدى القلق الـذي تثيره أفكاره عند الباشـاوات من الدوشرمة، ولم يكن يسـتغرب ذلك منهم. كان على وشـك الكلام وهـو يحافظ علـى هدوئه، حيـن وقف سـليمان خان، ووضع النقطة الأخيرة في هذا الجدال: «لقد صدر القرار، وجهتنا بلغراد».

V

طلب مني سـليمان خان الانتظار في زاوية بعيدة من زوايا الفسطاط؛ لأننا وبينما كنـا نبحث في بعـض التفاصيل اسـتأذن بيري محمد باشـا مع سلاحدار آغا بالدخول والحزن بادٍ عليه. كان يريد أن يتحدث مع السلطان قليلاً فـي موضوعٍ أجهلـه. كانا يتهامسـان، فحاولت أن أعـرف الكلام من حركات الشفاه، فكان بيري محمد باشا يقول:

- ما كنـت أود أن تجري الأمور هكـذا، فأنا لا أريـد أن أدفعكم إلى أحد خياريـن متناقضيـن، وأضطركم إلى أمـرٍ واقعٍ، وأجعلكـم في موقفٍ محرج يا مولاي السلطان.

- لا تقلق يا باشا، إن الأمور تجري هكذا.

- حين يهرم الذئب تتكاثر عليه الكلاب...

- لا تقل هذا يا بيري باشـا، فأنت لسـت عجوزاً ولم تهـرم. ثم إنهم يدركون في أعماقهم بلا شكّ صواب رأيك. ولكنهم يقترحون ذلك لأنهم يحرصون على امتلاك كل شيءٍ. آهٍ من تلك الرغبة...

- مولاي، في مثل هذه الأوقات، ينبغي على الإنسـان أن يفكر برويةٍ وهدوءٍ، وهو ما فعلته. إن وقوفكم إلى جانب البرغالي باستمرارٍ في الآونة الأخيرة يدفعه هو ومن حوله إلى التمادي في الجرأة.

ضحك سليمان خان وهو يقول: «لا تحسـبن أنني غافلٌ عما يحدث يا باشـا، لكن ما يبديه هؤلاء من خفةٍ في تلبية كل أمـرٍ يؤمرون به من دون تردد يسرني».

عاد الباشـا يقـول وفـي لهجتـه نبـرةٌ حـادةٌ: «أعلـم ذلك يـا مولاي السلطان. إلا أن تزلف أمثال هؤلاء يؤدي مع الزمن إلى تعثر قدمٍ أيضاً».

فردّ عليه السلطان بصوتٍ صبورٍ: «وأعلم أيضاً يا باشا أن الإنسان لن تزل قدمه ولو كان وسط العواصف ما دام يقظاً».

- مولاي، في حياة الإنسان لحظاتٌ تختلط فيها اليقظة بالأحلام، ولا يمكنه فيها أن يتأكد إن كان ما يحصل حقيقةً أم طيفاً من الأحلام. والعجيب أنه يكون في تلك اللحظات بين الحقيقة والخيال، ولا بد له حينها من أن يوقظه أحدٌ ما. وحياة السلطان في الواقع يا مولاي ليست كحياة السلاطين في حكايات ألف ليلةٍ وليلةٍ. ويوجد حولكم يا مولاي الكثير من المصفقين الذين يملأون محيطكم بضجيج تضيع فيه الأصوات التي توقظكم.

ارتفعت نبرة السلطان مجدداً، بصوتٍ أسمعه من مكاني هذه المرة: «يكفي أيها الباشا. لا أحب أن تعاملني كما تعامل الأطفال».

- أدرك ذلك يا مولاي السلطان.

- إن كنت تدرك ذلك فلا تتصرف بما يمكن أن يؤدي إلى سحقك من قبل خصومك. لا تتصرف هكذا، حتى أستطيع الوقوف خلفك دائماً. أنت عزيز عليّ، ولكن لا تتجاوز حدودك. هذا آخر تنبيهٍ لك.

من يزرع الريح يحصد العواصف
(إبراهيم البرغالي)

I

«ما نفكر به أو نقوله لا أهمية له أبداً،
ما نفعله فقط يحمل قيمة ومعنىً».

مارسيل بروست (جانب منازل سوان)

28 تموز 1521

لم أدر بأي حال في الحقيقة حالي
حسبي أنها مع النفس في جدال
وصال الحبيب للعاشق فكرٌ وذكرٌ
لكنّه ضرب من خيال ومحال
لا يموت من بالحسنات يحيا ذكره
حتى القيامة يذكر بالخير والكمال
....

[يترنم ببعض أشعار سليمان خان، في أبيات تفصح عن الغربة التي يعيشها السلطان وهو في عز سلطته، وعن نزعة الصوفي نحو التجرد من عالم الفناء، والدخول من أجله في صراع مع النفس، ثم يعقب]:

أيمكن للمرء ألا يقف معجباً وحائراً أمام شعرٍ كهذا؟! يا صاحبي، إن سيفك المزين بالجواهر، وريشتك الذهبية أحدّ من سيوف جدودك وريشهم. ولأنك يا صاحبي شاعرٌ مؤمنٌ بشعر حياته، نظمت هذا الشعر العذب بمثل هذا النجاح. وفي ذاك اليوم، عند دخولك قلعة صباح عبر

كل تلك الدماء والدمار، كان الحزن العميق البادي عليك يزيد من هيبتك، فيما يلف رأسك الجميل مثل هالة مذهبة كتلك التي نراها في رسوم الفرنجة.

قفطانك الأحمر المزين بالياقوت والعقيق يرخي سدوله حتى جزمتيك المصنوعتين من جلدٍ أحمر. والألماسة الذهبية التي تعلو عمامتك العظيمة تبث الدفء في الحياة بسيل نوراني أصفر يخجل لونه الشموس. ولحيتك التي يزداد طولها يوماً بعد يوم بكثافتها وهيبتها في آن، علقت فيها قطرات ماء من أثر الوضوء فبدت مشعة وكأنها قطع تناثرت من تلك الألماسة التي تعلو عمامتك. أكنت تعلم أن وجودك وحدك في تلك الحال يجعلني أتساءل مجدداً عن حقيقة وجودك ووجود هذا العالم المشهود؟ أحقيقي أنت يا صاحبي أم مجرد حلمٍ وخيالٍ؟!

حقاً، لقد خلقت حاكماً بالفطرة يا صاحبي. وحكمك الدنيا قدرك المكتوب، أن تحكم وتطاع يا حاكم العالم... سيلف روحي ويهز أعماقي بريق نجاحاتك وانتصاراتك التي تخطف الأبصار... أعترف أنك تتسلل إلى فؤادي أو تخترقه رغماً عني، والأسوأ من ذلك هذا الحبّ الذي أكنّه لك وأتجرعه كدواء مرٍّ يمنح روحي الحياة... وعندما تدوس على أكتاف الملوك وترتقي، ألامس النجوم أنا أيضاً. وأنا الآن في المرتفعات، لا يمكن أن يراها وهيمي أورخون جلبي جاسوسك الذي تثق به كثيراً، ولا بيري محمد باشا صدرك الأعظم التركي الذي يدهشك ذكاؤه وخبرته، ولا وزيرك الثاني التركي أيضاً جوبان مصطفى باشا؛ لأنهم في نظري يا مولاي جثثٌ تتناثر حولي... وشعورهم الخفي بذلك يزعجهم، فهم يعرفون أن نهايتهم باتت قريبةً، وعما قريب سيتوسلون لكي ينتهي كل شيء...

- حرّم... حرّم، لا تخيّبي أملي يا حرّم... فحكمي لن يبقى مثل حكمك.

- أس س س... لا تهتم يا إبراهيم، لا تهتم... لا تهتم...

- إبراهيم؟! منذ متى وأنا أخاطب نفسي بهذا الاسم؟ أنا يانكو... يانكو... ويمر الزمان... وتدور الدنيا يا سليمان، ويجعلك القدر مثل أبيك؛ خاضعاً لصاحبة العينين الغزلانيتين.

[يدمدم بأشعار السلطان التي يتغزل فيها بحرّم. فهي أنيسته في خلوته، وحبيبته، وقمره المضيء في جو السماء، وسلطانته، وملكة الجمال في عينيه. وهي وردته الجميلة، ونديمته، ونور شمسه، وعبق أزهاره ونارنجته ورمانته. هي ربيع حياته، يراها في كل ألوان الديار التي يحكمها. ويتغزل بشعرها الطويل المموج كالأفاعي، وحاجبيها وعينيها الفاتنتين، فإن مات فهي قاتلته، ففي قلبه حزن، وعيناه تفيضان بالدموع. إنه العاشق السكران من حبها].

ماذا أقول الآن؟ شعرك العظيم بقدر عظمتك. على الأقل، سيدور له رأس حرّم عندما تقرأه أمامها بالتأكيد. فأي امرأة تستطيع أن تقاوم ما ينبع من الصميم؟ إن روحك النيرة المليئة بالمحبة قد تسربت إلى هذه الأبيات يا سليمان خان. إن سحرتك حرّم بفضلي أنا، فهذه الأشعار ستبقى تسحر القارئين ما بقيت في الدنيا.

أعرف أن تعلقك بي الذي يزداد شيئاً فشيئاً ينبع من حبك الذي ينمو تجاه حرّم. ليكن ذلك. نحن ولو كنا حرّين طليقين، فإن روحينا الأسيرتين في الحقيقة بطبيعتهما في عذاب مشترك. ربما تكفي قوتك لإخضاع العالم يا سليمان، لكن قوتنا نحن المسكينين تكفيك بالتأكيد.

ربما كنت مضرب المثل للجند في شجاعتك، وكنت أول من يعبر الجسر المتين الذي بناه الإنكشاري سنان بن عبد المنان على نهر سافا بصعوبة خلال تسعة أيامٍ، وبطولٍ يبلغ ألفاً وثمانمئة قدمٍ، ولكنْ أتظن أنني لم أر القلق الظاهر في عينيك الجميلتين؟! نعم، أرى داخلك شيئاً من

الخوف من أن تضرب المياه الهائجة الجسر المنخفض، فتخسر رؤية حرّم مـرةً أخرى! حقـاً، أنت عظيم يا سـليمان! ولكنـك لن تقدر علـى خداعي بإخفائك مشاعرك.

إن أفكارك تتشـوش بسـهولةٍ يا سـلطاني، وأنت تعطي العجوز بيري باشـا من الاعتبار ما لا يستحقه، وهو يعلن أن كل الدوشـرمة خونة بأقواله السطحية التي لا تلقى أذناً صاغية والحمد لله. فليدأب على ذلك، ولكنها الحقيقة التي لا مفر منها: إذا كانت هذه الدولة اليـوم أكبر دولةٍ في العالم، فإن ذلك نتيجةٌ طبيعيةٌ تعود إلى تطبيق العثمانيين لنظام الدوشـرمة. ولكن المشكلة الأساسـية تكمن في هذا التركماني الذي يسمى وهيمي أورخون جلبي؛ فعيناه بنظرتهما الشـيطانية، ووجهه الأسـود المشـؤوم مسلّطة عليّ دائمـاً... إذا كان التركمـان يسـتغلون الرحمة المسـتقرة في قلب سـليمان خان، ويخططون لجمع القوة في أيديهم، فهذا يعني أنهم ينسون ويتناسون كيف وصلت الدولة العثمانية إلى ما هي عليه اليوم. ولكن، سـيأتي الزمن المناسـب، وسـأقتلع فيه تينك العينين اللتين تنظـران إليّ نظـرةً كلها حقدٌ وتحقيـرٌ. ولكـن، المهم الآن سـقوط بلغـراد أولاً، وسـيأتي بلا شـكٍّ يوم الحساب.

ها هو الجيـش بكل ثقلـه وعتـاده يعبر مـن أراضي سـيرم، ويتمركز أمام أسـوار بلغراد، ولا بد أن أعترف هنا بأن الرهبـان الأرثوذوكس الذين استطاع أورخون جلبي ورجاله أن يسـتميلوهم إلى جانبنا سينفعوننا كثيراً. ليس من السـهل أبداً إقنـاع القـوات الصربيـة والبلغارية بتـرك الحرب في وقت لا نتوقعه، ولكـنّ اللعبة المذهبيـة التي في أيدينا ورقـةٌ قويةٌ نملكها، أرجو ألا يفسـد علينـا وهيمي أورخـون جلبي هـذا الأمر ويخلـط الحابل بالنابل. فهزيمة سـليمان خان والنيل من اعتباره ليسـا في صالـح أحدٍ منا، وفتح بلغراد التي ارتد عن أسوارها السـلطان مراد الثاني والسلطان محمد الفاتح سـوف يظهر صورة سـليمان خـان الحقيقيـة في عيـون الأوروبيين

الذين يلقبونه بالحمل بسبب التزامه جانب العدل في سياساته كلها.

* * *

في تلك الليلة، بعد عودتي إلى خيمتي للنوم، دخل خيمتي رجلٌ داكن البشرة من رجال وهيمي أورخون جلبي، وتمتم لي ببضع كلمات من دون أن أرى شفتيه المختفيتين خلف شاربيه العريضين فيما نور شمعدانه الخافت يضيء المكان قليلاً. طلب مني أن أكون في ساعات الصباح الأولى في الطرف الشمالي من معسكر الجيش، حيث الغابة الصغيرة التي تم حرقها من أجل نصب المدافع فيها، ونبهني بشدةٍ إلى ضرورة أن أكون وحدي. ترى، ما الذي يريده مني في تلك اللحظة؟! ترددت في إبلاغ السلطان، فأنا شخصياً لم أنفرد به وحدي مطلقاً، ونظراتنا المتبادلة عن بعد كانت تكشف عن مشاعرنا تجاه بعضنا. ترى، هل جهز لي هذا الرجل فخاً؟! تمددت على فراشي وفي داخلي قلقٌ شديدٌ. استرخيت وأنا أنظر إلى الجمرات الحمراء المشتعلة في المنقل وكأنها عيونٌ حمراء متراقصةٌ، واستسلمت لنوم غير مريح وكئيبٍ كالغيوم السوداء المحملة بالأمطار خارج الخيمة.

عندما استيقظت لم أعرف للوهلة الأولى أين أنا، وكانت ساعتي الشمعية المستقرة قرب رأسي تشير إلى بقاء نصف ساعة على الموعد المتفق عليه. نهضت وأشعلت شمعتي بالجمرات الأخيرة المشتعلة في المنقل ثم خرجت. كان ظهري مغموراً بعرقٍ باردٍ أثاره الهم والقلق، ولم أكن لأتجرأ في هذه الساعة على إزعاج السلطان وإيقاظه، غير أنني لاحظت الضوء المتسلل عبر النوافذ الشفافة للخيمة السلطانية، لا بد أن سليمان خان يصلي، وما يروى عن قيامه بالتعبد في الثلث الأخير من الليل حقيقي إذاً. غير أنني كنت أحب أن أتيقن من ذلك بنفسي.

ظن الحراس الذين يغلبهم النعاس أنني قمت إلى الخلاء لقضاء حاجتي، وتسللت من غير كلام، وتابعت السير بين نقيق الضفادع

وأصوات الجنادب. وحين وصلت إلى الملتقى بعد برهةٍ قصيرةٍ، كنت أشعر بالغثيان، وبتشنج شديد يكاد يمزّق بطني وأمعائي. لم ألاحظ في البداية في جنح الليل البهيم أحداً، ولم أسمع سوى صفير الريح وعواء بنات آوى، ولم أرَ سوى الأرض المحروقة وسواد الأبنوس.

تملكني شعور بوحشةٍ حذرةٍ تعجز الكلمات عن وصفها. كانت فكرة وقوعي في الفخ تسيطر عليّ. أيمكن أن يكون الأمراء الأتراك بقيادة بيري باشا قد اتخذوا قراراً بطي عهد الدوشرمة إلى الأبد، وأنهم يستخدمون في سبيل تحقيق ذلك هذا المنحوس الذي يدعى وهيمي أورخون جلبي؟ فمن سيقف في وجوههم لو قتلوا كل كبار الدوشرمة دفعة واحدةً بدلاً من الإجماع على انقلابٍ سريٍّ؟! انحنيت قليلاً حيث أقف، وأنا ألتقط أنفاساً عميقة لأتغلب على الغثيان الذي أشعر به.

لامست مسمعيّ همساتٌ نقلتها ريحٌ محملةٌ بأنين الأشجار المحترقة الرطبة، فأدركت أنني في المكان الصحيح. لكنني كنت أخشى من الكشف عن مكاني قبل التيقن مما يجري. لذا تقدمت نحو الأمام، مستتراً عن الأنظار بفضل الظلال الداكنة للمدافع الرابضة بين الأشجار المنهارة، والمشدودة إلى بعضها بسلاسل تصدر صليلاً خفيفاً كلما اشتدت الريح.

وأخيراً، رأيتهم... فهناك رجالٌ كظلام الليل... وأصواتهم كصفير الريح... كانوا يتكلمون في ما بينهم بحرارة. وددت أن أقترب منهم كي أسمع ما يدور بينهم من كلام، ولكنني في تلك اللحظة سمعت خلفي صوت غصنٍ ينكسر، وشعرت بدمي يتجمّد في عروقي، فاستدرت نحو الخلف، ولم أر سوى وهج نيران مشاعل المعسكر؛ وكأنها خيوطٌ من ذهبٍ... قد يكون الصوت صادراً عن سنجاب خائف فقد وكره الموجود في جوف شجرةٍ حرقت نهاراً، أو غزال شاردٍ جفل من هذه الظلال السوداء التي تتجول في ظلام الليل... وعندما التفت مجدداً نحو الظلال

المتهامسة، وجدت نفسي وجهاً لوجهٍ مع أورخون جلبي. كانت رائحة الحامض المنبعثة من فمه تضرب وجهي، فيما عيناه الصغيرتان اللتان تحدقان بي بأجفانهما المتورمة، وجسمه المربوع، وظهره المحدودب قليلاً تجعله يبدو وكأنه جني! رباه، كيف ومتى اقترب مني هكذا من دون أن أشعر؟! هذا الرجل كالأشباح!

سيطرت على نفسي بصعوبةٍ كي لا أصرخ من هول المفاجأة، لكنني لكمته بقبضتي بغضب شديد بين حاجبيه، وأنا أتظاهر بأنني لم أتمالك نفسي. ترنح رأسه من شدة الضربة، لكنه لم يسقط على الأرض، غير أن السائل الأسود الذي سال من الجرح بفعل اللكمة كان يبدو وكأنه ينهمر من عروق كائنٍ من خارج كوكبنا. ارتعشت مجدداً، وكان ذلك شيئاً لا يصدق؛ إذ لم يصدر عن أورخون جلبي أيّ أنين، ناهيك عن عدم سقوطه، لقد كنت في سنّي تلك في أقوى مراحل عمري، لكنْ لا بد أنه كان مدرباً ومعتاداً على مثل هذه المواقف. وفجأةً، تذكرت أن هذا التركي المرعب هو في الأساس من رجال سليم خان، فسرت قشعريرةٌ من رأسي وحتى أخمص قدمي حين خطر لي ذلك. نعم، إنه هو الذي تلقى اللكمة، ولكنني أنا من أوشك على التبول من شدة الفزع.

«آه! أهذا أنت يا أورخون جلبي؟!». قلت ذلك بصوتٍ لم أكن أعرف أنه صوتي. كان ما سمعته صوتاً مرتعداً مبحوحاً. في تلك اللحظة، ازداد شعوري بالكراهية تجاه هذا الرجل. قال: «نعم، هذا أنا يا إبراهيم آغا! اهدأ ولا تخش شيئاً». وضم منديلاً كبيراً لم يتضح لونه أخرجه من تحت حزامه، ثم وضعه على جبينه. فهمهمت قائلاً: «ضع حداً لحركاتك حولي، ولا تتبعني كظلي يا رجل! كفاك، وإلاّ ستكون عاقبتك وخيمةً حقاً. هل جرحت؟».

– أنا بخير يا آغا، سامحني. كان ذلك خطئي، فلا عليك. لا يمكن للكمة واحدة أن تطيح بنا، ثم إنني لا أتجسس عليك، ولو أردت ذلك

فتأكد بأن روحك لن تشعر بالأمر. على كل حال، هيا تعال، هناك بعض الأشخاص ينتظرونك...

لحقت به، وأنا أدندن في سرّي. وصلنا إلى حشدٍ قريبٍ بعد عبورنا خندقاً صغيراً يغمره الماء. وعندما لمحت حضرة شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي تحت الأضواء المنبعثة من مقر القيادة، كدت أتجمد حيرةً. فما شأن هذا الرجل المبارك هنا؟! هل كان يعلم هو أيضاً الهوية الحقيقية لقائد جيش غلمان القصر، وقائد القوات الخاصة، أورخون جلبي؟ في أثناء ذلك، لفت انتباهي الوزير الثاني مصطفى باشا. كان وجهه المدور الأبيض جميلاً تحت أنوار الليل، وكذلك لحيته الكثّة. غير أن شعوراً ساورني بعدم الاعتماد عليه كثيراً. فهذا الباشا رجلٌ طيب القلب، وأمثاله من الرجال ولو استطاعوا لجم ألسنتهم، فإنهم لا يرتاحون للأسرار. لم يدهشني وجود بيري محمد باشا هناك أيضاً، كنت أستطيع الإحساس بنظراته المستهينة الثاقبة تتركز علي في تلك الليلة المظلمة. ثم ظهر فجأةً خيال سليمان خان بغموضه وهيبته وكأنه السماء السوداء التي تظللنا، فكدت أبتلع لساني الصغير من شدة الدهشة، وجثوت فوراً على ركبتي، وقبّلت طرف ردائه.

كان هناك شخصٌ آخر إلى جانب مولاي السلطان لا أعرفه، وحين رفعت رأسي، لاحظت الزنار الذي يحيط بخصر الرجل. وسرعان ما رأيت الصليب المتدلي من عنقه، ولم أفهم سر لون القبعة التي كان يعتمرها. كان واضحاً أنه قسٌّ. كانت لحيته البيضاء تصل إلى منتصف صدره، أمّا شارباه الطويلان فيغزوان فمه.

بادرني سليمان خان قائلاً: «إبراهيم، أنت ستخاطب باسمي جنود الألغام، وقائد الفلاحين الذين سيغادرون بعد قليل، فليستعدوا لأداء صلاة الفجر، وليبدأوا بالحفر قبالة برج الدفاع الواقع إلى يسار مدخل المدينة مباشرة. صديقنا القس هذا، واسمه محفوظ، يخبرنا بأن أساس هذا البرج

الدائري قد تضرر كثيراً بسبب حروبٍ متعددةٍ، وحركات عصيانٍ داخليٍّ. ومهما بدا البرج عالياً، فإن ارتفاع منسوب المياه الجوفية أحياناً أدى إلى انهيارات في طبقة الشست الضعيفة التي يقوم عليها أساس البرج. ما يجب أن تفهمه هو أن هناك خطأً في الفحص الهندسيّ للبرج، وإن ركزنا على هذه النقطة فإن انهياره لن يكلفنا الكثير. أما الجنود الصرب والبلغار المتمركزون على الأسوار الخارجية فإنهم سيلقون أسلحتهم في لحظةٍ حاميةٍ من الحرب، وسيتجهون إلى القلعة الداخلية. وإذا تمكن هؤلاء من إغلاق الأبواب قبل القوات المجرية، فإن القوات المجرية ستبقى بين نارين ولن يكون أمامها إلا خيار الاستسلام. وإن جرت الأمور على نحو مختلف، فإن عديدهم المتناقص سيهز معنوياتهم ويحطمها».

إن كان سليمان خان محقاً في ما قاله، فهذا يعني أن انتصاراً كبيراً بات قريباً منا. انحنيت قليلاً وأنا أقول:

- أمركم يا مولاي السلطان.

لقد كنا على مفترق طرقٍ هام، فسليمان خان الذي يعرف في البلاد بالقانوني نظراً لحرصه على العدل سيستحق لقب العظيم بإنجازه هذا. ولكن، في حال واجهنا أي فشلٍ أو غدرٍ أو خيانةٍ فربما سيدفننا البلغار جميعاً أمام هذه الأسوار الصلبة. لكنني على ثقةٍ بأن هذا السلطان الشاب العظيم بمظهره ووقفته سيحقق ما لم يحققه أجداده الذين باتت أسماؤهم تذكر على كل لسانٍ في العالم.

تحدث القس بلغته الصربية مع مصطفى باشا (وهو من أتراك البوسنة) ليترجم هذا الأخير للسلطان وهو يقول: «لن يترك المجر الكاثوليك أحداً منا على قيد الحياة إذا فشل هذا الحصار. وإذا طال الحصار، وانسحب الجيش العثماني، فإن على جلالة السلطان ألاّ ينسانا وفاءً لنا - كما فعل جده السلطان الفاتح محمد خان - وأن يفعل كلّ ما هو ممكن حتى لا يتركنا هنا، ويأخذنا معه».

- عليهم ألاّ يقلقوا. إننا لم ننس الود الـذي أبداه الأرثوذكس تجاهنا في أثنـاء حصار جـدي السـلطان الفاتح محمد خـان. إنهم يبـدون تجاهنا المشـاعر نفسـها الآن أيضاً، وسـأقابل صداقتهم هذه بمثلها. ومهما كانت نتيجة هذا الحصار فسـأتصرف برحمةٍ أكثر من جدي الفاتح، وسـأعطيهم أمـلاكاً وأراضـي يعيشـون عليها فـي الأسـتانة، ولن أغـدر بمن مـدّوا لي يد العون، ولـن أتخلى عنهم فـي منتصف الطريـق. عليهـم ألاّ يخافوا، أو يتألموا، أو ييأسوا. والفتح متيسّرٌ بإذن الله».

لم يكد جلالة السـلطان ينتهي من كلامـه، ويفرغ مصطفى باشـا من ترجمتـه إلى القـس حتى رسـم القس رمـز النصـارى الديني أمـام صدره، وبابتسامةٍ عريضةٍ باديةٍ على وجهه جثا على ركبتيه.

كانت عينـاي تتأملان وجه السـلطان الجميـل، وهو ينظـر إلى مدينة الخيام، وفي لهجةٍ حادةٍ محذرةٍ قال:

- لكن، إن تراجعوا عن وعودهم، فـإن ذلك يعني أنهم تجرؤوا على ما هو أقسى من غضب الكاثوليك.

تململ القـس في مكانـه خائفاً حيـن سـمع التحذيـر، وعندها هطل المطر غزيراً، فاسـتأذنت مولاي السـلطان، وعدت بسـرعةٍ إلى مقر القيادة لألتقي قائد جيش الفلاحين.

II

عند إطلالـة الصباح الأولـى، بدأت قذائـف المدافع الشـاهية[1] تدك الأسوار، وقذائف الهاون المنطلقة من السـفن الحربية التي تحمل الأعلام الملونة في نهر طونا لا تترك متنفسـاً للمدينة. كان لساني عاجزاً عن التفوّه ببنت شـفةٍ أمـام هـذا الهدم الـذي يزلـزل الأرض تحـت أقدامنـا. وكانت معدتي تشـتعل كقطعة جمرٍ بحجم قبضة يد، واغتسل جسـمي بعرقٍ كريه الرائحة. كانت السـهام التي ترمى تشـكل غيوماً شـيطانيةً تتحـرك في خطٍ منحنٍ وتسقط في الطرفين. ولا أذكر شيئاً آلمني وأزعجني أكثر من صوت السهام حين تصطدم بأسطح المدرعات القديمة التي يعلوها الغبار، فيتردد الصدى داخـل رأسـي. هـذا الصـوت كان يذكرني بصـوت أمطـار الربيع الغزيـرة التي كانت تضـرب زجاج غرفتي تحـت تأثير الريـاح العاصفة في بيتنا في براغ، وكنـت أحاول عبثاً أن أنسـى هذه الأصـوات. أتعلمون؟ إن أشـد ما يؤلمني هو أن أغلف تلك الذكريات الرائعة بهـذه المناظر الدموية المرعبة.

لا يخفى على أحد حسبما أعتقد إعجاب كل من مصلح الدين مركز أفندي الصديق المقرب للسلطان، وسـليمان خان، وأخيه بالرضاعة يحيى أفندي بإبراهيم كل شـاني التبريزي. وها هو الشـاعر الشـيرازي المشـهور عارفـي جلبـي – ابـن الخطـاط المشـهور كاتـب درويـش جلبـي، صهـر إبراهيـم كل شـاني وتلميذه – جالـسٌ غير بعيـد عني، وبيده ريشـته يكتب الشـاهنامة. يعمل هذا الرجل المشـهور بحبـه للعمل والنظام وبشـخصيته متعددة المواهب بهمةٍ ودأبٍ في سـبيل إنجاز كتابه «شـاهنامة آل عثمان».

---

(1) نوع من المدافع، ولا علاقة له بالشاه الصفوي.

كان يكتب وكأن الحروب تشحذ عقله وريشته فيعملان بشكل أفضل منه في حالات السلم. يجب أن يخطّ ويوثق فتوحات سلطاننا في توصيف يسمو على رسوم الفنانين من أمثال مطرقجي نصوح ونيكاري، لتكتسب شاهنامته بعض نفحات الخلود.

كان هناك انسجامٌ كبيرٌ بين قائد الميسرة الوزير الثاني مصطفى باشا وقائد الميمنة بيري محمد باشا، وكان قائد القوات الرئيسة أحمد باشا الأرناؤوطي أمير أمراء روم إيلي وإن تعثر أحياناً يقاتل بقواته في حمية وحماسة منقطعتي النظير. كان واضحاً من ملامح النصر على وجهه أنه يعمل على التمتع بالفرصة التي منحه إياها وجوده على رأس وحداتٍ أكبر من تلك التي يتولاها بيري باشا. لفت انتباهي وانتباه السلطان وجود ثلاث ريش نبال مغروزة بين صفيحات درعه الحديدية. كانت إحداها فوق أضلاعه اليمنى تماماً، وكان يبدو أنه يتنفس بصعوبةٍ. لم يسأله السلطان عن حاله عندما كان يأتي لتقديم التقارير، ولا بد أن أحمد باشا كان يتألم كثيراً.

منذ الأيام الأولى، كنت أحس أن هذا الرجل الطموح يرغب في الحلول مكان بيري محمد باشا. كان ذلك واضحاً في ملامحه وتصرفاته، ولا يتغاضى عنه إلا الأعمى. وأحاديثه الجريئة والقاسية في حضرة السلطان، وإن كانت قد أزعجت بيري باشا العجوز، إلاّ أنها لم تكن كافيةً لهزّ مكانته. وإن تصرفت بحكمةٍ، فسأتمكن من الاستفادة من هذا الموقف لمصلحتي بعد الفتح.

* * *

على الرغم من هذه المصيبة التي ألـمّت بهم، وعلى الرغم من ضعف كفاءاتهم واستعداداتهم، فإن بلغراد كانت مستمرة في مقاومتها البطولية. كان قائد الحامية العسكرية جويلا كيبس رجلاً حكيماً ذا درايةٍ، يستطيع استثمار الموارد المتوفرة لديه بشكل جيد في أثناء القتال، ويتمكن

من السيطرة على اليأس الذي ينتشر في صفوف جنوده. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن ملامح الهزيمة التي تظهر بين الحين والحين على الوحدات الدفاعية تخفى على أحد؛ خاصةً تلك المتمركزة على الأسوار البرية. فكان كيبس يعترض طريق الجنود الفارين كحيوانات الغابة من النيران التي تزكيها الرياح، ويقنعهم بمواقفه الفذة على العودة إلى مواقعهم. وإن كان ينجح في إعادة الكثيرين منهم، إلاّ أنه كان يفشل في إقناع عددٍ آخر غير قليلٍ، فكانوا أهدافاً لرماة النبال الذين كانوا لهم بالمرصاد.

عليّ الاعتراف بأن جنود الإنكشارية كانوا أبطالاً ومحاربين بجدارةٍ عند خضوعهم للأوامر والتزامهم بها. إن الهجوم الذي يخلب العقول الذي شنّه أولئك الشبان في مقدمة الجيش، وهم متدثرون بجلود الحيوانات، ومن دون دروعٍ، ورؤوسهم حليقةٌ كان يهز معنويات العدو الذي يواجه صعوباتٍ في محاربته جيش الفلاحين الأكثر تنظيماً. لقد كان جنود اليني تشري ينزلون بالعدو ضرباتٍ تجعل المدافعين عن بلغراد المساكين يحتاجون إلى بطولات قادتهم لتثير فيهم الحمية والشجاعة.

كنت مع سليمان خان في خيمة فرقة المهتران المتربعة على التلال المنخفضة المقابلة للمدينة. وكان السلاحدار آغا سليمان أفندي الذي يرتدي كامل دروعه غاية في الحذر والانتباه، فيما حيدر آغا الباب يتابع مجريات الحرب بوجهٍ حجريٍّ لا يعكس الأجواء السائدة. أما وهيمي أورخون جلبي، فكان بوجهه القاتم على رأس القوات الخاصة، ولم يكن يتردد في إصدار التعليمات لرجاله المرعبين. في هذه الأيام الصعبة، كان شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي وسليمان خان أكبر مصدرٍ للقوة المعنوية للجنود؛ فمعرفة الجنود بوجود السلطان وشيخ الإسلام إلى جانبهم في المعركة كانت تدفعهم إلى الانضباط وهم يندفعون خلف المغانم.

كان سليمان خان يجلس على عرشه، ويتحلّق حوله كالمعتاد علماء

أهل السنة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي الذي يطلب منهم الدعاء باستمرار. يبدو لي أحياناً أن رجلاً حساساً كهذا الرجل لا يمكن أن يكون فاتحاً. وكنت أعتقد آنذاك أن الفاتح يبلغ مجده عبر الخوض بين جبالٍ من الجماجم. فبالله عليكم، هل يمكن أن يهتم أحدٌ بهلاك عدة ملايين من سكان العالم الذين يبلغ عددهم خمسمئة مليون كما يقول العلماء؟! ترى، كم كان الإسكندر الكبير ويوليوس قيصر وصون تزو وهنيبعل وجنكيزخان يهتمون بحياة الآخرين؟! وكم كان محمد الثاني، والسلطان ياووز سليم يهتمان بذلك؟! هل كان بكاؤهم على رؤوسٍ قُطعت من أجل سلامة الدولة، وبالتالي سلامة الأمة ممكناً؟! وهناك أمرٌ آخر أعرفه أيضاً، وهو أن كل لعبةٍ لديها قواعدها، وأي تردّدٍ يبديه الإنسان وهو يسير نحو أهدافه الفردية أو الجماعية، يرتد سلباً على المجتمع كله.

من أجل هذا، أعتقد أنه كان لا بد من استمرار عداء الأرثوذوكس ضد الإسلام، ليتمكنوا من الحفاظ على بنية مجتمعهم القائمة على هرطقاتهم. ولولا هذا العداء لما كان للدولة العثمانية أن تحافظ على بنيتها الديناميكية التي تحفظها في الوجود، بل كان مصيرها أن تغرق في تعصب أعمى يسري في جميع طبقات المجتمع.

هذه الأفكار التي كان من الممكن التكلم عنها بسهولةٍ في يوم من الأيام، لم يعد الحديث عنها بتلك السهولة منذ عهد سليم خان. كان سليمان خان ينصت إلى آرائي وأنا أتمتم بها وأحاول التعبير عنها بين الحين والحين، ورغم ذلك كان يعمل وفقاً للإرث الفكري الذي ورثه عن أبيه؛ فقد كان يبذل ما في وسعه لتثبيت المذهب السني في بلاده، علماً بأن التركمان كانوا ميالين دائماً للتشيع، ولذلك كانوا قلقين كثيراً من سيطرة المذهب السني المتزايدة؛ لأن بنيتهم العقائدية القريبة من مبادئهم الشامانية القديمة أقرب إلى التشيع. والحياة الزراعية وما تستلزمها

مـن واجباتٍ كانـت بالنسـبة لهـم نوعاً مـن الحبـس والأغلال التـي تلقى حول أعناقهم وأرجلهم، فقـد كانوا يفضلون حياة التنقـل والترحال وتربية المواشي على الزراعة. ولو اسـتطعت توسعة سـلطتي في إدارة الدولة مع الزمن، فسـأبدأ عملي بجعـل حياة أولئـك المحيطيـن بالسـلطان، والذين يحضون على سلوك هذا الاتجاه الإسلامي المتزمت أكثر مشقةً.

الثلاثاء 6 آب 1521م

صرخ سـليمان خان وهو يقول مشـيراً إلى قائد القلعة جويلا كيبس: «سـيتأخر الفتح يوماً تلـو الآخر طالمـا بقي هـذا الرجل على قيـد الحياة. ويقلقني أن يصـل ذلك الجيش الصليبـي التابع لشـارلكان، والذي انطلق من أوروبا لنجدة المجر. آهٍ من لاجوس هـذا... لاجوس عبء ثقيل على الدولة العثمانية يكبـر يوماً بعد يومٍ... ولكن، لا بـد أن يأتي يومٌ أصفي فيه حسـاباتنا معه بنفسـي...». كان السـلطان لا يـزال مرتدياً درعـه، ولم يكن يتميز بطوله عن جند فرقته الخاصة الطوال.

تكلم بيري محمد باشا بحياء:

- إن إنشاء الأنفاق أوشك على الاكتمال يا مولاي السلطان.

- تقـول إنها أوشـكت علـى الاكتمـال! ولكـن الأنفاق الثلاثـة التي فتحتموهـا عبـر الخط نفسـه قد خسـفت، وهلك فيهـا الكثير مـن جنودي الشجعان أيها الباشا.

- مولاي السلطان، كما تعلمون، أدت هطولات الأمطار الغزيرة إلى تضخم كمية المياه الجوفية بشكل ملموس و...

زمجر سـليمان خان مذكـراً بأبيه: «دعك مـن هذا يا بيري باشـا، فأنا أعلم هذا طبعاً، وما أحتاج إليه اليوم هو الحل وليس الاعتذار...».

وقبل أن أفتح فمـي، انبرى أحمد باشـا الأرناؤوطي يقول بحماسـة: «مولاي السلطان، إن تحريك قواتنا نحو الأجنحة الأخرى سيكون مناسباً؛

إذ سيشتت انتباه أعدائنا. وفي تلك الأثناء، علينا أن نسرّع العمل في حفر الأنفاق الأخرى في الأماكن التي لن يتوقعوها. إنهم ينجحون في تحديد مواقع الأنفاق، إلاّ أنهم قد لا يعلمون ما نعلمه الآن عن نقاط ضعفهم؛ لذلك علينا أن نخطو خطواتٍ مشتتة...».

- قلبك طيبٌ يا أحمد باشا، لكنك مثل قادتي الآخرين. إن مدافعاً خبيراً مثل كيبس لن يدوس على خشبٍ طريٍّ. ومهما بذلنا من جهد للفت انتباهه، فلن يتهاون في الدفاع عن النقاط الضعيفة لديه.

- مولاي السلطان، لو سمحتم لي، فلديّ اقتراح أودّ عرضه عليكم.

نظر جميع الباشاوات، وكبار القادة إلى هذا الرجل الذي لا يملك أي خبرةٍ عسكريةٍ، لكنه يعمل مستشاراً للسلطان وكأنه باشا... نعم، نظروا إليّ نظرة استياءٍ لا تخلو من السخرية والاستهزاء؛ عدا أورخون جلبي بنظراته الجدية الحادة.

«أرى أن نهاجم بكل قوتنا الموقع الذي يحتمل أن العدو يعلم أنّه يواجه ضعفاً فيه. وليسجل التاريخ أننا خضنا إحدى أهمّ الحروب... فمن السذاجة بمكان أن نتوقع أن المجريين يظنون أننا غافلون عن نقاط ضعفهم. والتركيز عليها سيؤثر بشكل سلبي في معنوياتهم؛ إذ سيدركون أن أسرارهم قد تمّ إفشاؤها، وسوف يدفعهم ذلك إلى الإحساس بأنهم أكثر عجزاً مما هم عليه الآن».

نهض سليمان خان عن عرشه واقترب مني، فنهض الجميع أيضاً، وأمام جميع رجال الدولة والقادة قبّل جبيني: «إنها الخطة التي أردت سماعها، وإنها الجرأة التي أردت رؤيتها». قال ذلك وفي عينيه حبورٌ. قبل أركان مجلس الحرب هذه الخطة باستياءٍ ومن دون اعتراض. لم أنس قطّ تلك النظرات المهزومة التي رأيتها؛ خاصةً في عيني بيري باشا.

كدت أطير من شدة الفرح والسعادة والكبرياء، وتقبلت تهاني مولانا السلطان بانحناءةٍ من عنقي وابتسامةٍ خفيفةٍ. كنت أخطو خطواتٍ

صحيحةً، ولم يكن لديّ بعد ذلك ما أفعله سوى الانتظار.

اتجه سليمان خان إلى وهيمي أورخون جلبي قائلاً: «غداً، إن لم يتخل من يزعمون أنهم حلفاؤنا من البلغار والصرب عن مواقعهم كما وعدونا، فسيكون بانتظارهم بعد الفتح ما لا يسرّهم؛ فقد حذّرتهم من قبل في هذا الخصوص».

فأجاب الرجل الغامض وهو يلوي عنقه من شدة الضجر: «ربما استطاع المجريون الذين يتخوفون مما قد يحيق بهم - وفقاً لما تعلموه من دروس التاريخ - أن يهددوا الأرثوذوكس الذين يرون أن الحصار يطول، ويقولوا لهم: إننا لن نكون في موقع مساومة مهما كلّف الأمر، وإننا أمام أي خيانة تبدو منكم سندمركم. وطبيعي أن يتغيّر موقف السكان في ظل هذا الموقف. إن عدة هجماتٍ ناجحة سوف تكفي لإقناع أولئك بالانسحاب من الحرب».

مال سليمان خان إلى السلاحدار آغا الذي كان يمسك بسيفه وهو يقول: «بما أنه ليس هناك خلاف...»، وبدأ يهز سيفه البارد الذي استلّه من غمده في الفضاء قبل أن يتابع: «ففي هذه الحال، سنشن غداً صباحاً حملةً على البرج الغربي بكل قوتنا». ثم التفت إلى أورخون جلبي وغمزه خلسةً، وهز أورخون جلبي رأسه وفق الأصول. وكان ذلك يعني أنه سيلتقيه بعد المجلس.

لم يكد المجلس ينفض حتى بادر سليمان خان أورخون جلبي وهو يمسكه ويهزه من كتفيه قائلاً: «هذه الليلة، عليك أن تفعل أي شيء للقضاء على كيبس. وإن استشهدت فسأقيم لك ضريحاً عظيماً، وسأكرم عائلتك بالعطايا يا أورخون. وإن جئتني برأس هذا الرجل فاطلب مني ما تشاء».

«لا أطلب سوى دعائك يا مولاي».

«فلترني ما ستفعله يا أورخون!».

III

لا أدري كيف فعل ذلك وكيف نجح فيه، غير أنّه دخل فسطاط السلطان قبل أذان الفجر، وبيده كيسٌ من جلد الجمل، يوجد في داخله رأس المسكين جويلا كيبس! لقد دخل حاملاً معه ضباب الليل، ورائحة الدخان، ورائحة أخرى... رائحة كريهة تثير الإغماء والغثيان، رائحة تذكر برائحة الدم الجاف... أحسست لحظتها بارتخاء مثانتي، وتسارعت نبضات قلبي فأحسست بأنه سيتوقف. نظرت إلى هذا الرجل المكتنز المخيف الذي يقف أمامي، وفمي فاغرٌ من هول المفاجأة. كان وجهه يبدو شاحباً، فيما كانت ملابسه نظيفةً. أخرج الموسى من تحت حزامه، وقبّله ثم وضعه على جبينه، وبعد ذلك تركه عند قدمي سليمان خان. ثم وضع الرأس داخل الكيس، وأعطاه إلى غلامٍ كان يقف وراءه، فبدا على وجه سليمان خان مزيج من الحزن والارتياح وهو يقول: «كان رجلاً جباراً، ورجلاً جيداً ذهب ضحية ملكه».

تحدثتُ بأريحيةٍ ترد على موقف أورخون جلبي المليء بالتوقعات، وتذكره من أنا: «عليك أن تعلق ذلك الرأس على رمحٍ، وتضعه على باب القلعة حالاً يا أورخون آغا، حتى يكون عبرةً للعدو والصديق عند طلوع الشمس، ولنضع حداً لهذه المقاومة غير المجدية».

نظر إليّ أورخون جلبي وفي عينيه حقده الدفين المخيف، وتصرّف وكأنه لم يسمع ما قلته، وكأنني لم أكن موجوداً هناك. كان ينتظر أمراً من سليمان خان، فأومأ سليمان خان قليلاً برأسه مبتسماً ابتسامةً خفيفةً.

وبعد أن خرج أورخون جلبي، التفت إليّ سليمان خان قائلاً: «والآن، إن أورخون جلبي يثير في نفسي قشعريرة الخوف. ومن هذا

الموقف، لا يصعب عليّ أبداً فهم أي رجلٍ كان أبي فعلاً!».

ابتسـمت قائـلاً: «كان السـلطان يـاووز سـليم خـان جنديـاً عظيماً، ورجل دولةٍ عظيماً. ومثل كلاب الصيد هؤلاء الذين دربهم؛ اصطاد الكثير أيضاً!».

لم يجب سـليمان خان. وربما بسـبب صمته، بدأت أفكّر في سرّي: «ليس هـذا الضبع إلا واحداً من أصابع سـليم خان ذي القبضـة الحديدية. وصاحب القبضة الحقيقي يرقد الآن تحت الثرى، لكنه مستمرٌ في ضرباته القاتلة... إنه الشـخصية التـي لا تتنازل، والـذي جعل هذه الدولـة تبلغ ما بلغته الآن من قـوة ومجد. وها قد سـلّمك إياهـا يا سـليمان... ولكنها لم تمنحك السـعادة بعد... فأنت ما زلـت تفكر في أنه لم يمـت، وأنت محقٌّ في هذا التفكير. نعم يا مولاي السـلطان، والدك حيٌّ يعيـش برجاله... إنه لم يمت قطّ... فبيري باشـا يزداد جسـمه وزنـاً، ووهيمـي أورخون جلبي لا يزال يلوح بسـيفه... وكلما عاش رجاله لفترة أطول فإن سـلطتنا... أي سـلطتك أنت... نعم سـلطتك أنت، لا لن تكون سـلطتك أنت... نعم، سلطتك أنت لن تكون سلطتك أصلاً...».

لِمَ كنـت أفكر هكـذا؟ وأي ثعلـبٍ كان يتجـول في ظلمـات ذهني؟ ثم ميزت فجـأةً، نعم فجأةً وفـي تلك اللحظـة، أن حياتي كلهـا مضت في غسـقٍ من الظلام. والأغـرب من كل ذلـك، أنني كنت أحب هـذا الجو... نعم، إنني رجل هذه الغيوم الياقوتيـة الداكنة، والأراضـي الجامدة بألوانها المعدنية.

* * *

وفي اليوم التالي، نجح جنود الألغام في تفجيـر عبوات البارود التي تم وضعها في الفجـوات التي تمّ حفرها في أعماق الأسـوار. وتحت تأثير نيران المدافع الثقيلة التي بدأت تقذف حممها في سـاعات الصباح الباكر، انهار البرج الغربي مثيراً صوتاً قويًّا وغباراً كثيراً. وبدأت وحداتنا بالتسـلل

في سرعة هائلةٍ عبر الثغرة التي فتحت، وصيحاتها تصل إلى الفضاء. لكن المجريين المدافعين لم يفاجئهم انهيار البرج، وكادت وحداتهم التي تسارعت نحو الثغرة وسهام رماة نبالهم الكثيفة أن توقف زحف جنودنا، لولا أن الصرب والبلغاريين كانوا عند وعدهم لنا، ونفّذوا الخطة المتفق عليها. فقد انهالوا بسهامهم على المجريين، وخربوا دفاعاتهم، وتركوا خطوط دفاعهم متّحدين مع جنودنا، ومتحرّكين سريعاً من أجل الاستيلاء على القلعة من الداخل. كان المجريون يتوقعون مثل هذه الإهانة، وبالفعل كانوا قد هيأوا خمسمئة فارسٍ لتأديبهم، لكنهم وجدوا صعوبةً كبيرةً في محاربة عدوين، وصاروا في موقفٍ صعبٍ؛ لا سيما بعد موت قائدهم على حين غرةٍ، فلم يجدوا بداً من الفرار والانسحاب إلى داخل القلعة وهم يقاتلون.

نحن الآن على مشارف القلعة الحصينة مع جنودنا وحلفائنا من الصرب والبلغار. لكن هذه القوات وقفت عاجزة أمام الأبواب الحديدية الثقيلة المدعمة بأعمدة وأوتاد حديدية إضافية، والتي قام على حراستها خليط من الجنود الصرب والبلغار والمجريين تحت تهديد الفرسان المجريين. ونتيجة لهذا التطور، تراجع الحلفاء الصرب والبلغار منتشرين في شوارع المدينة التي شعر سكانها بالدهشة الشديدة، وصاروا يتمترسون خلف نقاط دفاعية شيدوها على عجلة خوفاً من غضب المجريين وردّ فعلهم. وفي هذه الأثناء، سقطت آخر وحدة مقاومةٍ على الأسوار الخارجية لمدينة بلغراد، وتدفق عشرات الآلاف من الجنود العثمانيين مجتاحين شوارع المدينة الآهلة. واتجه الفرسان المحاربون من فرسان بولو وقسطموني ونيغ بولو نحو القلعة، وهم يهتفون بصوت واحد يثير الرعب في القلوب، ويتخطّون كالسيل الهادر كل الحواجز!

انهارت نقاط المقاومة المجرية كلها، وانسحب المجريون إلى الداخل وهم يقاتلون من شارع إلى شارع لعدة ساعاتٍ، تحت ضربات

الجنود الفلاحين ومشاركة الحلفاء الصرب والبلغار. وساد الجمود في خطوط التماس عند أسوار القلعة الداخلية الحصينة التي ربما تستطيع الصمود لبعض الوقت. فأصدر سليمان خان أوامره بقطع الاتصالات بين القلعة والمدينة كلها، والتريث حقناً لدماء المزيد من جنوده.

إذا أخذنا بعين الاعتبار ما قاله وهيمي أورخون جلبي، فإن الكونت دسودزاك الذي يقود فرق المقاومة داخل القلعة يعرف مسارب سريةً تمتد من مخازن القلعة إلى خارجها، وعبرها يستطيع المجريون التسلل إلى الخارج عن طريق شبكةٍ من القنوات الخفية. وبناءً على ذلك، انطلقت الموجة الثانية للهجمات مرةً أخرى بأمر من سليمان خان، وتم تسيير دورياتٍ في المحيط الخارجي، ووضعت منافذ الخروج المحتملة كلها تحت المراقبة، ولم يكد يمضي وقتٌ طويلٌ حتى اتضح أن المسارب الممتدة تحت أسوار القلعة كانت ضرباً من الخيال.

وعلى الرغم من إبلاغ المدافعين عن القلعة باستمرار أنهم سيعاملون برحمةٍ، وسيكونون أحراراً في التوجه إلى أي مكانٍ يرغبون فيه إن ألقوا السلاح وسلموا المدينة، فإن الجواب الذي كانوا يقولونه هو نفسه دائماً: «نفضل الموت محاربين على الاستسلام». استبشر سليمان خان وبشر الجنود بأن ثروة بلغراد الحقيقية في القلعة الداخلية، وأن الغنائم كلها باستثناء أبنية المدينة وأسوارها ستكون للجنود، فشنّ الجيش على الأسوار بحماسة متجددة حملةً شرسةً غيّرت مسار المعركة تماماً.

في هذه الأثناء، خطرت لي فكرةٌ مرعبةٌ لم أنتبه لأبعادها السلبية. كنت أقترح أن يتمّ إقناع المرضى الموبوئين ومرضى الجذام الموجودين تحت الحجر الصحي في المستشفيات بالنزول في إحدى الليالي إلى القلعة الداخلية سراً مقابل مبالغ ضخمةٍ تدفع إلى ذويهم، وكنت أرى أن المجريين لن يجرؤوا على التفكير بالتصدي لوباءٍ يبدأ في هذا الحر، إلا أن الوباء إن انتشر فسيصعب التخلص منه. وعندها، إن استسلم العدو

بسبب المرض، فسيكون علينا إغلاق أبواب القلعة من الخارج هذه المرة، وإحراق القلعة الداخلية بمن فيها.

لا زلت أذكر أن سليمان خان كان يجول في المكان، وفي إحدى يديه كأسٌ بلورية مليئة بالثلج وعصير الكرز. وحين طرحت فكرتي، رمقني بنظرةٍ حادةٍ تناسب فكرتي التي لا ترحم، وصمت برهةً من دون أن يتكلم، وقد لمعت في أعماق عينيه الشهلاوين وعلى وجهه المتعرق قليلاً أشعة غريبة قبل أن تغيب. ووجد بيري باشا في الموقف فرصةً لا يمكن تفويتها:

– ألا تملك بقية وجدانٍ أيها الرجل؟!

– بلى. ولكن لاجوس لن يشفق على من يسلّمون قلعةً تحمل أهميةً تاريخيةً كبلغراد. وقد فتحت قلاعٌ كثيرةٌ بأساليب مشابهة على يد الإسكندر ويوليوس قيصر!

في تلك اللحظة، زمجر سليمان خان وهو يقول: «لكنني سليمان!». تمنيت حينها أن تنشق الأرض وتبتلعني. ثم أضاف سليمان: «سأعتبر أن هذا الاقتراح لم يقدم مطلقاً». وأنهى الموضوع. كنت في موقف لا أحسد عليه، وقد قدّمت ورقة رابحة لمن يكنون لي الكراهية.

تنحنح بيري باشا وأضاف:

– من الأفضل الانتظار بصبرٍ يا مولاي السلطان! فليس أمام شجعان إقليم الهنغار هؤلاء غير الاستسلام، وليس هناك ملاذٌ آخر.

«سنقوم بما هو أفضل من ذلك». قال سليمان خان ذلك ثم التفت إليّ مضيفاً: «عليك أن تجد خمسين ممن تحجرت قلوبهم مثلك يا إبراهيم. سنضاعف الهجوم غداً ليلاً على موقعٍ مختلفٍ غير متوقعٍ، وسنقوم بإنزال الرجال على الأبراج بواسطة الرافعات. فأنا لم أعد أتحمل المزيد من الفشل، وليأخذ كل واحد حذره، فهذه المدينة باتت تخنقني، ولا أريد أن أحارب فيها أكثر، أو أماطل أمامها أكثر».

حين غادر بيري باشا الفسطاط لم يلتفت إلي قطّ، ولم يقل شيئاً، بل كان يبتسم لأنه يعتقد أنه تعادل معي هذه المرة.

وفي الساعات الأخيرة من الليلة التالية، بدأت فرقة المهتران تعزف فجأةً لحن الهجوم، فقام على الأقل طابوران من الجنود الفلاحين بالهجوم على القسم الثالث الذي نسميه في الخرائط القطاع الشرقي، فيما يسميه سليمان خان عتبة جهنم. وخلال ذلك، سحبنا الرافعات المتحركة بمساعدة الفيلة إلى أقصى الجناح الغربي من الأسوار، وانتقل إلى المكان خمسون رجلاً قويًّا لارتقاء الأبراج في صمتٍ. وعلى الرغم من أنهم كانوا يرتدون لباس المشاة المجريين ودروعهم، فقد استطاع المجريون المدافعون عن الأبراج تمييزهم، ورأوا أنفسهم وجهاً لوجهٍ أمام هؤلاء المحاربين الشجعان، فسارعوا إلى رفع الرايات البيضاء تباعاً على ست نقاط، ظناً منهم أنهم قد فقدوا السيطرة على الأبراج تماماً. وعقب هذا الانهيار المفاجئ للدفاعات، أعلن الفرسان المجريون عن رغبتهم في التباحث حول شروط وقف إطلاق النار.

وعلى الرغم من ذلك، استغرق قدوم هيئة المبعوثين التي ستباشر بالمفاوضات أربعة أيامٍ. استقبل سليمان خان القادمين غاضباً، ومن دون أن يتخلى عن دماثته العظيمة، أعلن عن تقديره لشجاعتهم وحبهم لوطنهم، وقال لهم إنّ عليهم الاستسلام من دون قيدٍ أو شرطٍ لوضع حدٍّ لهذه الحرب التي لا معنى لها. أطرق رئيس المبعوثين الفارس زابو راسوليني واستغرق في التفكير وهو يهز رأسه يمنةً ويسرةً. وعلى الرغم من مظهره المتميز ببنطاله الحريري الأزرق الضيق، وجزمته الجلدية الحمراء التي تصل حتى ركبتيه، وقميصه المطرز، وعباءته المصنوعة من الساتان ذي اللون البني المحروق والتي يغطي بها كتفيه بدا رثّ المظهر إلى جانب وزراء مولاي السلطان.

كان سليمان خان خلاّباً بشكل غير متوقعٍ؛ مثل قوس قزحٍ تولد

بعد عصرٍ ماطرٍ. كانت الخطوط الرفيعة المرتسمة على وجهه تفصح عن نضج شيخٍ مجرّبٍ. كما كانت عباءته القطنية الطويلة المطرزة المصنوعة في بورصة، وقفطانه المزين بالمجوهرات، وسرواله الأخضر الزمردي المطرز بخيوط الذهب تضفي عليه مظهراً أنيقاً. وخنجره المطعّم بأحجارٍ كريمةٍ مختلفةٍ - الذي لم يفارقه منذ خروجه في الحملة - وجزمته المصنوعة من جلد الماعز الذي تنعكس عليه الأشعة المنبعثة من القناديل يجعلانه يبدو وكأنه من عالمٍ آخر مفعمٍ بالأحلام.

سادت لحظات صمتٍ أخرى، ولم نكن على عجلة من أمرنا. لكن سليمان خان، على الرغم من كونه على مشارف تحقيق هذا الإنجاز التاريخي، فقد كان يضيق صدراً من طول الانتظار. هذه المرة، لم يجد أورخون جلبي طريقاً يتسلل من خلاله إلى هذه القلعة المحمية. لكنه لم يكن مسؤولاً عن هذا، فما من شكٍّ في أن اختراق قلعةٍ كهذه لا تسمح لأهلها بالخروج بقدر منعها من يريد الدخول إليها أمرٌ صعب. وفي النهاية، فتحت أبواب القلعة، واستسلمت المدينة من دون قيدٍ أو شرطٍ، وأصبح الفرسان ومرافقوهم والمدنيون أسرى حرب. وفي اليوم التالي، دخل سليمان خان المدينة، وفي عينيه الشهلاوين نظرة حزينةٌ مفعمةٌ بالكبرياء، وهناك أصدر فرمانه الأول بحق بلغراد:

«محافظ المدينة، ابن عمتي الغازي الأمير محمد باشا، والمعروف أيضاً بالي بك، يخصص له من الخزينة الخاصة مبلغ تسعمئة ألف آقجه سنوياً، وتضاف إلى أسوار المدينة مئتا مدفع لزيادة تحصينها، ويترك فيها ثلاثة آلاف من جنود اليني تشري المتمرسين للدفاع عنها، ويعاد بناء كل المباني المتضررة والمدمرة لتعود أفضل مما كانت عليه، وكل ذلك بإمرة بالي بك. وفي البداية، يجب أن تحوّل الكنيسة الكبيرة في بلغراد إلى جامع حتى نتمكن من أداء صلاة الجمعة هنا. كما آمر ببناء مسجد، وخان،

وحمّام، وعمارة[1]، ونزل للقوافل في وسط المدينة؛ لتكتسب المدينة هويتها العثمانية. كما يتم تشييد المباني اللازمة لتكون مخازن للذخيرة، ومصنع المدفعية، ومستودع البارود. ولا يجب أن يظلم أحدٌ أبداً، وتطبق العقوبة في حقّ من يظلم دون تأخير».

* * *

وغدت بلغراد التي أمضينا فيها تسعة عشر يوماً، وتمتعنا بجمالها التاريخي والطبيعي اعتباراً من اليوم دار جهاد؛ كما سماها سليمان خان إرضاءً لطلبة مدارس أدرنه، وفيليبه، وصوفيا. لم نكن قد غادرنا المدينة بعد حين بدأت أخبار الأميرين الغازيين ميخال أوغلو وتورخان لي تتوارد تباعاً، وتنقل للسلطان معلومات عن استيلائهما على قلاع صلان كمان، وقارلوفجا، وميتروفيجا، وباريتش، وكولبنيك، وأويلوك، وبكراس.

كما أعلن السلطان سليمان أنه بوسع الرعايا الصرب والبلغار الذين شاركوا في الفتح وكان لهم فضل كبير فيه أن يأتوا إلى إسطنبول، ويسكنوا في الأراضي المخصصة لهم في يدي قوله، وسيلفري قابي. وأضيفت إليهما في ما بعد بيوك دره.

في إحدى الليالي الأخيرة في المدينة، استدعاني سليمان خان إلى خيمته في ساعةٍ متأخرةٍ. كانت تلك الليلة مميّزة برائحة الدانوب الخاصة، وصرير الجنادب الإيقاعي الممتزج مع نقيق الضفادع، فكانت سيمفونية ليالي الصيف تلك تدفع الإنسان إلى حالة بين النوم واليقظة.

كان مولاي يريد أن يعرض عليّ رسالة جاءته من حبيبته حرّم. كان مغموراً بالأضواء الكهرمانية المنبعثة من القناديل ذات الرؤوس الفضية والذهبية والقوائم البرونزية، والتي تظهر مدى فرحه بتلك الرسالة. وكانت النظرة الساكنة في عمق عينيه تدل على عشقه الشديد وهيامه. أمّا تلك البسمة المعهودة المستقرة في ثنايا شفتيه المظللتين فقد أصبحت خاتم

(1) تكية يقدم فيها الطعام للفقراء والمساكين وعابري السبيل.

عشقه المتزايد يوماً بعد يوم.

قال لي: «اقرأ يا أخي الطيب، فما تراه على وجهي ليس إلاّ علامةً على فرحي الشديد بهذه النعمة التي أتمتع بها برعاية الله أولاً، ثم بفضلك أنت».

في تلك اللحظة، أدركت وجود ذلك الشاعر في أعماقه، ولم أستغرب مطلقاً. فقد كان فناناً حقيقياً ضاق ذرعاً بالمسؤولية الدنيوية الملقاة على عاتقه. نعم، لم تكن مشاعره تلك غريبة. مددت يدي مبتسماً، ورفعت الورقة المتميزة برائحة زكيةٍ تفوح منها وبدأت أقرأ:

«بعد تقبيل الأرض التي تدوسونها مئات المرات، شمسي، ورأس مال سعادتي، ومولاي السلطان، إن سألتم عن مسكينةٍ احترقت بنار الفراق، واكتوت منها، وتحطمت بسببها روحها، وامتلأت عيناها بالدموع، وغرقت في بحر الحسرة حتى استوى عندها الليل والنهار... إن سألتم عن جاريتكم التي تُذكِّر بعشقها لكم بفرحات ومجنون ليلى، فأنا يا مولاي قد أصبحت بسبب آلام فراقكم وآهات بعدكم عني كبلبلٍ توقف عن الشدو والتغريد، وصرت أعيش في عذابٍ ولوعةٍ لا أتمناهما لأعدائي. يا مولاي، أنا أحبكم».

- آمل أن يرزق الله الإنسانية كلها حباً حقيقياً كهذا. ماذا أقول غير ذلك يا مولاي؟! وعندها، ربما سيكون الظلم في الدنيا أقل.

- اقرأ الكلمة الأخيرة مرةً أخرى.

- أحبكم! كان الحبر سابقاً بلون الصدأ، أمّا في هذه الكلمة فالحبر سميك أكثر مما أعرفه.

- هل لاحظت ذلك؟

- كنت أنظر إلى ذلك يا مولاي...

قلبت الورقة وتلمستها بأطراف أصابعي، ثم قربتها من الضوء، وأضفت:

– هذا... إن كان ما أفكر به يا سيدنا...

– إن الأمر كذلك يا إبراهيم. لقد كتبت الكلمة الأخيرة بدمها.

لقد فاجأتني فتاتي الجارية. فهي لم تكتف بإنجاب الأمير محمد لسليمان خان، بل ها هي الآن تستعد لدورٍ أكبر كانت تستهدفه أصلاً؛ هذا الدور كان دور امرأةٍ لا يمكن التخلي عنها. وإن سارت الأمور هكذا، فلن تنتزع من السلطانة ماهي دوران مرتبة الحسكية[1] فقط، بل ستكون أماً لسلطانٍ أيضاً. لقد كان الأمير مصطفى ذاك الولد الوسيم الذي أمضيت معه أوقاتاً طويلةً ممتعة الوريثَ الأول للعرش. وما يمكن أن ينجم عنه هذا الصعود السريع لحرّم بدأ يفزعني.

– أحببت الرد على هذه الرسالة برباعيةٍ يا إبراهيم! فهلاّ قرأتها.

أخذت الورقة التي كتب عليها بخطٍّ جميلٍ، وبدأت بالقراءة:

«ليتني أنظر إلى نور جمالك يا فراشة روحي

صديقتي، أنت شمعةٌ، وأنا العاشق الذي يدور حولك كالفراشة

أصطاد طائر الروح في بستان جمالك

وحال المحب جنونٌ في شباك شعرك»

– مرحى لك يا مولاي. ريشتك تقطر حبًّا، كم هو رائع عشقك هذا.

– وأنت يا إبراهيم، ألم تعشق امرأةً حرةً يوماً؟!

طوال سنوات صداقتنا لم يسألني هذا السؤال مرةً، فلماذا يسألني إياه الآن؟ وكيف خطر له؟ شعرت بقلقٍ مدهشٍ وكأن النار تشتعل في معدتي، وسرت قشعريرة على طول ظهري، وانتابني اضطرابٌ شديدٌ وأنا أفكّر بحرّم. فمنذ اللحظة الأولى كان بإمكاني أن أختارها لنفسي، فأنا أستطيع جمع مجوهراتٍ وأشياء ثمينةٍ لحسابي سراً، وكان بإمكاني أن أفعل هذا معها أيضاً... كان على حرّم أن تبقى على العهد، وعهدنا لم يكن مدوناً على الورق، لكن كل شيءٍ كان واضحاً. لقد بلغت حرّم ما وصلت إليه

---

(1) المحظية.

اليوم بفضل رعايتـي، وكان عليها لقـاء ذلك أن تؤمّن معرفتـي بكل خطوةٍ يخطوها السلطان قبل الآخرين.

– لكـن، الآن هنـاك مشـكلة تكبـر باسـتمرارٍ يـا إبراهيـم. إن هنـاك انسـجاماً كبيراً بين زوجاتي فلانـة، وماهي دوران، وكول فام، وأخشـى أن يجعل تحالفهن هـذا الحياة لا تطاق بالنسـبة لحرّم. فهي لا تـزال صغيرةً وتحتاج إلى رعايةٍ!

قلت في سـرّي وأنا أضحك: فـي الحقيقة، هن اللواتـي يحتجن إلى رعاية، ألم تدرك هذا بعد يا سليمان؟!

– إنهن لا يدخرن وسـعاً فـي فعل أي شـيءٍ لتحويل حيـاة حرّم إلى كابوس. وأنـا الآن بعيد عنها، وهي بعيـدة عن رعايتي. ربمـا ضاقت ذرعاً بهنّ يا إبراهيم! ووالدتي السـلطانة حفصـة، آه من والدتي! كـم مرّة نبهتها في هـذا الخصـوص، لكنها كانـت تقف دائمـاً إلـى جانب ماهـي دوران. ورغم ذلك، إنها تقيم نوعاً من التوازن بيـن زوجاتي. أطال الله تعالى عمر والدتي. كيف ستكون الحال في القصر لو لم تكن موجودةً يا إبراهيم؟

– هذه حـال النسـاء يا سـلطاني. وكمـا تعلـم، نحن مضطـرون إلى الاعتناء بهـنّ. لكنْ، يصعـب دائماً تحقيـق كل مطالبهنّ. لـم أر في حياتي شيئاً أصعب من مداواة قلب امرأةٍ جريح.

سـكت عـن الـكلام لحظـة كـي أسـتريح، والفضـول فـي داخلـي يدغدغني، فقد أحببت أن أسـأل السـلطان سـؤالاً لم أسـأله إيّاه مطلقاً من قبل:

– ما الـذي يميـز حـرّم عندكـم عن سـائر النسـاء فـي الحرملـك يا سلطاني؟! لديكم أجمل النسـاء، وحرّم ليسـت أجمل جارياتكم بالتأكيد، لكنها من غير شكٍّ الأحبّ إلى قلبكم.

ميـزةٌ حلوةٌ أضيفـت إلى مظهـره المهيب؛ إنه الشـعور بالحيـاء. فقد ابتسم وأرخى بصره نحو الأسفل بهدوء وهو يقول:

- إن حرّم متعلقةٌ بالحياة والأحداث، ولا تكثر الحديث عن نفسها كبقية النساء، ولذلك فأنا لا أشعر بالضيق معها أبداً. كما أنها تسعى إلى إخفاء عيوب زوجاتي ومحظياتي عنّي خوفاً من غضبي، وتحب الحديث عن حسناتهن بدلاً من استغابتهنّ. وهي لا تدفع بنفسها إلى المقدمة أبداً، ولا تسعى إلى إفساد علاقتي مع بقية محظياتي، ولذلك تكبر في عيني يوماً بعد يوم. ثم إنها تسرّ كثيراً بسماع أشعاري وخططي، وبحديثي عن المستقبل، ولديها آراءٌ صائبةٌ في السياسة الخارجية العثمانية. ولو كانت رجلاً لاستحقت بالتأكيد أن تكون وزيراً. استغرق في تأمل عميق، ثم تابع:

- حين تتحدث عني أحب في عينيها تلك النار المشتعلة، وأحسّ فعلاً أن هناك من يحرص عليّ حقاً. في أجواء كل هذا الكذب والنفاق المحيطين بي يا إبراهيم، كنتما لي حقيقتين ثمينتين. وابتسم في مرارة وأضاف: «وما الذي يتغير لو كنتما كذبة كبرى أيضاً؟ إنني ما زلت ممتناً لك لأنّك قدّمت لي هذه الهدية، وما زلت أشعر بالسعادة في داخلي بفضلها. أما غير ذلك فلا يهمني الآن...».

حقاً، إنّ هذا الرجل يثير في أعماقي أنبل المشاعر. وفي تلك اللحظة، أقسمت على ألاّ أمسه بضرر ما دمت حياً، وقلت والدموع منهمرة على وجهي: «لو كنا قد التقينا في ظروفٍ غير هذه الظروف، وفي حياةٍ غير هذه الحياة هل كان من الممكن أن تتخذني صديقاً لك يا مولاي السلطان؟».

- قل اسمي يا إبراهيم... الآن هو الزمن المناسب لفعل ذلك. خاطبني باسمي، قل لي سليمان ولو همساً... قل اسمي حتى ترتخي قبضة التوحد المرعبة التي تمسك بقلبي بشدة تحت هذا القفطان السلطاني! قله حتى ترتخي تلك القبضة القاسية ولو للحظة!

همست بصوت مخنوق: «أنت أفضل أصدقائي يا سليمان».

- وأنت أفضل صديقٍ لي يا إبراهيم...

استأذن آغا الخدم بالدخول، وترك طستاً فضياً مطلياً بماء الذهب، ومزخرفاً بالألماس، ومغطى من الداخل بحجارة خضراء شفافة لغسل قدمي السلطان، ثم خرج لأنه لم يعد هناك أحدٌ يجهل أن هذا واجبي. كنت في كل مرة أغسل فيها قدميه، أشرب الماء من الطست حتى القطرة الأخيرة. كانوا يقولون من ورائي: «كان يقص أظفار جلالة الشهريار[1]، ويشرب الماء الذي يغسل به قدميه الشريفتين». ما كان لي مثيلٌ في الدنيا. فالناس لا يفكرون أبداً بالانتقال من التقليد إلى التحقيق، ولا يعقلون أبداً أن الإنسان يدفع الكثير من أجل مستقبلٍ مرتقب، ولا يعلمون أنني يجب أن أكافح أمام منافسةٍ شرسةٍ. يتراءى لي خيال تلك الجنية ذات الشعر الأحمر بهدوء، وأكاد أسمع همسها ضدي لسليمان. حرّم... حرّم... روكسلانا، حذار أن تنسي كيف بلغت هذه المرتبة لدى السلطان. حذار أن تديري ظهرك لي، وإلاّ فسأقوم بأعمال ضدك ليس بإمكانك تخيّلها، ولن تصدقي حينها سرعة سقوطك. لقد قطعت علاقتك معي مؤخراً، ولكنني لن أسمح بهذا أبداً.

---

(1) الحاكم.

خطوات قلبٍ أسيرٍ
(سليمان خان)

I

«تتماوج الأرواح الأخرى مع الموسيقى،
وروحي يا حبيبتي تسبح في عطرك!».

بودلير

(حذار ! لا تخدعنك الدنيا، ولا تغرّنك
ومهما عظمت فكن كالنمل في صميمك
من ذا الذي يأتي ليرضى بكل داء وشقاء
ألم تسمع أن الدنيا ليست دار سعادة
لا تتكبر ولا تحسد، ألم تر الشيطان المطرود من الجنة
ولا تعتمد على زهدك، أما رأيت حال بلعام أور[1]
اصبر، فبالصبر تستخرج الحلوى من العنب الفج
ولا تنس أبداً أن يكون لقبك يا صبور
تلوثت هذه الروح بوسخ الدنيا
فاجهد بالتوحيد حتى يمتلئ مكانه بالنور

---

(1) عابدٌ من بني إسرائيل، عاش في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، وكان مستجاب الدعاء، أغراه بنو إسرائيل ليدعو على موسى عليه الصلاة والسلام بامرأة مشهورة الجمال فضلّ.

أي محبي، لا تركن إلى عرشك وقدرتك
ففي القبر الآن بهرام القوي[1]

استغرق عبور الجيش جسر ساقا الذي شيّده المعماريّ سنان بن عبد المنان قبل الحصار يومين. في الليلة الأولى، كان هناك مطرٌ خفيفٌ يغسل ضفتي النهر، وارتفع ضبابٌ خفيفٌ، وانتشرت في الأجواء رائحة دخانٍ وطحالبٍ، وبعض قطرات الندى... كان صخب الجنود السعداء يصمّ أذنيّ؛ فالاحتفال بات من حقهم. وشعوري بالاعتزاز بشجعاني ملأ صدري فخراً. ولكنني في الوقت نفسه أحسست بألمٍ مجهولٍ يطعن قلبي ألف مرّة. ماذا كان سيحصل لو لم يعتد رجال إقليم الهنغار على حقوقنا؟! أغمضت عيني، وابتسمت حين تذكرت تلك الليلة التي باركت فيها آلامي وشوشات الريح الممتزجة مع اضطراباتي الداخلية. مهما يكن الأمر فأنا سلطانٌ مظفّرٌ، أليس كذلك؟! وأنا الوريث الحي الوحيد والحقيقي لهذه السلطنة، وظل الله على وجه الأرض... ولكن، لهذا السبب سيسألني الله عن كل ظلمٍ ارتكب باسمي... إذاً، كيف يضحك من يحمل على عاتقه مسؤولية كلِ هؤلاء البشر؟! إلاّ أن ظهوري بمظهر الحزين أمام أعضاء ديواني أمرٌ غير مناسب؛ فلقد حققت نصراً كبيراً وهاماً. إن بلغراد التي صدت جدَيّ مراد الثاني والفاتح باتت تحت قدمي الآن.

إذا كان النصر قد تحقق باسمي، فإن الغلبة الحقيقية لوزرائي وقادتي الذين يجتمعون الآن في حضرتي في الديوان باحترامٍ وسكونٍ. إنّ الإرادة التي لا تضطرب لأولئك قد تحولت الآن إلى سيلٍ يجتاح الأسوار، وعليّ الاستمرار في سياستي الدقيقة، كما يجدر بي الانتباه إلى تحذير الإداريين المنتمين إلى جماعاتٍ إثنيةٍ مختلفةٍ من بعضهم، والحفاظ على التوازنات الدقيقة بينهم.

---

(1) كان بهرام إمبراطوراً على الإمبراطورية الساسانية بين عامي (438–421م).

سعلت سعالاً خفيفاً لألفت انتباه الحضور، ثم شرعت في الكلام:

«كان أبي يقول إن المجاهدين الأبطال الذين حوّلوا الأناضول إلى وطنٍ للأتراك لديهم تسع خصالٍ. الأولى: قلبٌ لا يخاف، والثانية: قوة السواعد، والثالثة: الحماسة، والرابعة: درعٌ متينة، والخامسة: قوسٌ مشدودة، والسادسة: سيفٌ مسلول، والسابعة: رمحٌ يثقب الدروع، والثامنة: صديقٌ حميمٌ، والتاسعة: حصانٌ جيدٌ. نعم، حصانٌ جيدٌ. لقد منح أجدادي الفرسانَ النصارى في البلقان الأراضي حسب أجناس خيولهم وقوتها. واعتماداً على قوتهم قبلوهم بين النبلاء ومنحوهم التيمارات، وبقي الجنود المشاة على الدوام أتباعاً ورعية. إلا أنه أيها الأصدقاء، كان هناك مجاهدون أبطال حاربوا رغباتهم، فهزموا العدو الأساسي؛ وهو الأنانية. ومن هنا ينبع اهتمامنا بالعلماء السنّة؛ لأنهم عندما يحاربون أنفسهم ورغباتهم فهم لا يعرفون الانحراف نحو الهزيمة والفرار، ويسدّون الطريق أمام الشيطان. نعم، إن جنودي من اليني تشري أغلبهم بكتاشيون[1]. لكنّ وضعنا لا يشبه وضع الآخرين، ويجب علينا دائماً أن نكون يقظين، وألاّ نخضع لنزواتنا، وألاّ نركن إلى أنفسنا. وعلينا أن نكون متأهبين وكأن الجمر تحت أخمص أقدامنا. ولذلك سلّمنا أرواحنا للتعاليم السنية. والحقيقة هي هذه بالنسبة لنا، ونراها الأنسب لرعيتنا[2]».

تعلمون جيداً أنه في المراحل الأولى من قيام دولتنا العلية، كان سكانها في الغالب من الرّحل القادمين من آسيا الوسطى. وتقاليد القزلباش وأعرافهم كانت ملائمةً لحياة الترحال هذه صراحةً. ولهذا، كان الأطفال النصارى الذين يقدّمون إلى عائلاتٍ مسلمةٍ في الأناضول

---

(1) نسبة إلى الطريقة البكتاشية.

(2) يبدو أن السلطان سليمان كان يحاول معالجة مشكلة ميل الجنود الإنكشاريين للتمرد والفوضى.

يتعلمون إسلام القزلباش، فيمنحهم إسلامهم مرجعيةً وشعوراً بالأخوة والوحدة. وكما تعلمون، إن زواجهم وانشغالهم بالتجارة ممنوع، وأصدقاءهم في مؤسسة الينى تشري إخوتهم، والسلطان باعتباره الإنكشاري الأول أبوهم. إن الشعور بالوحدة هذا يوهمهم بأنهم قوة كبيرة لا يمكن تجاهلها وتجاوزها؛ وهنا مكمن الخطر. ولهذا السبب، يجب أن يخضع الينى تشري لنظامٍ تدريبيٍّ متميز!».

ينقل حملة المشاعل مشاعلهم الكبيرة إلى الداخل محمولةً على عصيّ طويلةٍ، وفي نهاياتها مناقل زيتية. سأرى في هذه الليلة وجوه الجميع بوضوح. وفيما كنت أتأمّل الوجوه حولي، دخل وهيمي أورخون جلبي مستأذناً، فرفعت صوتي وأنا أقول: «والموت...» دقق أورخون جلبي النظر إليّ بعينيه الصغيرتين، وهو يحاول التقاط أيّ إيماءةٍ سريةٍ ربما كانت كلماتي تحملها!

«... الموت مقدّر لكل واحد. وهو حق للسني والقزلباش. نعم، تمارس الدولة سلطتها إلى جانب السنة، لأن هذا البنيان هو الأنسب من أجل إقامة دولةٍ كبيرةٍ مستقرةٍ. وعلى الدولة أن تكون رحيمةً، وأن تعامل رعاياها بمساواة، وألاّ تحيد عن العدل مثقال ذرة واحدة...

هناك حقيقةٌ واحدةٌ نراها اليوم نحن ومجاهدونا الذين يتقدمون داخل أوروبا؛ ألا وهي حقيقة الموت التي يختلف صداها في تلك البقاع عنه في بلادنا. ففنها المعماري يعبر عن هذه الحقيقة في أنصع بيان؛ فالفن المعماري الغربي يقوم على أساس الوجه البارد والمدهش للموت، لذا يمكن أن نشاهد فيه النحوت والنقوش والهياكل التي تزعج الأرواح الشريرة بحسب رأيهم. أما الشرق، فهو بالإضافة إلى إثارته الراحة في النفوس بفنه الصافي[1]، يعانق الموت عناق حبيب مرتقبٍ!

---

(1) الخالي من الرموز والهياكل والأشكال.

حين ترى جنازتي لا تقل إنه الفراق!

فذاك وقت لقائي وصحبتي.

تراه غروباً في ناظريك، لكنه الشروق.

ربما القبر يبدو سجناً، لكنه للروح خلاص.

ألا يقول هذا حضرة مولانا[1]؟! إنه الفارق الفكري الأساسيّ بيننا. إنه ينبع من الفرق بين صدى الموت لدى كل منا. إنّ رؤية الموت هي التي تؤسس أيضاً للبنيان الروحي والفكري للإنسان.

دققوا إن شئتم في البنيان المعماري الخالص[2] لهذا الجسر المقام فوق نهر ساقا، إن الرجل الذي بناه هو المعماريّ سنان بن عبد المنان الذي اشترك مع أبي في حملة مصر، وهو الآن يخدم في الييني تشري. إنه رجلٌ موهوبٌ جداً، يمكنه لو أراد أن يترك بصماته على مبانٍ فخمةٍ كثيرةٍ بسهولةٍ، وقد أمرته الآن أن يعرض عليّ مخططاته ومشروعاته؛ لأن ذكاءً خارقاً كهذا لا يمكنه أن يرقد من دون إنتاجٍ. إنني على ثقةٍ بأنني سأرى موسيقى السكون والاستقرار قبل المقاييس الدقيقة للحديد والحجر. وبمناسبة ذكر الموسيقى، قارنوا إن شئتم بين ألحان عبد القادر مراغي (ماهوركار، ورست كار كبير، ونهاوند كار كبير، وسيكاه كار من الدرجة السادسة[3]، ورست كار) في حيدرنامته، وبين الموسيقى الغربية التي أبعدت عن الحياة الاجتماعية مئات السنين في ظل تحكم الكنيسة بها بحجة أنها خطيئة، حتى تم تبسيطها في أعمال غريغور، فبدأت تنتعش فيها روح الحياة مؤخراً، وبمشاركةٍ خاصةٍ من قصر بورغوينا، واسألوا أنفسكم أيهما أقرب إلى مفهوم الاستقرار.

---

(1) مولانا جلال الدين الرومي المشهور بمثنوياته.

(2) البعيد عن الزخارف وما شابهها.

(3) ربما يطلق عليه سيكاكار العراقي أو العالي.

والآن، فكروا بأزمة لوثر التي لم تستطع أوروبا تجاوزها بأي شكل من الأشكال، وقارنوا بين قسوة فن المجسمات المنحوتة وفن العمارة المتأثرة بالكنيسة الكاثوليكية في روما، وبين الاتجاه البروتستانتي الذي حاول تجاوز هذا. وتذكروا المنحوتات التي ترونها في كنائس باريس، وكنيسة نوتردام القوطية في ستراسبورغ، أو في شابليه الملكية. وتخيّلوا كاتدرائية سالسبوري في إنجلترا، وكنيسة سان ماركو في البندقية... إنها عظيمة، لكنها ثقيلة بمقدار عظمتها! إنها مبانٍ تعكس حالة الانحباس الروحي عندهم في أحسن بيانٍ. أما الآن، فقد آن أوان إخراج ملك إنكلترا هنري الثاني الذي يعاني منذ زمنٍ من تسلط اللوثريين والبابا من هذا الظلام إلى نورٍ جديدٍ».

فاضت عينا إبراهيم بالدموع المتزلفة وهو يقول: «أيها الخليفة، إنكم لستم خلاص أمتنا وحدها، بل خلاص الإنسانية كلها». قرأت في عيون الآخرين نظراتٍ غريبة، فشعرت بحاجة هذا المتملق الطيب لحمايتي: «حاشا يا إبراهيم! أنا عبدٌ ضعيفٌ، وما زلت شاباً، لكنني أعرف كيف أصغي إلى الكبار؛ وهذا دائماً يكون في صالحي!».

II

تشرين الثاني 1521م، إسطنبول

«في الأساطير الشمالية، يحكى عن شعبٍ فرّ من مواجهة جيوش روما التي لا تقهر، ثم اختفى عن الوجود». هكذا تهمس حرّمي وريح الشمال البارد تعزف ألحانها على نافذتنا، وتحرك بخفةٍ حواشي غطاء فراشنا، وأنا أصغي إليها، فيما أنفاسها الدافئة تداعب وجهي في سكون: «كثيراً ما تروى هذه الحكاية في بلادي. بعد فترة، يجد الفارون أنفسهم على ضفة خليجٍ ساكنٍ بعيدٍ. وبما أن الأطفال والنساء كانوا في حالةٍ مزريةٍ، قرروا الإقامة على تلك الضفة. وفي إحدى الليالي، في ساعة متأخرة، طوّقهم جنود روما، وأدرك الفارون أنهم ارتكبوا خطأً استراتيجياً هاماً حين لم يتركوا لأنفسهم سبيلاً إلى الفرار إلاّ الماء. ولكن، كان الأوان قد فات. فذهب بعضهم حصداً بالسيف، وهلك الآخرون غرقاً في البحر الذي رموا أنفسهم فيه.

تركت هذه الحادثة آثاراً مزلزلةً على الأقوام البربرية في ذلك الزمن. وسرت بين أقوام الشمال أسطورةٌ بسرعةٍ كبيرةٍ، يمكن أن تصادف مثلها في الثقافات الأخرى. إذ يروى أن صياد الروح يصطاد فريسته ليلاً، ويسحبها ويمزقها إرباً إرباً هناك في كهفه تحت أعماق ذلك الخليج الذي شوهد فيه ذلك الشعب المفقود، ثم يعيدها إلى أصحابها، وإنما بشخصيةٍ جديدةٍ تكون السعادة عصيةً عليها. فما يحبه في لحظةٍ، ينفر منه في لحظةٍ أخرى، وتتعرض أسعد لحظاته لهجومٍ مباغتٍ من ذكرياته التعيسة، وتتمزق.

هذا شعوري حين لا تكونون بجانبي يا سلطاني. إن ذاك الكائن

يتسلل إليّ في الليالي التي تغيبون عني فيها، وكأنه يخطف روحي ويغمرها في مياه الخليج المظلمة، ويفتتها إلى ألف قطعةٍ وقطعةٍ، ثم يقذف كل قطعةٍ في الفضاء اللامتناهي ويقضي عليها. وهكذا، أظل وحيدةً، بلا حولٍ ولا قوةٍ... ماذا لو أخذتموني معكم إلى كلّ مكانٍ ترحلون إليه؟ سيسعدني كثيراً وجودي معكم في أدرنة في رحلات صيدكم، وانتظاري إياكم في خيمتكم خلال حملاتكم».

فأضحك وأنا أمسح على شعر حبيبتي الناعم، وأشم رائحة المسك فيه: «كان الشاه إسماعيل يفعل الشيء ذاته يا حرّم. لم يكن يفارق زوجاته اللواتي يحبهن كثيراً، فقلبه الشاعري لم يكن يسمح له بمواجهة الموت بعيداً عن حبيباته. ولكن، ماذا حدث في النهاية؟».

- ماذا حدث؟!

- في جالدران، وقعت أحب زوجاته على قلبه بهروزة هانم المعروفة بتاج لي هانم - وكان جمالها ملحمةً على كل لسان - أسيرةً في أيدي العثمانيين. ونظراً إلى شدّة نار الانتقام المشتعلة في نفسه والدي، أمر بتزويجها لمؤلف فتح نامه؛ أمين السر وقاضي العسكر جعفر تاج زادة جلبي. وأسوأ ما في الأمر أن هذه المرأة الجميلة صارت زوجة لرجل مشوّهٍ بالجدري، ومنظره مخيف، وقد رثى لحالها رجال عظام، وسكبوا دموعهم حرى على تلك النهاية المأساوية لهذه المسكينة. فهل تظنين أنني أتحمل أن تكون عاقبتك هكذا؟!

- كان يمكن للشاه إسماعيل أن يرضي والدك بلهجةٍ مناسبةٍ، ويسترد زوجته.

هذا ما قالته ملاكي الطيبة، إنها لم تدرك بعد مدى قسوة الحياة!

ضحكت بصوتٍ مرير، ونظرت إلى عينيها النجلاوين الزرقاوين على ضوء القناديل الخافت: «يا حرّم، أمر أبي بتزويج تاج لي هانم لجعفر جلبي لأن الشاه إسماعيل تجرأ على مثل هذا طلب!».

تأوهت بصوت خافت، ودمدمت وهي ترتعش بين ذراعي كورقة ربيعٍ نضرة: «يا له من شيءٍ مخيفٍ!».

- إن الحياة نفسها مخيفةٌ يا حبيبتي. إن الوجود نفسه مصدر همٍّ. ومع ذلك يا حرّم، لقد حُكِم علينا بعيش هذه الحياة والكفاح فيها. ونحن نستطيع تيسير معركة الوجود هذه بحماية بعضنا، والحفاظ على تماسكنا.

- المهم ألاّ يتدخل أحد بيننا.

عرفت أنها تقصد إبراهيم. ولست أدري لماذا لم تعد تطيق مجرد سماع اسمه. وهمست:

- أخاف... أخاف من ذلك يا مولاي. أخاف من عينيه اللتين تنظران بخيانةٍ، ومن السم الذي تحت لسانه الحلو.

- لا تخافي أحداً. قلت ذلك وأنا أضمها.

كانون الثاني 1522م، إسطنبول

بعد حديث افتتاحي قصير، كشفت عن القرار الذي اتخذته حول مسائل أمن شرق البحر الأبيض المتوسط بعد استشاراتٍ ولقاءاتٍ مطولةٍ منفردةٍ مع كل من إبراهيم وبيري باشا: «باختصارٍ لقد حان الوقت يا سادة. لقد حان الوقت لشن حملةٍ على رودوس، وحان الوقت لإصلاح الغرب. سوف ننقذهم من محيط القسوة الذي يغرقون فيه. لقد حاصر جدي الفاتح هذه الجزيرة ثلاث مراتٍ، لكنه لم يوفق في فتحها. ولكنكم تعلمون أن فتح رودوس أمرٌ ضروريٌّ من أجل تأمين الطريق البحري الذي يصل إلى أكبر ولاياتنا بعد الأناضول؛ مصر، ولضمان سلامة رحلات الحج بمعناها الحقيقي، ولتخليص تجارة شرق بحر المتوسط من التسلط اللاتيني. إن هذه الجزيرة في موقعٍ يتحكم بكل الطرق البحرية، من سواحل الأناضول إلى جزر بحر إيجة، كما أنها عقدة الاتصالات بينها.

لقد نجح فرسـان جماعة القديس جان[1] في حكم هـذه الجزيرة منذ مئات السـنين، كما أن فرسـان المعبد الذين نزلوا تحت الأرض بعد حرق أسـتاذهم جان جـاك دي مـولاي لهـم علاقـاتٌ وطيـدةٌ مع هـؤلاء. ومن المعـروف أنّ هؤلاء جميعـاً يتحركون معـاً في نقـاط التقاءٍ كثيـرةٍ، خاصةً بتشكيل الفرق التي ترتب عمليات الاغتيال ضد اللوثريين؛ وهذا ما توصل إليه جواسيسـنا بهذا الخصـوص. كلماتي هذه لكـم جميعاً، ومـن يتهاون تضعف صلتـه بالله تعالـى، فلتكونوا متيقظيـن دائماً ومنتبهيـن. لن يتغلب عليكم أحد إذا كانت عقولكم نيّرة. إنني أصغر سـناً مـن معظمكم، لكنني ترعرعت مثلكم بين أحضان ياووز.

أستطيع أن أفهم جيداً هذه الريبة الصامتة البادية على وجوه الكثيرين منكـم الآن؛ وأنتـم محقـون في ذلـك. إذ إنكـم تعتقـدون أنه بعد سـقوط بلغـراد مباشـرةً، سـتوقظ فكـرة سـقوط رودوس الأوروبييـن من سـباتهم العميق بالتأكيد. لكن، لا تتوجسـوا مـن ذلك، وكل ما يجـب عليكم فعله الآن هـو أن تفتحوا عيونكم وآذانكـم جيداً، وتؤججوا حالـة الفوضى هذه في أوروبا، وتعملوا على الاسـتفادة منها. إن رحيل أبي ياووز المبكر حال دون تحقيقـه الكثير من مخططاته. ولو أن الله مدّ في عمره عشـر سـنوات أخرى، لاسـتطاع جعل كل أوروبا تركـع عند قدميه...». شـعرت بجو من الكآبة يخيم على المكان، وسـعيت جاهداً إلى حمل نفسـي على الخروج من هذا الجو وأنا أصدر الأوامر: «سـيكون وزيرنا الثانـي مصطفى جوبان باشـا مسـؤولاً عن قيادة الحملة، وقيادة أسـطولنا سـتقع على عاتق بحارنا الخبير مصلـح الدين قـورت أوغلو، وسـأكون معكم علـى رأس القوات. فليستعد الجميع طيلة الشتاء، ولتصلح جميع السفن الحربية تمهيداً لحملة رودوس، ولتسـحب الـزوارق الجديدة إلـى الزلاقات؛ ويمكننا الاسـتعانة بأهالي البندقية في هذا الخصوص، ولتصنع سـفينة حربية سلطانية خاصة،

(1) وهم فرسان مالطة.

ولتنشأ ورشةٌ خاصةٌ لهذا الغرض على ضفة الحديقة الخاصة، وسأتابع صناعة السفينة السلطانية بنفسي. وسأحيل مسؤولية هذا العمل إلى قورت أوغلو فور عودته إلى إسطنبول، فقد أثبت قورت أوغلو باستخدامه منظومة الآلات التي طورها في تدمير سفن الأعداء الحربية أنّه بحّارٌ موهوبٌ. فما رأيك أنت يا بيري باشا؟!».

بدأ بيري باشا الحديث بصوتٍ أجش غامضٍ: «مولانا، كما قلتم، يصنّع قورت أوغلو رافعاته من أفضل أنواع القنب من دون أن يغمسها في القطران، ويكتفي بوضع القليل من الإسفلت. وكان القطران يستعمل سابقاً ليكون القنب في يد صانع الحبال أكثر طواعية للفتل، وفي السفينة ليكون أكثر طواعية في الاستعمال، حتى اكتشف قورت أوغلو أن الإفراط في استخدام القطران لا يجعل الرافعات أكثر متانةً، ولا يساهم إلا في جعلها أكثر ثقلاً، وأقل قابلية للاستخدام. وعندها، ركّز عمله على الرافعات فجعلها رفيعةً، وأمّن متانتها بقطرانٍ خفيفٍ، وجعلها سهلة الاستعمال. فأصبح الانتقال بها أمراً يسيراً بالنسبة إلى ملاحٍ واحدٍ، ناهيك عن نظام Arkebüz[1]، الذي يمكن أن ننقل به الحبال إلى مسافات أبعد خلال لحظةٍ».

ابتسمت، وتكلمت بغرور: «بمثل مجموعتي هذه سوف نستمر في تحقيق إنجازاتنا بإذن الله. أتمنى أن أسمع آراءك حول الحملة أيضاً يا باشا».

«كما أشرتم يا سلطاني، سنزيد دعمنا للوثريين، وسنعمل على تأمين تحركهم بحريةٍ وأمانٍ، وعلى الأخص في هذه المرحلة؛ فهذا هام جداً. أما اتفاقية التجارة التي سنجددها مع أهالي البندقية فستسكتهم لفترةٍ طويلةٍ. إن أتباعكم الأرثوذكس، وحتى البطريرك نفسه؛ أصبحوا يتمنون

(1) سلاح ناري كان يستخدم في ذلك العصر، ويمكن من خلاله إيصال طرف الحبل إلى مسافات بعيدة في لحظة واحدة.

انسحاب الكاثوليك من شرق البحر المتوسط تماماً. إلا أنه في هذه الحالة سيستثنى أهالي البندقية!».

بدت على وجهي بسمةٌ مستهزئةٌ نوعاً ما وأنا أقول: «إن أتباعي الأرثوذكس يتمنون هذا. ولكن، ماذا سيفعلون في ما يتعلق بالأموال التي يجمعونها من القوافل التجارية؟! إذا انسحب الكاثوليك من الساحة، فإن هؤلاء سوف يبدأون الصراع مع الأرمن واليهود هذه المرة!».

يتقن الباشا الوصول إلى الحل الوسط كما في كل مرةٍ: «هذه عادة التجار يا سلطاني؛ فهم يفعلون كل شيءٍ من أجل تجارتهم وسلامتها من دون تردد. المهم أن نمنع جنودنا من التحرش بهم، وما تبقى غير مهم».

- على الأقل، أضيفوا إلى الاتفاقية التي ستعقدونها مع أهالي البندقية بنداً حول مرور المساعدات إلى ملك فرنسا فرانسوا الأول على متن السفن التجارية المتوجهة غرباً. فلم يعد هناك من يجهل دعمنا لفرانسيسكو. وإن احتاج الأمر فسأتحدث أنا مع المبعوث البندقي ماركو ميمو.

- لن نأمل بالحصول على عون الكفار يا سلطاني. إن أهالي البندقية الذين تضيق بهم ميادينهم التجارية يوماً بعد يومٍ مضطرون إلى التعايش مع شارلكان أيضاً. والقراصنة المرتبطون بنا يمكن أن ينجحوا في أداء هذا العمل إن بدّلوا ملابسهم.

- إنني أثق بخبرتك يا بيري باشا. إن ملك فرنسا الآن، هذا الشاب فرانسيسكو واحدٌ من أفراد أسرة كابي؛ وهي من أعرق الأسر الأوروبية. وهو ذكي ومتشبث بالحكم بقدر ما هو أصيل. كما أنه يقاوم الخضوع لشارلكان. وأذكر أنه كلما كانت أخبار محاولاته الرائعة تصل إلى والدي كان احترامه له يزداد. ولو أطال الله عمر والدي لقدم له المساعدة المادية بالتأكيد.

- إن كون فرنسا مستقلة عن شارلكان هام في وضع أوروبا بين فكي

ملزمة مولاي السلطان. إذ إن وجود دولة متطورة حديثاً في الغرب كفرنسا سيعني تحطماً كبيراً لحلم شارلكان. وفي هذه الحالة، ستنشغل ألمانيا بحماية حدودها الشرقية محققة بذلك تفوقاً معنوياً كبيراً.

وهنا، يستأذن إبراهيم للحديث.

- تحدث.

- مولاي السلطان، على الرغم من أن بيري باشا محقّ؛ إلاّ أن ما نحتاج إليه في هذه الأيام ليس فرنسا المستقلة عن ضغط شارلكان، بل على العكس فرنسا التي تئن تحت وطأة ظلم شارلكان.

كانت كل الأنظار مسلطة على إبراهيم مجدداً. وأنا أعرف غرامه بمثل هذه المواقف، وحبه لإثارة الحيرة لدى الناس؛ وهذه الموهبة المدهشة لديه لا يمكن إنكارها...

- ماذا تريد أن تقول يا إبراهيم؟!

- إن ما أريد قوله يا سلطاني هو أنه كلما استمر الضغط الألماني على ولايات فرنسا الشرقية، وفي مقدمتها ولاية بورغونيا، فإن فرنسا لن تتمكن من الخروج من دوامتنا. وكلما كانت بحاجة إلينا، كانت بمثابة خنجر لنا في خاصرة غرب أوروبا. ويجب تأمين استمرار هذا الوضع حسبما أرى يا مولاي.

بادر الوزير الثالث وكبير حراس القصر داماد فرحات باشا إلى تأييد البرغالي:

- إبراهيم آغا محق في ما يقوله يا مولاي. فما من أحدٍ يجهل أن فرنسا في الحقيقة عضوٌ أصيلٌ في الاتحاد الكاثوليكي. لكنّ الفرنسيين وبسبب اعتراضاتهم على زعامة شارلكان لأوروبا وعلى سياسته التوسعية، انكفأوا على أنفسهم، ولا يجدون مفراً من التقرب منا.

وأيّد كل من غازي محمد بك أفندي شقيق ابن عمتي قوجه بالي بك، والغازي خسرو بك، وأمير أمراء الأناضول قاسم باشا رأي البرغالي.

أليس هذا ما أريده أيضاً؟! بلى، أرى أن البرغالي محق. فهو سياسي محنك، وذكاؤه لا ريبة فيه، ولكنني أرثي لحال وديعة أبي وصدري الأعظم؛ فهو ينحدر بسرعةٍ كبيرةٍ، وعمره شارف على الستين، ويبدو أن هذا الصراع قد أصبح ثقيلاً عليه. فلننته من هذه الحملة أولاً، ولنر بعد ذلك ما سنفعله.

سارع طاش كوبرولي أحمد عصام الدين أفندي إلى نجدة الرجل العجوز، فتدخل مستأذناً باسم مستشاري القانوني شيخ الإسلام علي جمالي الزنبيللي أفندي:

- إن ما قاله بيري باشا ليس خطأً، وما سيحصل على المدى البعيد هو ما قاله بيري باشا يا مولاي السلطان.

أبدى الباشا بعض الارتياح لهذه المداخلة، وأبديت بدوري تأييداً للباشا:

- إن بيري باشا يرشدنا إلى الطريق المناسبة؛ وهو بعيد النظر. فعندما نضيق الخناق على شارلكان سيبدأ فرانسيسكو بالوقوف على قدميه، وكل ما أراد إبراهيم آغا أن يشير إليه هو أن لا يكون هذا النهوض مفاجئاً وقوياً، وإلاّ فلن يكون فرانسيسكو ممتناً لأحدٍ، وسيرفع رأسه في ولايته الصغيرة، وعندها لن أستغرب أن يشنّ حملة صليبية ضدنا يتعاون فيها مع شارلكان. لا يمكننا أن نثق به حتى النهاية.

صمت بيري باشا وقد احمر وجهه، لكن صمته هذا كان كدويّ الرعود الذي يملأ السماوات السوداء، أو كزئير الأعاصير الكبيرة. وأردت تغيير الموضوع:

- هناك همس يبلغ مسمعي حتى في هذا المجلس، ويزعجني كثيراً، وأريد في هذه الأمسية أن أشارككم إياه أيضاً. فأنا متأكدٌ من أنكم جميعاً قد سمعتم به. إذ يُقال: إن أبي أراد قتلي وتنصيب ولدي الأمير مصطفى مكاني، لكنه لم يوفق في ذلك. وكانت نتيجة التحقيقات التي

طلبت إجراءها أن هذه الإشاعة كانت واحدة من الأكاذيب التي لا تحصى التي تمّ إلصاقها بوالدي. فكما كانت قصة قتل أربعين ألفاً من القزلباش من قبل والدي تروى بين المسلمين لإثارة الفتنة على الرغم من وضوح السجلات التي تكذبها، كذلك الأمر في ما يتعلق بهذه الرواية التي لا تستند إلى أي دليلٍ. تذكروا أنني ولي عهد والدي الجليل، ولم يكن له وريثٌ على العرش غيري. يزعمون أن والدي لم يكن راضياً عن أسلوب حياتي المسرف حسب رأيه، ولذلك أراد أن يأمر بقتلي، ويجعل ولدي الأمير مصطفى الذي لم يكد يبلغ السادسة من عمره ولياً على عهده، وأن يشرف بنفسه على تربيته. انتبهوا أيها السادة، إن الحديث الذي لا يستند إلى أدلة واضحة تدعمه يؤدي بالإنسان إلى الهلاك؛ لذا امتنعوا عن قول الأكاذيب.

II

كانون الثاني 1522م، إسطنبول

كنت سعيداً لظهور سببٍ يدعوني إلى لقاء أخي الكبير في الرضاعة يحيى أفندي، والاستماع إلى نصائحه. ففي التاسع عشر من شهر تشرين الأول، أي بعد خمسة أشهر ويومين استغرقتها حملة بلغراد، وعند دخولي العاصمة مع جيشي في مراسم مهيبةٍ، عانقت أخي الغالي الذي كان يقف بين المستقبلين، لكننا لم نجد وقتاً للحديث. ثم تلقيت أخبار وفاة أولادي تباعاً؛ الأمير محمود خان، والأمير مراد خان، وابنتي السلطانة فلانة؛ ماتوا جميعاً في وباء الجدري. في تلك الأيام، كنت أتلوى حزناً عليهم، ولم أكن أرغب في لقاء أحدٍ، ونظراً لانشغالي شخصياً بالتحضير لحملة رودوس مؤخراً لم أستطع لقاء أخي.

وعلى الرغم من وجود بعض الحراس الخاصين والدفتردار سنان باشا، كنا نسير متنكرين فيما الثلج يهطل في شوارع إسطنبول فيبدو وكأنه غبار النجوم. وعلى طول الطريق المعبد بالحجارة، غطت العالم زرقة غير عادية؛ لعلها كانت بسبب الثلج، ولعلّ ذلك يرجع إلى شوقي إلى السير في مثل هذا الجو منذ زمن طويل. كانت أقدامنا تطأ طرقات تمتد إلى ما لا نهاية؛ لا تعرف بدايتها ولا نهايتها، طرقات ضيقة ومتمادية في الطول، تعلو تارة وتهبط طوراً، وعلى وجوه البيوت الخشبية المرهقة والمتكاتفة بحنان تلمح عيناي حزناً معتّقاً. ففي هذه المدينة أشياء قديمة استعصت بكل عظمتها على الانهيار، أم إن رد يحيى أفندي على سؤالي كانت فيه إشارة إلى هذا؟ كنت قد سألته فقط: «أنت إنسان مثقف يا أخي وذو رؤية بعيدة. فهلاّ تكرّمت وأخبرتنا بما تتوقع أن تؤول إليه عاقبة آل عثمان.

هل سينقطع نسلهم وينقضي عهدهم برأيك؟! وإن كان الأمر كذلك فما السبب؟».

لكن رد أخي كان غريباً: «وما الذي يعنيني في هذا الأمر يا أخي».

كنا نفكر ببلوغ هدفنا قبل أذان المغرب. كانت معظم الدكاكين ترخي ستائرها، فينبعث من تحتها لون رماديٌّ يُخيّل للناظر إليه أن النجوم تبثه.

كانت البيوت المبنية من الأخشاب التي نخرها السوس، واسودت بتأثير البرد القارس وشمس الصيف الحارقة متداخلةً مع المقابر. وكانت هذه الأزقة المتداعية تمر أحياناً أمام حدائق القصور الفارهة الغنّاء المطلية بلون فخاري ينيرها مثل لون الشمس في أثناء الغروب. لم يكن الدفتردار سنان باشا يعرف معظم أصحاب هذه البيوت التي تغطي نوافذها الأزهار المزروعة في أصص جميلة تحملها الركائز المنحوتة، والتي يغطي اللبلاب جانباً من جدرانها على الأقل. وكانت هذه البيوت تقع خلف أشجار الحدائق الكثيفة.

أما بيوت الناس العاديين، فكانت متكاتفة، وتكاد شرفات سقوفها تتلامس وتترك انطباعاً بميلانها إلى الأمام قليلاً. فيما الأزقة تبدو مظلمةً حتى في الأيام المشمسة، والملابس المنشورة على الحبال المشدودة تملأ الشوارع بروائح ماء الورد والصودا؛ وذلك عندما تهب ريح خفيفة. حينها، كنت أبتسم في حبورٍ، وأستنشق تلك الروائح الطيبة، وأتذكر أيامي في طرابزون.

كان صمت المقابر يثير نوعاً من السكينة في هذه الشوارع المتداخلة، وفي هذه البيوت ذات النظام الغريب. وشواهد القبور، على الرغم من تحطم بعضها خلال حركات تمرد الينى تشري، فهي تبدي حالةً من اليقين في وجه الموت البارد. بعد شوارع عدةٍ، ظهرت مناهل الماء الصغيرة والكبيرة المصنوعة من المرمر، والتي شيّدها بالتأكيد أهل الخير،

فشربنا من أحدها. إن إسطنبول تحتوي على نسيج من الأحياء. حيث يمكن رؤية الأبنية الفخمة التي نراها في المدن الأوروبية؛ وهذه لا توجد إلاّ في أحياء الفرنجة، وكذلك الأبنية البسيطة في الأحياء التركية الخالصة؛ والتي تتميز رغم مظهرها الفقير بأجواء حميمية فريدة.

بعد مسيرٍ طويلٍ وممتعٍ، وصلنا أخيراً إلى آق صراي. يسكن أخي يحيى أفندي في أحد الأوقاف هنا، ويشارك في مجالس العلم التي يعقدها شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي. وعلى الرغم من إصراري، فإنه لا يقترب من القصر، ولا يرضى بما أقدمه له في مركز إسطنبول. إنه يسعى فقط إلى إتمام تحصيله العلمي. وهو إنسان مختلف تماماً؛ إنه رجلٌ قديرٌ. وأنا على ثقةٍ بأنه في القريب العاجل سيترك بصماته المباركة في إسطنبول.

والآن، ها نحن نقف قرب باب الدار، وتهب علينا من البحر ريحٌ محملةٌ بروائح الملح والطحالب. أظلمت السماء تماماً، ولم يعد بالإمكان تمييز بيت أخي عن البيوت العادية المجاورة. ها هو يظهر بهدوءٍ من خلف بابٍ خشبيٍّ أصدر صريراً عندما فتحه، ويدعونا إلى صحن دارٍ غسلت أحجاره للتّو، يغطيه ضبابٌ خفيف. يسارع أعوانه بالاصطفاف في صفين، ويقفون أمامي باحترامٍ، وقد أحنوا رؤوسهم صامتين.

كان أخي يحيى أفندي ككل مرةٍ مرتدياً ملابسه البسيطة البيضاء، ومبتسماً، ومتوكلاً على الله. نتعانق، فتبعث نظراته الراحة في نفسي، وتلامس كلماته القليلة روحي. فهو في الوقت نفسه شاعرٌ وطبيبٌ، ويكتب أشعاراً جميلة تحت اسم مستعار (مدرّس).

يقولون: الله وحده يعرف العلم اللدني
ومسائل الشريعة يعرفها الشيخ
كيف يدري ما السواحل من كان في بحر الروح دفيناً
واللؤلؤ المكنون في الأعماق البحر يعرفه

لا يدرك أهل الأسباب قمة الذوق الروحاني
وعيسى خير من يعرف لذة العزّاب
بطيب الكلام يسحر أهل الروح البلغاء
من لا يدرك أسرار الكلمات، فهو يقول: الله يعلمها
يا شيخ طلاب المدارس، اصبر على أبواب مدارس الحكمة
حتى لا يكذب من قالوا إنك تعرف الكيمياء

بعد تجاوز الباحة المفروشة بالحصى الصغيرة، دخلنا حجرته المتواضعة التي تفوح منها رائحة الدخان وماء الورد. مُدَّ على الحجارة الباردة بساط طويل عليه رسومات، أمّا الرفوف المصنوعة من أخشاب السنديان على الجدران فكانت تعج بالكتب. في إحدى زوايا الغرفة أريكةٌ صغيرةٌ مهترئة مغطاةٌ بقماش الكتان، وأمامها مباشرةً رحلة[1] مصنوعةٌ من خشب الجوز - وهي هديتي له - وفي الزاوية إبريقٌ وطستٌ ومحملٌ لفرشةٍ واحدةٍ ضيقةٍ أمامها ستارٌ، وقربها فرشةٌ مخصصةٌ للضيوف، وعدة قطعٍ من الثياب.

تربعت على الأريكة وشرعت أقول مبتسماً: «أخي، لقد وصلنا الجواب عن السؤال الذي وجهناه إليك بالأمس، إلاّ أننا لم نستطع أن نعطيه معنىً ما».

فردّ مبتسماً: «لقد أجبت بكلام مبطن يا مولانا السلطان! وأستغرب عدم فهمكم إيّاه». فقلت ممازحاً: «كيف ذلك يا أخي؟».

التقط نفساً عميقاً وأضاف: «لو ساد الظلم والمماطلة، وقال كل من يسمع بهما هذا أمر لا يعنيني، ولم يحاولوا الحيلولة دون ذلك فستحل الكارثة. وهذا ما قصدته حين قلت: أكل الراعي الغنم واتهم الذئب بذلك، وتستر الذين يعرفون هذا الأمر عنه ولم يكشفوا عن فعلته، وتصاعدت آهات الفقراء والمحتاجين والغرباء إلى السموات، ولم تسمع بها إلاّ

(1) مسند خشبي يستعمل لدى قراءة القرآن والكتب.

الحجارة؛ فحينها ستكون الكارثة قد وقعت. وعندها، يخشى على نسلك من الانقراض، وتعلن خزائنك الإفلاس، ويتمرد جنودك ولا يطيعونك، والفناء مقدّر!».

يا لها من كلمات محققة؛ العدل، ثم العدل، ثم العدل. إذا اقتنع الناس أنهم سيحصلون على حقوقهم بعد خضوعهم لمحاكمات عادلةٍ فسيرتاحون في أعمالهم ومعيشتهم. وإلاّ فإن هذا المجتمع محكوم عليه بالانحلال والانحطاط؛ وبالتالي محكوم عليه بالهلاك. يا الله، الشيء الوحيد القادر على إقامة هذه الدنيا هو العدل، وأنا سوف أحقق هذا العدل.

- هل هناك حاجة إلى تشريع قوانين جديدة يا أخي؟

- عليكم أن تسعوا إلى تطبيق القوانين الموجودة تماماً ومتابعتها يا مولاي السلطان. يقول المؤرخ الروماني تاسيتوس: قبل انهيار الدولة تكثر تشريعاتها. نعم، تكثر؛ فعند وضع تشريعات جديدة، يظن المشرعون أنّ في ذلك إحياء لروح القوانين السابقة المنسية، ولكن للأسف يكون ذلك أملاً فارغاً.

- أفهم ذلك يا أخي. ألوي رقبتي وأفكر برهةً، ثم أضيف: «سوف أشن حملةً لإنقاذ المسلمين من إرهاب فرسان رودوس قريباً إن شاء الله. وسوف أجعل الدنيا تضيق بأولئك الفرسان، فهم يهاجمون المسلمين العزّل كل سنةٍ في موسم الحج، ويعتقدون أن استعبادهم نجاح لهم وفوز».

- حتى أولئك عاملهم بالعدل، ولا تظلمهم يا أخي. فإن أخلصت أحسنت، وإن أفلحت في أن تكون محسناً فستكون قد قطعت شوطاً في محاربة الظلم. ولا تنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرّف الإحسان بأن تعبد الله وكأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

III

نيسان، 1522م

لم يستطع أي طبيب في إسطنبول تشخيص مرض أمي السلطانة حفصة التي مرضت بشكل غير متوقعٍ، واشتد مرضها منذ الثالث والعشرين من ربيع الأول، فضاق صدري بذلك. وحين أدركت خطورة الموقف، أرسلت رسولاً إلى العالم الكبير، والطبيب الذي لا مثيل له مصلح الدين مركز أفندي بتوصيةٍ من أخي يحيى أفندي. وكنت في مرحلة ولايتي للعهد أحضر معظم مجالسه، ولطالما استعنت بنصائحه. وفي الحادي والعشرين من ربيع الآخر عاد الرسول حاملاً معه خلطةً من النباتات الطبية، إضافة إلى رسالةٍ كتبها مصلح الدين مركز أفندي.

«حضرة السلطان سليمان خان! علمت بنبأ مرض السلطانة الطاهرة حفصة عالية الشأن ببالغ الألم. ومن أجل دفع هذا المرض عنها بعناية الله وبإذنه الكريم، أرسل إليكم معجوناً حضّرته من أربعين صنفاً على نيّة الشفاء، فإن استفادت منه، فعليكم أنتم وأحفادكم الاستفادة منه أيضاً!».

أشكر الله على نعمه، إذ لم تمض سوى عشرين يوماً حتى شفيت أمي، وبدأت تتجول في حديقتي الخاصة، وظهرت علامات التحس على وجهها الذي بدأ يتفتح كالورود. وطلبت مني تحضير هذا المعجون في الوقت نفسه من كل سنةٍ، وتوزيعه على الشعب في جامع السلطان في مانيسا. كانت طلباتها أومر واجبة الطاعة بالنسبة إليّ. وكان ذاك المعجون الذي سمّاه مصلح الدين أفندي معجون المسير مصنوعاً من القرفة، والفلفل الأسود، والبهار الجديد، والقرنفل، والحبة السوداء، وحبة

الخردل، واليانسون، والكزبرة، والزنجبيل، وزهرة القرفة، والكركم، وجوز الهند، والشمرة، والكبابية، والسنامكي، والإهليلج الأصفر، والفانيليا، وفلفل الذرة، وحب الهال، وشرش الحلوى، والظلمباء، وخيارشمبة، والعصفر، والإكسير، والكمون، والجلنجا، وصمغ الصنوبر، والميرصافي، وعسل السوس، والحول الشامي، وقشر الليمون، والطرطير، والزعفران، وعود القهر، وصحن العود، والإسكير، والترياق، والراوند، وملح الليمون، وبذرة مرجان التيس، وعسل الشمس.

أيار، 1522م

رغم صغر ما حدث اليوم، فأنا أشعر بالفخر والاعتزاز حين أرى العدالة التي أبدي تجاهها حساسيةً كبيرةً وهي تتأسس على أراضي دولتي.

ففي قريةٍ من القرى القريبة من الأستانة، بدأ رجل بحراثة أرض اشتراها من شخص آخر. وقبل أن يمضي زمنٌ طويلٌ، علق محراثه بجرةٍ مليئةٍ بالذهب الأصفر، فانطلق فوراً إلى الرجل الذي باعه الأرض يريد تسليمه جرة الذهب وهو يقول: «لقد اشتريت منك سطح الأرض، وليس الذهب الذي فيها. وما كنت لتبيعني الأرض بالثمن المتفق عليه لو علمت بوجود هذا القدر من الذهب فيها، فخذ ذهبك».

فأجابه مالك الأرض السابق: «لقد بعتك الأرض كما هي؛ بترابها، وحجرها. وهذا الذهب ليس من حقي. إنه لك فافعل به ما تشاء».

تضايق الفلاح الذي عثر على الذهب، وأصر على نقل المسألة إلى القاضي، وكرر دعواه أمام القاضي. استمع القاضي إلى المسألة بدقةٍ، وأعجب بحرص الطرفين على التقوى والعدالة، فما كان منه إلا أن قرر تزويج بنت الأول بابن الثاني، وجعل الذهب مهراً بينهما، وأضاف: «إن الزمن زمن السلطان سليمان خان، ولا ينبغي فيه أن نحيد عن العدل مقدار شعرةٍ. ولا نرى إلا المصاهرة حلاً يليق برجلين في مثل ورعكما».

30 حزيران 1522م

نبدأ المسير بالمهابة نفسها، فيما دوي الطبل العملاق يصل إلى الآفاق، ويبلغ الأسماع على بعد عدة فراسخ معلناً عن انطلاق الزحف الكبير. وكانت أصوات الطبول تثير الحماسة في الصدور، وتصم آذان عشرات الآلاف من المودعين المصطفين على طول طريق الديوان في أثناء مرور الطوابير بأسلحتها المخيفة، وبريق دروعها، وجمال ملابسها ذات الألوان الزاهية. عن يميني، سار الفرسان بدروعهم ذات السلاسل، وملابسهم القطنية الصفراء والأرجوانية، وعن يساري سار رجال السلاحدار بقبعاتهم الحمراء، وأمامي مباشرةً سار الخيالة من عبيد القصر والغرباء برماحهم التي تتدلى من رؤوسها المشربيات المصنوعة من ذيول الخيل، وجعبهم الحمراء المبهرة. تقدّمت معهم، وعلى جانبي حصاني الحراس العُسُر والحراس الخاصون بثيابهم الصفراء والحمراء التي تتدلى منها المشربيات وبقبعاتهم المخروطية المائلة. استعرضت وحداتي وأنا أحيي شعبي ممتطياً حصاني الأبيض الذي كان بريق درعه المزينة بلآلئ المحيطات الجنوبية، والألماس، والزمرد، والياقوت يكاد يخطف بصري.

كنت مضطراً إلى الابتسام حتى لا أكشف عن القلق الذي يعتريني من تمنع هذا الموقع الأكثر تحصيناً في العالم، والذي رُدّ جدي الفاتح عن أسواره ثلاث مراتٍ. لقد لبست درعي وتسلحت بسيفي لتكون رودوس في قبضتي، أو لأهلكن عند أسوارها. ولكن، هناك في الأعماق، وفي مكان سري أنينٌ يسري بفتنته المؤلمة التي تكاد تفضحني. فكيف أكتم حزني على فراق حبٍّ يكاد يحرق قلبي ويفنيني؟ أعرف أن كل شيء يبدأ بكذبة، ولكنْ، كيف سقينا كذبتنا المشتركة خلال الأيام والشهور والسنوات حتى نمت كزهرة جميلة فريدة؟ وكيف تعانقت روحانا عناقاً شديداً في وجه الرياء، وتشابكتا كجذور اللبلاب المتسلقة؟!

في الأسبوع الثاني من شهر أيار تجادلنا حول مسألةٍ بسيطةٍ، ويحز

في نفسـي الآن الموقف الـذي اتخذته. فمنـذ زمن وحـرّم تتحكم بدخول النسـاء قصر الحريم وخروجهن منه أكثـر مما تتحكم به والدتي السـلطانة حفصة. وما من شـكٍ في أنها تعمل على إقصاء منافسـاتها من النسـاء؛ إما باحتوائهـن أو تزويجهن وإبعادهـن عن القصـر. وأنا أراقب هـذا من دون اعتـراضٍ. وكيف لـي ألا أسـكت وفيهـا كل ما أبحـث عنه؟! فقـد قدمت لي حبها الفريد، وأنجبت لي الأميـر محمد خان الذي يسـاوي الدنيا كلها بالنسـبة إليّ. ولم تعد تخيفني أي كذبة أخرى، ولهذا أبتسـم في راحةٍ ولا أبالي، لأن المبالاة لم تنفعنـي... ولهذا، أنا الآن أرى بوضـوح أكبر مقدار عجزي وخواء قدرتي من أي معنىً حقيقيٍّ.

كان الجدل قد ثار بيننـا حول الجارية صوفيا التي جـاءت مع الهدايا التي أرسـلها فرانسـوا. فهذه الفتاة الفرنسـية في العشـرين من عمرها، ولا تعرف كلمةً واحـدةً من غير لغتهـا، وتبكي دائماً. وما أعلمه أنها من أسـرة عريقة. امتنعت صوفيا عن تناول الطعام والاغتسـال منذ أن وطئت قدماها قصـر الحريم. فأشـفقت على حالهـا، وأمرت آغـا الحرملك بـأن لا تجبر على أي شـيءٍ. غير أن ذلك لم يجد نفعاً، فلم تكن تأكل إلاّ بضع لقيمات تقدمها لها الجواري في الليالي، وتستمر في صمتها.

أوصاني إبراهيم بزيارتها ورؤيتها علّ زيارتي تجدي نفعاً. لكن حرّم اعترضت على الزيارة بوجهٍ عبوسٍ، ورأت أنه من غير المناسب أن يذهب سـلطانٌ عظيمٌ إلى جاريةٍ قدمت حديثاً، وطلبت أن أتـرك الأمر لها لتتولاه بنفسـها، وقالت إنها سـتقدم هذه الفتاة إلى سـلطان العالم بيديها في أبهى شـكلٍ. ومضت أيامٌ أخرى من دون أن يتغير شـيء من أمرها، فزرتها ذات ليلـةٍ في الحرملـك ومعي إبراهيـم والمترجم الفرنسـي. وعندمـا رآني آغا الحرملـك ومعي رجـلان غريبان، نقـر على دفٍّ صغيـرٍ، فأخلـي المكان، وأمرت بأن تبقى صوفيا وحدها.

لا بد أن صوفيا قـد توقعت قدومي من حركة آغـا الحرملك، فقامت

لتحييني بوجهٍ واجم. كانت في حالةٍ مزريةٍ، فشعرها الأشقر المتلبد يتناثر على كتفيها، ورائحة العرق تفوح منها، ولم يفلح أحدٌ في إقناعها بتبديل ذلك الفستان المتسخ. ولكن، على الرغم من كل ذلك، لم تكن تخفى عن العيون رشاقتها الجذابة التي تطالعك بها قامتها الفارعة، وخضرة عينيها التي بدت وكأنها تزيد من حجمهما. ولم تكن بشرتها بيضاء كتلك البشرة التي يتمتع بها ذوو الأعراق السلافية، بل كانت تشع بشفافيةٍ ساحرةٍ لا تصادفها إلا عند اللاتين في البقاع الشمالية. فإذا كانت صوفيا جميلة هكذا وهي في هذه الحال، فكيف ستبدو في يومٍ جميلٍ تعيش فيه كما يحلو لها. لم يكن إدراك ما كان إبراهيم يشعر به صعباً من خلال النظر إلى عينيه، فقلت ممازحاً وضاحكاً: «إن كنت تريدها فلك أن تأخذها».

أحنى إبراهيم رأسه في حياءٍ شديدٍ وهو يقول: «إن فتاة كهذه تليق بحاكم العالم فحسب يا مولانا».

- أهي جميلة إلى هذه الدرجة يا إبراهيم؟!

- إنها جميلةٌ أكثر مما يمكن للمرء أن يتصور يا مولاي. هذه الفتاة مثل حلم يستحيل تحققه، ومثل صاعقة تجعلكم تعيدون كتابة ديوانكم الشعري مجدداً، في عينيها عالمٌ سحيقٌ من الأسرار يمكنه أن يرقى بشاعريتكم إلى أماكن عصيةٍ على الخيال.

- يوجد هنا الآن شاعرٌ واحدٌ، وهو أنت يا إبراهيم.

قلت ذلك والحيرة تتملكني، فرأيته ينظر إلى عيني في دهشةٍ:

- مولاي السلطان، ألا ترون أن هذه الفتاة تحمل جمال عهدٍ قائمٍ بذاتهِ؟!

- أرى ذلك. ولكنني لا أكترث يا إبراهيم، فالروح لا ترضى بالثنائية ولا تتسع لأكثر من حبٍ واحدٍ. فأنا قد وجدت حرّمي مرةً، ودونها يخبو جمال العالم كله في نفسي يا إبراهيم.

أمرت المترجم بأن يقول لها: «لا تنزعجي، ولا تشعري بالقهر

هكـذا، ولتغتسـلي، ولتملئي معدتك، فسنسـلمك إلى مبعوث فرنسـا على متن أول سفينة».

فقال المترجم:

- ليسـت المشـكلة في بقائها هنـا. فالفتاة راضيـة بالبقـاء، ولكنّ ما يزعجها هـو المعاملة السـيئة التـي تلقاهـا من السـلطانة حرّم؛ فهـي تقول إنه منذ قدومهـا إلى الحرملك وهي مهـددة بالقتل. فإمـا أن تظل هكذا في حالةٍ متسخةٍ تبعدها عنها، وإما سـتلجأ إلى حيلةٍ تودي بحياتها في النهاية. وهي تدرك الآن أنها تلقي بنفسـها في التهلكة بهذا الاعتـراف، ولكنها تثق بعدالتكم.

فقلت ضاحكاً: «ألا ترى يـا إبراهيم؟! ماذا يمكننـي أن قول في مثل هذا الوضع؟».

تمتم إبراهيم فيما الانزعاج يبدو على محياه: «أنتم أدرى يا مولاي».

- ولكنني أسألك عن رأيك.

- لا يمكن لأحـدٍ أن يدّعـي حقاً على سـلطان العالم، حتـى لو كان ذاك الشخص زوجته الشـرعية. إنه فوق الجميع، ويحق له أن يحكم وينفّذ من دون أي اعتراض. أما رأيي في هـذا الموقف فهو أنه ينافي الأدب، ولا ينبغي لأحدٍ أن يفكر في ذلك مجرّد تفكير.

كان إبراهيم محقّاً فـي ما قاله. وكنت بفضل هـذا الحدث قادراً على رؤية ما يمكن أن تفعله حرّم من أجل حبها وشغفها.

- إن هذا يتجاوز الغيرة يا مولاي، إنها تتلاعب بكم من دون احترام.

دهشـت كثيراً حين سـمعت ما قالـه، لأنّ إبراهيم لـم يقل يومـاً كلمةً سـيئةً بحق حـرّم. ومـا إن عدت إلـى جناحي الخـاص حتى ظهـرت حرّم أمامي بهيئتها المنكسـرة، وعباءتها الطويلة العنابية المشـدودة من وسـطها بحزام رفيع تتدلى حتـى تلامس عقبيها، ومـن فتحة العباءة يبدو سـروالها الحريري الأخضـر بلون الزمـرّد. وكان صـوت خفيها المخمليـن اللذين

يغطيـان قدميها الصغيرتين يثير مشـاعري... لقد كانت جميلـةً تكاد تحرق روحي. حاولت أن أبتسم لكنها لم تقابل ابتسامتي بمثلها. شعرت بروحي تتماوج في شـعرها الأشـقر، وتزلزلت مجدداً في تيار غضبها الذي تغلغل في نخاع عظامي. وقبل أن أنبس ببنت شفةٍ؛ سمعتها تقول:

- هل أعجبتكم تلك الفتاة كثيراً؟! ما اسمها؟! آه، نعم صوفيا.

- لا تفعلي هذا يا حرّم. ألم تري حال المسـكينة؟! ولا يحق لك أن تتصرفي معها هكذا.

- وكيف تصرفـت معها؟! قالت ذلك ورعشـةٌ عصبيـةٌ غاضبةٌ تظهر على شفتيها الورديتين.

- لقد هددت الفتاة.

- أهي التي قالت هذا؟! واحتد غضبها.

- لا يهـم من أخبرنـي ذلـك. وأضفت بصبـر: «لن يتصـرف أحدٌ أو يقوم بأي أمر من دون إذني وأمري».

ترقرقت دموعها في عينيها الزرقاوين وسـالتا فـي روحي: «ألا ترون أن هذه مكيدة؟! ألا تدركون أنها لعبةٌ للتفريق بيننا؟!».

تكسّـر التمثال السـلطاني المتحجر فـي داخلي دفعـةً واحـدةً متأثراً بدموعها:

- أي لعبةٍ؟ وأي مكيدةٍ يا لب روحي؟!

- إنها لعبة إبراهيم. إنه يغار من حبكم لي، ولا يحتمل حبنا، ويضيق ذرعاً بكل شيء بيننا، ويخطط ضدنا...

- من أين تأتين بكل هذه الأفكار يا حرّم؟

- إنني أستقي أخباره.

قطبت جبيني، ولوحت بإصبعي في حركة إنـذار كما لو كنت أعاتب طفلاً صغيراً:

- ممـن تسـتقين الأخبـار؟ ومـاذا تدبرين يـا حـرّم؟ وهـل لوهيمي

أورخون جلبي علاقة بهذا؟ حذار يا حرّم، حذار أن تستعملي رجالي ضد بعضهم، حذار يا حرّم. لا تحاولي أبداً استغلال حبي لك كنقطةٍ ضعفٍ.

تابعت زوجتي وكأنها لم تسمع ما قلته:

- ... لم يتوقع يوماً أن نحب بعضنا إلى هذه الدرجة. وهو اليوم يحاول تغيير ذلك بتعريفكم بامرأةٍ أخرى، ويحاول شدّ انتباهكم إلى امرأةٍ أخرى لا تستطيعون رفضها. ألا ترون يا مولاي السلطان أن من أرسل صوفيا ليس فرانسوا؛ بل إنه البرغالي ذاته الذي أقنع القبطان بنقل الفتاة من كورسيكا إلى السفينة.

- بالله عليك يا حرّم، أتدرين معنى ما تقولينه؟ إن إبراهيم أفضل صديقٍ لي شئت أم أبيت. بفضله تعرّفت عليك، وبفضله تزوجتك. وهل حدث أن تزوج سلطانٌ جاريةً؟! فقد مُنِع السلاطين العثمانيون من عقد قرانهم على أيّ جارية، وقد خالفت ذلك وغيّرته من أجلك.

- اسألوه إن شئتم... اسألوا البرغالي... أجبروه على الإجابة... وابحثوا عن علاقته بهذه الفتاة...

- كفى يا حرّم! لا يمكنني أن أتخلى عن صديقي افتراء من أجل هذا.

صرخت حرّم قائلةً:

- إنه ليس صديقاً لكم، إنه ليس نداً لكم، ولا يمكن لأحدٍ أن يكون نداً لكم.

- ألهذا أنا وحيدٌ يا حرّم؟!

- أنا موجودة يا سلطاني، ألست كل شيء بالنسبة إليكم؟! وألستم أنتم كل شيء بالنسبة إليّ؟!

- إن ما أتمناه الآن أن تهدئي قليلاً يا حرّم.

همست بغضبٍ مخيفٍ وهي تبدو كساحرات الشمال في الأساطير الكلدانية: «إبراهيم ليس سوى عبدٍ بسيطٍ سافلٍ وخائنٍ». وصمتت

للحظات من دون أن تتنفس، ثم سألتني:

- لماذا تحدقون إليّ هكـذا؟! أعلم أنكم تقولون في سـرّكم: إذاً، ما الفرق بينكما؟

سـرت نحو النافذة، وبدأت أتأمّل حزم الأشـعة الحمـراء التي تمزق غيوم العاصفة التي تغطي المضيق، ثم تغرق في ظلمة المياه وقلت لها:

- إنك حساسـة جداً يـا حرّم. هـل تسـتحق الغيرة كل هـذا الغضب الشـديد؟! ألا تعلمين أنني لن أفكـر بأمرٍ كهـذا لأجلك؟ ألـم تدركي بعد مقدار حبي لك؟ ألا تعرفينني جيداً بعد يا حرّم؟!

ركضت، وركعت قرب قدمـيّ، وانكبت على يـدي مُقبّلة إياها وهي تقول:

«أتحبنـي حقاً يا مـولاي؟! كم يمكنـك أن تحبني والدنيـا كلها مُلك يديك؟!».

همست وأنا أداعب شعرها الأشقر:

«ليتك تدركين كم هي ضعيفةٌ هذه الدنيا، وكم هي مسكينةٌ أمام حبي لك يا حرّم».

- لا أستطيع أن أفهم...

- ألا يكفيك أي شيء يا حرم؟

- لا يكفيني.

- أحبك...

نهضت وهي تصـرخ: «لسـت أدري. مـا أريده هـو أن لا تـروا تلك الفتاة مرةً أخرى».

لقد فقدت صوابها من شـدة غيرتهـا؛ وإلاّ فمن ذا الـذي يجرؤ على رفع صوته في وجهي هكذا!؟

وصرخت أنا هذه المرة:

«كفاك! أنسيت مع من تتكلمين؟!».

- ما الذي ستفعلونه؟ أستسلمونني أنا أيضاً إلى جلادكم؟

- لا تضغطي علي يا حرّم، ودعيني الآن بمفردي.

- أنتـم لا تحبونني. ولو كنتـم تحبونني لمـا ملتم إلى امـرأة أخرى، ولما فضّلتم صداقة ذلك العبد السافل على حبي لكم.

التفت نحوهـا ورميتها بنظرةٍ حادةٍ، وإذا بتلـك العواصف التي كانت تهب قبل قليلٍ في عينيها الزرقاوين المتسعتين خوفاً تهدأ في الحال.

- اخرجي الآن... اخرجي فوراً.

فمـا كان منهـا إلاّ أن خرجـت وهـي تجـري، وعلـى وجهها تسـيل الدموع كالسواقي في ألمٍ مشحونٍ.

الفصول الأربعة
(وهيمي أورخون جلبي)

I

3 أيلول 1522

كانت ليلةً حارةً. خرجت كالمعتاد متمنياً تحقيق النصر الساحق بسبب شعوري بالخوف والقلق. لقد كان فرماناً من السلطان، فرماناً لا رجعة فيه ككل الفرمانات. فقد قال لي وهو يشعر بالضيق، وبحدّةٍ تذكّرني بأبيه: «أريد رأس الأستاذ الأكبر، أريد فل دو ليسل آدم، ولا تتعب نفسك في المحافظة على رأسه أو في الخشية من اتساخه، أو عدم وضوح ملامحه، يكفيني أن تحضر لي أي علامة تدل عليه».

في مثل هذه الأوقات، كنت أتصالح مع نفسي، وأركز اهتمامي على الهدف، وكأنني أنفث النار من يديّ وقدميّ. وكانت أسناني تصطك بشدةٍ، فأحرك فكي السفلي بقوة يمنةً ويسرةً حتى ترتخي عضلاته. وحين كنت أنتبه إلى أنّ كتفيّ مشدودتا العضلات، كنت أتنفّس بعمقٍ من أنفي من دون أن يشعر بذلك من أتحدث معهم، وأحاول أن أسترخي لأن توتر الإنسان يظهر في البداية في تشنّج كتفيه؛ كما سبق لي أن ذكرت من قبل.

تقدمت خفيةً في الظلام، وفي هدوءٍ تامٍّ على طول الأرض الجرداء الممتدة حتى أسوار القلعة. لا بدّ أن أحد رجال دون أندريه دامارال قد أنزل لي سلّماً مصنوعاً من الحبال من أحد الأبراج الشمالية الغربية

لأسـوار القلعة، وهو أعلى الأبـراج؛ إذ يبلـغ ارتفاعه اثنين وعشـرين متراً. إحدى الأسيرات من جاسوسـاتنا داخل القلعة سترشدني إلى مكان السلم من خلال الشـرر الصـادر عن حجـري الصـوان عندمـا تقدحهمـا معاً في فتراتٍ متقاربةٍ. لا يمكننـي الانتظار لحظةً واحدةً. ولـو كلّفتم بعمل كهذا، فسـتدركون أن أسـوأ مـا يمكـن أن يصيبكم هـو التردد فـي اتخـاذ القرار. لذلك، كان يجب عليّ أن أتحلى بالدقة والسرعة والقوة أكثر من أي وقتٍ مضى.

نعم، كان يؤرقنـي كثيراً أن أتجـول في المكان مثـل مهرجي القصر، مرتديـاً ملابـس الفرسـان المتدربيـن. غيـر أن القميـص الأزرق ذا الياقـة والكمين الواسـعين، والبنطال ذا السـاقين الضّيّقتين اللتيـن تضغطان على عضلات رجليّ، وردائي المصنوع من القطيفة السـوداء كسواد الليل؛ كلها كانت تخفيني عـن الأعيـن المترصدة في الأماكـن الصخريـة الضيقة التي كنت أختبئ فيهـا. فبفضل ردائي الأسـود تحديداً لم يكن أحد يسـتطيع أن يميزني وسـط الظلام الحالك. حتى إن الحذاء الجلدي الـذي كنت أنتعله كان شـديد السـواد كالحبر الفارسـي، ولـم يكن يحدث صوتاً عند السـير؛ وكأنني أرنب يسير بخفّة.

كانت النجوم تبدو وكأنها قد تفرقت بفعـل الرياح الدافئة التي تهب، وانغرسـت في الليل المدلهم. وكان قلبي ينتفض أحياناً، فأتخيل أن صوته سيسـمع من الخارج، وكأنه سـيقفز مـن صدري. كنـت أحاول أن أبتسـم لأنني أعلم جيداً أن الابتسـامة التي سأرسمها على شفتيّ وإن كانت خفيفة فسـتوجّه فهمي وإدراكـي توجيهـاً إيجابياً. ولكـن اللحظة التي عشـتها في تلك الأثناء كانت وكأنها ذكرى، وذكرياتي في الأصل هي المستقبل نفسه. وربما كان تأثير الظلام شديد الحلكة يشوش وعيي. فقد خيّل إليّ أن الليل قد انفتـح أمامي كمرآةٍ قديمـةٍ للزمن، إطارها مرصعٌ بالأصـداف والعقيق، وقد تراكم عليها تراب العصور. شـعرت برأسـي يدور، ولم أكن أسـتطيع

التخلص من تلك التأثيرات الخيالية للماضي، والتي امتزجت مع الحاضر والمستقبل.

في السـاعة المحددة تماماً أضاءت الشـرارة، كانت صغيـرةً وبعيدةً، لكنهـا كانت في تأثيرهـا كافيـةً لتجديد آمالـي. حثثت الخطى مسـرعاً إلى هناك، وتسـللت إلـى الخندق الـذي يرمي فيـه الطرفان جثـث موتاهـم في سـاعات المسـاء بتسـامحٍ متبادلٍ. كان عمق الخندق عشـرة أمتارٍ. ولكن، بفضل طلقات المدافع التي راكمت الحجارة فيه، فكرت في أن تخطيه لن يكون صعباً كما يبـدو. وبالفعل لم أكـن مخطئاً في ذلـك. عبرت الخندق بسـرعةٍ، ووصلـت إلى أسـفل الجـدار. رفعـت رأسـي ونظرت إلـى أحد الأبراج الذي لم أرَ بعده سـوى فضاء الليل الواسـع بنجومـه اللامعة، غير أنني لـم أرَ هناك أيّ شـخصٍ، وتناهـى إلى سـمعي حديث الجنـود الذين يقومون بالحراسـة في موقـعٍ ليس ببعيـدٍ. يبـدو أن الفترات التـي أمضاها هؤلاء الفرسـان في أمانٍ قد جعلتهم يتراخون إلى حدٍّ ينسـون فيه القواعد الأساسـية؛ وهذا يعنـي أن النظام العسـكري العثمانـي يتضمّـن الكثير مما ينبغي لهؤلاء الفرسان ومدربيهم أن يتعلموه.

بدأت أتسـلق السّـلّم كريحٍ باردةٍ، أو حلـمٍ وحيدٍ، أو صـوتٍ مختنقٍ بعيدٍ، وقد تجردت من كل شـيءٍ حتى من نفسـي. وكانت قدماي ترتعشان كلمـا ارتفعت أكثـر، واهتـز السّـلّم بشـدةٍ بفعـل الريـاح التي هبـت فجأةً محمّلةً برائحة البـارود والدماء والطحالـب. منذ نعومة أظفـاري وأنا أكره المرتفعات. ولكـن، كان عليّ أن أتابع التسـلق لأنني أعلـم أن الخوف إذا أسر الإنسـان مرةً فلن يدعه وشـأنه أبداً؛ إذ تتيبّس عضلات المرء أولاً، ثم يضيق صدره، ثم يبدأ عموده الفقري بالتجمد؛ إنه يعذب الإنسان كثيراً قبل أن يقتله.

ولكنني لست طفلاً، فتهديد شخصٍ يحيا وسط النيران بالنار أمرٌ غير ذي جدوى. عدت إلى نفسـي، وغرقـت في ذكرياتي... لقد تسـلقت قلاع

العذاب، وتجرعت القيح، وغصت في بحور الـدم. وكنت أنت يا صديقي وأخـي وولي نعمتي ومـولاي السـلطان ياووز سـليم خان مـن ألقيتني بلا هوادةٍ أو رأفةٍ فـي تلك الظلمات خـارج العالم. ولكن، رغـم ذلك، ظلت رئتاي على مر السـنين تدميان بحبـي اللامتناهي لك. كان من السـهل جداً أن تكره سلطاناً أو إمبراطوراً أو ملكاً، ولكن، ماذا عن محاولة فهمه؟!

تسلّقت البرج ثم نزلت إلى المدينة. وأول ما شممته هو تلك الرائحة التي تبعث على الغثيان، والتي ملأت المـكان، والمنبعثة من الفارس الذي يبدو أنه يعتبر الاغتسـال والنظافة شـيئاً مهيناً. وأمام تلـك الرائحة المقزّزة التي لم أشمها منذ مدةٍ، لم أجد أمامي حلاً سوى أن أخرج منديلي المعطر بماء الورد، وأضعه على أنفي.

لم أكد أخطو عدة خطواتٍ حتى بدأت فصائل مدافع الهاون بإطلاق النيران بناءً على أمر السـلطان. ووفقاً للمخططات التي سبق لي أن رأيتها، مشـيت في الشـوارع المظلمة إلـى أن رأيت بـرج الجرس لقلعـة القديس جين. تقدمت بخطىً واثقةٍ من النوافذ، حتى سمع الخدم الذين اختبأوا في أقبية المنازل وقع قدميّ. في تلك الأثناء، أصابت قذيفة مدفع هاون سقف منـزلٍ جميلٍ أبيـض اللون يقع إلـى جانب حديقـةٍ تكسـوها الخضرة على مقربة مني. غيـر أن صـوت ارتطامها الذي يصـم الآذان وصـوت الأوعية والأواني الزجاجية المتكسرة لم يفزعاني رغم شدّتهما.

كان الدخـان قـد بدأ يتصاعـد من الفتحـة التـي أحدثتهـا القذيفة في سـقف المنزل، واندلعت الشـرارات الأولى للحريق، وتصاعدت أصوات الاستغاثة من البيت، ولكن لـم يكن لدي متسعٌ من الوقت للانشغال بها... وبعد ذلك، دوّى انفجارٌ آخر على مقربةٍ مني، وتناهى إلى مسـمعيّ صراخ امرأةٍ وطفـلٍ يصـك الآذان... ثم توقّـف الزمن عنـدي، وتحول إلـى أزمةٍ أبديةٍ لا نهاية لهـا، وتداخلت الأحداث كلها في بوتقـةٍ واحدةٍ. بدا لي برج القلعة مرتفعاً فبحثت على الفور عن طريقٍ بديلٍ. وسـرعان ما عثرت على

شارع ضيق مظلم مرصوف بالحجارة على بعد عشرين ذراعاً من كنيسة على النمط القوطي. أسرعت الخطى، ودخلت شارع الفرسان الموازي لشارع مولاي ذي الأبنية البيضاء المائلة المبنية على الطراز اليوناني القديم.

عندما سمعت الدوي الصادر من ميناء مندراكي، ورأيت الضوء المشؤوم برتقالي اللون الذي أضاء ظلمة الليل، أدركت أن هناك حريقاً بدأ يندلع في الجوار. كان قصر ليسل آدم يقع في نهاية الشارع حسب الوصف الذي تلقيته، ويقع قصر حليفنا دون أندريه دامارال إلى جواره تماماً. وكانت دوريات الحرس التي تسير على طول الطريق، والمشاعل المضيئة في حدائق المنازل تصعب علي مهمتي. كنت أمام أحد خيارين: إما أن أستخدم شارعاً جانبياً آخر كنت قد لاحظته في أثناء المسير معرضاً نفسي للتهلكة باعتباري غريباً عن المدينة، أو أن أجازف متجاسراً وأمضي في طريقي معتمداً على ملابسي وعدّة لغاتٍ أجنبيةٍ أعرفها.

وحسمت أمري على أن أمضي نحو هدفي بخطىً ثابتة، ورأيت ذلك خيراً من السير متخفياً كلصٍّ. كنت أعتقد أنني سأستفيد قليلاً من الجلبة التي تحدثها مدافع الهاون؛ ممّا منحني نوعاً ما الجرأة على متابعة المسير.

انحنى اثنان من جواسيسنا المتخفين في زي الأسرى المسلمين تحيةً لي في أثناء مروري بجوارهما، وأشارا إلى المنزل الموجود في نهاية الطريق. مرت أمامي مجموعةٌ مسرعةٌ من الفرسان الذين يتصبّبون عرقاً، ثم ظهر أمامي فارسان يمتطيان حصانيهما ويحملان رمحيهما، ويحرسان الأسرى الذين يقومون بملء الأكياس الكتانية بالرمل في حديقة أحد المنازل. وخارج المنزل، جلست أسيرتان شابتان ترتديان ملابس مصنوعة من قماش سميك. كانتا تصلحان ثياب الفرسان الشهيرة بيضاء اللون التي رسم على كلّ منها صليب أحمر كبير، بالإضافة إلى القلنسوات. ففرسان

القديس جين يسندون الأعمال المنزلية إلى الأسيرات لأنهم لا يتزوجون؛ شأنهم شأن فرسان المعبد.

كان هنـاك وجه مألوف يقـف بانتظاري عند بوابة حديقة قصر ليسـل آدم الكبير المشـيد من الرخـام والجرانيـت، والمحاط بالأعمدة المشـيدة على طراز كورينـث[1]. كان شـارباه الطويـلان المفتولان يبـدوان بوضوح على ضوء المشاعل الخافت. أما شعره الطويل المدهون بالزيت فقد ربطه في مؤخر رأسه... عرفني على الفور، وأشـار بهدوءٍ إلى أن الباب مفتوحٌ، ثم ذهـب باتجاه اثنين من الفرسـان المتدربيـن اللذين كانـا يتناولان بعض الطعام وهما واقفان. لم أكن أصدق أن الأمور تجري في يسـر هكذا. وإذا اسـتمرت الحال على مـا هي عليه، فسـأكون بعـد قليلٍ داخل منزل ليسـل آدم. ولو نجحت في ذلك فسـيكون خلاص الفارس من يدي أمراً في غاية الصعوبة.

دخلـت الطريـق المرصـوف بالحجـارة والممتـد حتى بـاب القصر الكبيـر المصنـوع من شـجر الجـوز، ورأيت عـدداً من فرسـان ليسـل آدم متواجدين فـي الحديقـة. كان لديّ ثلاثـة رجالٍ علـى الأقل فـي الداخل. كان أحدهم سائسـاً، وكنت أعلم أنه في تلك اللحظـة يراقبني بطرفي عينيه من حيث يقـف في الإسـطبل. أمـا الثاني فشـابٌ يعمـل سـاقياً لمحاربين يتناولون الطعام إلـى المائـدة الموضوعة تحـت المظلة الكبيرة المسـتقرة في الحديقة التي يغطيها البنفسـج. كنت أعلم أنه أسيرٌ منذ خمس سنواتٍ، وكان بإمكاني أن أخرجه من هناك لو أراد، لكن والده ووالدته المسنين لم يكونا في حال تمكنهما من القيام بمثل هذه المغامرة. لذا، كانوا يواصلون حياتهم في الأسـر كغيرهم من المسـلمين، لكنهم كانوا في وضعٍ يمكنهم من أن يكونـوا بجوار الفـارس الإنجليزي العجـوز الذي يخدمونـه. إن ما يقوم به هذا الشاب الآن عمل تحيط به المخاطر في ما يتعلق بعائلته، لكنه

(1) الأبنية الرومانية القديمة المشهورة بالمدرجات والأعمدة الحجرية والتماثيل.

تطوع للقيام به، وأنا لا يمكنني ردّ رجلٍ في وسعي الاستفادة منه.

كان القصر من الداخل مزدحماً ورديء التهوئة، وكانت رائحة اللحم الدسم والزيت المحروق والبصل المنبعثة من المطابخ تملأ المكان. تبعني أحد جواسيسي وتجاوزني متفقداً المكان، ثم اقترب مني بهدوء وهمس: «الطابق الثاني».

تقدمت بين التماثيل التي وضعت في تجاويف الجدران، والتي يصل طول بعضها إلى ثلاثة أمتارٍ، وبين اللوحات الجصية الرائعة ذات الألوان البراقة على الجدران. وعندما لاحظت أن قدمي تنزلقان فوق الأرضية الرخامية بشكلٍ ملحوظٍ، أدركت أن المطبخ في الطابق الأسفل مباشرةً. قيل لي إنه عليّ أن أصعد السلالم الدائرية التي حدثوني عنها من قبل للوصول إلى الأعلى، لكن الطابق العلوي بدا لي هادئاً تماماً. وقد تعلمت من تجاربي السابقة أن أعتمد على حدسي في هذا العمل، لكن الوقت لم يكن يسمح لي بالتردد... لذا، تسلقت السلم بخطىً متثاقلةٍ وأنا أحمل السيف في يدٍ وسكين الفرسان القصير في الأخرى، ووصلت إلى معرضٍ للتحف الفنية لا يقل فخامةً عن الأروقة الموجودة بالطابق السفلي. كانت قنطرة تعلوه، وتضيئه ثرياتٌ من الكريستال، وقد انطفأت معظم مصابيحها.

مرّ بجانبي رجلٌ آخر من رجالي متخفياً في هيئة خادمٍ، وتقدمني مسرعاً وهو يشير إلى غرفةٍ واسعةٍ في زاوية يتقاطع عندها الممر مع ممرٍ آخر، عند سقفٍ مقببٍ فيه ثقوبٌ تسمح بوصول الضوء والهواء. وكان باب الغرفة مفتوحاً جزئياً، وهناك أشخاصٌ يتحدثون بالإيطالية. في البداية، لم أستطع أن أحدد عدد الأشخاص الموجودين في الداخل. وبعد قليل، سمع دويّ انفجار قذيفة مدفعٍ في مكانٍ قريبٍ فيما كنت أتقدم نحو الغرفة، ثم خرج على إثره شخصان من الغرفة. أومأت برأسي بتحية الفرسان في هدوءٍ، وتابعت المسير حتى رأيت ليسل آدم من فتحة الباب

يجلس إلى رأس منضدةٍ مرصعةٍ بالجواهر علـى الطراز البندقي، ويتحدث مع رجلٍ يدير ظهره إليّ. التقطت أنفاسـاً عميقةً حتى أسـيطر على تنفسـي وأنا أسـتل خنجري المسـموم من غمده، كنت أغطيه بردائـي الذي يخفيه عن العيون. وكان رجالي الثلاثة مسـتعدين لمسـاعدتي حتى نضمن نجاح الخطة، وكانوا يراقبون المكان على مسافاتٍ قريبةٍ مني داخل الممر.

II

دفعت البـاب بهـدوءٍ ودخلت الغرفـة. لم يسـمعا صرير البـاب عند فتحـه. ميّـزت مباشـرة رائحـة الشـراب السـاخن فـي الغرفـة. وكالمعتاد، شـعرت بالغثيان من تلك الرائحة الكريهة، وتقلصت معدتي، وشعرت بها تنكمش.

كان ليسـل آدم يقول: «لن يسـتمر الوضع هكذا. فقريباً سـيعود أحد الرسـل الذين أرسـلتهم إلى البابـا حاملاً الجـواب». وكان شـعره الكثيف مجعداً بعض الشـيء، ولا يزال يحتفظ بلونه القاتم رغم تقدمه في السـن. ولحيتـه أيضاً كانـت كثيفة، وعينـاه الزرقاوان تشـبهان عيـون الأطفال، أما رداؤه الـذي يغطي كتفيـه العريضتين فيزيـده هيبةً. أضاف بصـوتٍ حزينٍ: «إن قداسة البابا أدريان السـادس يقيم القداس كلّ ليلةٍ في كنيسة سيستين، وفي كنيسة القديس بطرس من أجل الحصول على مساعدة الرب وتأييده. إنه ذو قلبٍ مليءٍ بالحب، إن الرب معنا يا صديقي».

قـال الرجـل الآخـر الـذي كان ظهـره باتجاهـي بصـوتٍ يـدل على الحكمة: «أتمنى أن يتغير الموقف المتخاذل للبابا هدريانوس سكسـتوس المعروف باسـم أدريان السـادس – والذي يسـتمر عليه حتـى يومنا هذا – عندمـا يرانا ونحن نصطـاد العدو واحـداً تلو الآخـر. ولكن، تذكّـر أنه في أثناء سقوط القسطنطينية، انتظر قسـطنطين الحادي عشر الجيش الصليبـي الكبير الـذي كان البابـا سيرسـله؛ ولكن مـن دون جـدوى...». ترى، هل كنت أعرف هذا الصوت من مكانٍ ما؟ صمت الرجل وهو يضحك بشدة، ثم اسـتطرد قائلاً: «والآن، أيها الفـارس النبيل، هل تـرى وهيمي أورخون جلبي هذا الذي يقف ورائي الآن، والذي طالما حدثتك عنه؟».

تحسس ليسل آدم لحيته، ومدّ رأسه قليلاً، ورماني بنظرةٍ حادةٍ من فوق كتفي الرجل الذي لم أكن أعلم من هو حتى تلك اللحظة. وبينما كان يتفحصني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي، كان الرجل الآخر يتابع حديثه: «إنه وهيمي أورخون جلبي فدائي السلطان ياووز سليم الشهير الذي ذاع صيته كرياح الشتاء الباردة في كل البلاد النصرانية؛ وخاصة في البلاد المجاورة للدولة العثمانية. وتسري الآن حكاياتٌ وأساطير عن مهارته الفائقة في فصل رأس جويلا كيبس قائد بلغراد المغوار عن جسده مستخدماً الموسى الخاص به».

أومأ لي دو ليسل برأسه إيماءةً خفيفةً قائلاً: «سررت بلقائك».

التفت الرجل الآخر ببطء، وفي تلك اللحظة، شعرت وكأن كل الدم الذي يجري في عروقي قد تجمد. إنهما تانك العينان الزرقاوان. بالتأكيد أنا أعرف صاحب هذا الشعر الأبيض واللحية الطويلة.

لقد كان لويجي سافينو هو من يقف أمامي؛ قائد جماعة الصليب الحديدي الذي كان يخضع لمراقبة شديدة هو وفريقه في إسطنبول، ولكنهم أفلتوا من يدي. قال لي وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ساخرة: «هكذا ينصب الفخ يا أورخون وليس كما ظننت أنت!». أدهشتني تركيته الممتازة مرة أخرى: «أعتقد أنه ما زال هناك الكثير مما ينبغي عليك تعلّمه. أربعون عاماً ليست سنًّا كبيرة. لو كان لديك متسع من الوقت لتمكنت من إتمام تلك النواقص، ولأصبحت جاسوساً ممتازاً بكلّ ما للكلمة من معنى».

كنت مندهشاً جداً إلى درجة أنني شعرت بأنفاسي تنقطع. وقام الحراس الواقفون خلفي بتجريدي من سيفي وسكيني وخنجري المسموم. وقال ليسل آدم: «اذهبوا به مع أعوانه إلى الأسوار، واربطوهم بالمنجنيقات، وأرسلوهم إلى مقر جيشهم مع أول أضواء النهار».

استدعيت شخصيتي المتقلبة التي تعرف التحكم بالنفس في مثل

تلك اللحظات، وكادت أن تستعصي علي، واستطعت بصعوبةٍ أن أسأل سافينو: «كيف حال ذراعك؟!». وكنت حتى ذلك اليوم أظن أنه قد شلّ إثر ضربة السيف التي تلقاها في ذراعه.

أجابني سافينو ضاحكاً: «هل استطعت أن تلاحظ ذلك وسط تلك الجلبة!؟». ثم شمر الكم الحريري الأيسر عن ساعده، وأظهر تلك الندبة الغليظة التي لا تزال تحتفظ بلونها الوردي، وقال: «كما ترى، لا يزال موضع الجرح حساساً للغاية، ولا يزال ساخناً جداً. ولكن، لا تقلق فهذه ليست المرة الأولى التي أجرح فيها. وجرحٌ عميقٌ مثل هذا يذكّرك بنفسه دائماً. ولكنني سأصفي حسابي قريباً مع عمال قوارب الصيد كانجاباش عندكم. فأنا أحاصر بلادكم من الداخل شبراً شبرًا يا وهيمي أورخون. وأنتم لم تعودوا مثلما كنتم في عهد السلطان ياووز سليم خان. وأنت غافلٌ لا تدري شيئاً!».

قلت له من دون أن أرفع نظراتي الباردة عن عينيه: «ربما تظن ذلك يا لويجي. ولكن، هل لك أن تتأكد من أن رجالك لم يقبض عليهم واحداً تلو الآخر؟! هل يمكنك التأكد من أنهم لم يسلموا إلى الجلادين ومعاونيهم ليسلخوا جلودهم؟!».

نهض على قدميه وتقدم نحوي، ثم قال: «إننا جميعاً نعلم أن سليمان ليس ذئباً كوالده. هل تعلم أنه ما زال يطلق عليه في أوروبا لقب الحمل الوديع؟! حتى إنّ فتح بلغراد لم يكن كافياً لتغيير هذا اللقب! إنه ليس الشخص الذي يمكنه تعذيب أحدٍ، وأنت وأنا نعرف ذلك جيداً!».

- لا تقلق، فليس بينكم وبين أن تعرفوا أن هذا الحمل ليس سوى أسدٍ؛ إلا أن نقوم بتعليقكم على أسوار هذه القلعة! ثم ذكرت له بعض عناوين جواسيسه وأضفت: «إن عملاءك لا يزالون يمارسون أنشطتهم هناك. وليس لديك انتشارٌ داخل البلاد كما تظن، ولن يكون لك ذلك أبداً، فلا تسلِّ نفسك بأوهامٍ خادعة!».

كانت الدهشة تسيطر عليه هذه المرة وهو يحاول ألا يظهر ذلك: «لنقل إن تلك العناوين صحيحةٌ، لماذا إذاً لم تقبض على رجالي حتى اليوم؟!».

- لو أردت ذلك لكنت قد أمرت بإلقاء القبض عليهم منذ فترةٍ طويلةٍ، ولأمرت بسلخ جلودهم بموجب سلطتي يا لويجي. ولكنني لم أستطع أن أجزم يا سافينو إن كان جبان مثلك سيمر على تلك الديار أم لا! وكنت دائماً أقول: يوماً ما... يوماً ما سيأتي إلى أحد هذه المنازل، وسأقبض عليه! ولكنني أرى أن ذاك اليوم الكبير الذي كنت بانتظاره قد حلّ الآن، وهنا. وعندنا تعبيرٌ نستخدمه في وصف مثل هذا الموقف: وجدته في الأرض بينما كنت أبحث عنه في السماء. وهذا بالضبط ما حدث معنا اليوم.

غابت الفرحة عن وجهه، وباعد بين يديه وهو يحاول الابتسام وقال:

- أريد أن ألفت انتباهك إلى أنني أنا من قبضت عليك اليوم، وكنت أعرف مكانك وأنت لا تزال تعبر حافة السور. وأنا عبد للرب الذي يحبني يا أخي، ولذا فأنا محميٌّ كما ترى. أما العصاة مثلك فمن المؤكد أنهم سيقعون في النهاية في الفخ بطريقةٍ ما.

نظرت إلى وجهه مبتسماً، وتعابير قاسية تبدو على وجهي وقلت له بالإيطالية: «كلٌّ منا مقزز أكثر من الآخر. فعملنا هو الوشاية، وكسب ثقة الناس ثم خيانتهم...».

- أنا أفعل هذا من أجل وطني، ومن أجل النصارى...

صرخت فيه قائلاً:

- دعك من هذه الحماسة يا سافينو. الإنسان هو الإنسان، والكذب كذبٌ، والخيانة خيانةٌ. ولا تغيّر حقيقة ذلك من أجل ماذا أو من أجل من تقوم بهما... مهما وضعت أمامك من غاياتٍ وأهدافٍ ساميةٍ فهذا لا يغير حقيقة أننا نخون ثقة الناس بنا. إنك على وعيٍ تامٍّ بكل قواعد

دينٍ لا تؤمن به، وإلى درجة تمكنك من أداء الخطب في مساجد البلاد الإسلامية. حسناً، ألم تخجل قطّ من أولئك الناس المخدوعين الذين يعتبرون كلمةً واحدةً منك مكسبا لهم؟ ألم تخجل ولو مرةً واحدةً يا سافينو؟!

سيطر العبوس على وجهه؛ مما يدل على أنه يدرك صحة كل ما أقوله، وتابعت حديثي:

«السلطان سليم خان جعل الله الجنة مثواه كان يحميني، ولكنه لم يكن يحبني قطّ. وأنا أيضاً كنت أكرهه؛ لأنه قاتل والدي، ولكنني أيضاً كنت مرتبطاً به، وكنت أشعر بالسعادة لوجودي إلى جوار أقوى رجلٍ في العالم. نعم يا سافينو، لم تسمع بشكل خاطئ... إنه شيءٌ غريبٌ إلى أقصى حدٍّ، وربما يخيل إليك أنه مرضٌ، ولكن الأمر هكذا... كنت أتساءل دائماً عن السبب، ولكنني لم أجد الإجابة قطّ. فهل يمكن أن يكون ذلك بتأثير ما منحني إياه من سلطةٍ وأكياسٍ من الذهب البراق؟! هل يمكن لشخص ما أن يكون سافلاً ودنيئاً إلى هذا الحد يا سافينو؟! وإلا قل لي يا سافينو، هل هناك أي مبرر يفسّر نسياني أبي الذي كان أعز من روحي، وتقربي من قاتله متخلياً عن الثأر له سوى لهاثي خلف متاع الدنيا؟! ولو كان الأمر كذلك، فلِمَ لم أكن أبالي بحياتي؟! كيف كنت آخذ على عاتقي أصعب المهام وأشدّها خطراً وأنا مغمض العينين؟! كيف كنت أغوص وسط النيران بشوقٍ كسمكةٍ خارج الماء تسعى جاهدة للعودة إليه؟ هل تدري لماذا أيها العجوز؟!».

التقطت أنفاسي، ونظرت إلى وجوه الرجال الذين كانوا يصغون إلي في الغرفة بمنتهى الانتباه:

- إن هذا الرجل الذي قتل أبي منحني حريتي، كما منحني الفرصة لأكون رجلاً... هذا الرجل منحني الفرصة لبدء حياةٍ جديدةٍ تماماً... ولا بد لكل شخصٍ حتى يكون رجلاً قوياً أن يودّع يوماً ما أباه وينزله بيديه إلى

القبر. هل تفهمني يا سافينو؟! هذا ما كان السلطان سليم خان يقوم به مع كل من يتعلق به. فقد كان يجعل أولئك الذين يتعلقون به وجهاً لوجهٍ مع الصفحة القاسية للحياة، ثم يمد يده ويأخذ بأيديهم عبر وحدتهم المميتة. من منا لا يريد أن يكون أقوى من والده يا سافينو؟! أنا أقوى من أبي، ولا بد أنك أيضاً كذلك. هل يمكنك أن تحاسب نفسك ولو قليلاً وفقاً لما أخبرتك إياه؟ ألم تشعر يوماً عند النظر إلى المرآة بثقل الوحدة التي لا يمكن تحملها؟!

ظهرت في عيني سافينو علامات الانكسار، ربما لأنني واجهته بمجموعة من الحقائق التي كان قد أجّل التفكير فيها أو يهرب منها لسنواتٍ. فأي جاسوسٍ مهما بلغ من العمر، لا بدّ له من لحظةٍ ما يتواجه فيها مع الظلام الموجود داخله. فإما أن يتجاوز تلك الصدمة النفسية ويتقبل نفسه كما هي ويقتنع بما يقوم به، وإما أن يظل مخلبٌ ضخمٌ ينخز ضميره طوال عمره.

قال سافينو وقد ظهرت تكشيرة عابرة على وجهه المرتعد: «اليوم سأخلصك من كل أعباء ضميرك أيها الشجاع، وسأمنحك الهدوء والسلام. لا تقلق فلن أعذبك، هناك ميتةٌ سهلةٌ في انتظارك!».

هززت رأسي ونظرت أمامي بطريقةٍ توحي بأنني غير عابئ بأي شيءٍ. وعندما أخرجوني من الغرفة، رأيت أنهم قبضوا على رجالي الثلاثة الآخرين كما توقعت. لم يكن هناك أدنى شكٍّ في ذكاء سافينو، إلا أنني وبصراحةٍ كنت أتوقع منه أن يكون أكثر فراسةً وفطنةً من ذلك. فعندما أخرجونا إلى الشارع كان هناك ثلاثة رجالٍ آخرين يتربصون بهم. وكنت قد نبّهتهم سابقاً إلى أن يأخذوا حذرهم ويكونوا مستعدين لأي نتيجةٍ سيئةٍ محتملةٍ. وسيدرك سافينو بعد قليلٍ أنه ارتكب خطأً فادحاً عندما لم يأمر بتقييد يدي وقدمي بالسلاسل.

ولكن، عليّ أيضاً أن أعترف بأن القدر قد ساعدني. فقد أطلقت

قذيفتا مدفعٍ على مكانٍ قريبٍ جداً منا، وأصبح من السهل جداً على الرجال الذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة أن يباغتوا الرجال حولنا ويفاجئوهم. ثم سمع صوت إطلاق النار وسط الزحام. كان من الواضح أن هذه الأصوات تعود لبنادق الإيطاليين الذين لم يتقنوا قطّ ضبط كمية البارود فيها؛ لذا كانت تتسبب في حوادث كثيرةٍ. ولكن، هذه المرة كان رجالي هم الذين يستخدمونها. ومن الواضح أنهم أخرجوها من مخازن الذخيرة بالقصر، وأنّ من أعدّ كل هذا بالطبع هو دون دامارال.

انتشرت جلبةٌ وفوضى، وبعد فترةٍ وجيزةٍ رأيت الشاب الذي كنت قد رأيته وهو يخدم الفرسان ويقدّم لهم الماء. رأيته وهو يغوص وسط الأعداء مضحياً بنفسه. ملأت رائحة دخان البارود، ورائحة اللحم المحترق أرجاء المكان. لا بد أنّ أحدهم قد أصيب، إلا أن الجميع كانوا يصيحون صيحةً واحدةً، وكان من المستحيل تحديد المصاب بينهم.

وفي تلك اللحظة، لم يكن هناك شيءٌ أهمّ بالنسبة لي من خروجي من هناك. وتبادر إلى ذهني أن جماعتي يمكن أن تنضم مباشرةً إلى إبراهيم البرغالي عندما أموت، وشعرت بضيقٍ شديدٍ من احتمال حدوث ذلك. فهو سيفعل أيّ شيءٍ ليتمكن من تحقيق هذا؛ لأنه مقتنع بأنه قد نال ثقة السلطان سليمان خان. والإنسان إذا اقتنع بشيءٍ ما حتى لو كان وهماً أو كذباً فبإمكانه أن يتغلب على كل العوائق التي تواجهه بسهولةٍ غير متوقعةٍ؛ تماماً كما حصل مع والي الأناضول الوزير الثالث داماد فريد باشا الذي استطاع أن يزيل شخصور أوغلو وكل عائلته من طريقه. ولو نجح إبراهيم البرغالي في ذلك فسيحول الوطن العثماني الكبير إلى مزرعة خاصة له. ولكن ذلك بعيد المنال، ولن يتحقق بهذه السهولة، فهو يستهين بي وبالسلطان سليمان خان أكثر من اللازم.

وألقى أحد رجالي سيفاً أمام قدمي، فالتقطته على الفور، واندفعت بكل ما أوتيت من قوة متوغلاً في صفوف الأعداء الذين أرادوا قتلي أنا

ورجالي. وحدث تناحرٌ دمويٌّ بيننا لفترةٍ قصيرةٍ، وسرعان ما بدأت صيحات الحرب لدى رجالي تتحول إلى صرخاتٍ يطلقها من هم على وشك الموت. وقبل أن يمضي وقتٌ طويلٌ، تحولت تلك الصيحات إلى أصواتٍ متحشرجةٍ تخرج من الرئات التي امتلأت بالدم... كنت أحارب وأنا مغمض العينين، مخفضاً رأسي قدر المستطاع. أتذكر أنني تعثرت مرةً وسقطت على الأرض، إلا أن فدائيًّا آخر من رجالي أمسكني من ذراعي، ودفعني بقوةٍ مذهلةٍ نحو باب الحديقة... عند سقوطي، ارتطم رأسي بالأرض، وأصبحت كتفي اليسرى مجرد عضو غريبٍ في جسدي بعد أن تمزّقت إثر ضربة رمحٍ لست أدري متى تلقيتها؛ إلا أنني لم أكن أشعر بأيّ ألمٍ. وقف رجلان آخران من رجالي يدافعون عن باب الحديقة، ولا بد أنهما جاسوسان تحالفا مع رجالي الناشطين في الداخل، ولحقا بالجماعة بإشارة من دون أندريه دامارال.

وبينما كنت أهرول هارباً تلقيت ضربةً قاسيةً على ظهري، فسقطت منكبّاً على وجهي، وومضت عيناي كالبرق، وسمعت صوت تكسر أسناني وهي ترتطم بالحجارة، إنه لأمرٌ عجيبٌ... إن الموت الذي لم أعبأ به قطّ أو الذي تظاهرت دوماً بأنني لا أعبأ به لا يبدو الآن مرعباً فعلاً... وبينما كنت على وشك الإغماء وأنا أكاد أميز ظلمته الزاحفة نحوي لترخي عليّ ستائرها، تذكرت ما حصل معي عندما كنت طفلاً؛ عندما شددت عقد أمي المصنوع من العنبر الذي كانت تضعه حول عنقها، وكيف قطعته فقط بسبب غضبي... حينها نظرنا كلانا إلى تلك الفصوص الصفراء بلون شمس الأصيل وقد تبعثرت فوق الأرضية الخشبية محدثةً صوت ارتطامٍ يشبه هذا الذي سمعته منذ قليلٍ عند ارتطام أسناني بالحجارة. ترى، هل تذكر هذا أمي العزيزة التي تترقب الآن عودتي؟!

أتذكّر أن أحدهم أمسك بي مرةً أخرى، وساعدني على الوقوف على قدمي المنهكتين وهو يقول لي: «هيا أيها الرئيس، لا تستسلم هكذا. انظر،

إن رجالك يهلكون أنفسـهم من أجلك... اهرب هيا... فحياتك مهمةٌ أيها القائد... اهرب».

ترى، هـل كان ذاك الرجل هو نفسـه الذي أدخل ذراعـه تحت إبطي وأسـندني وأعانني على متابعة المسـير؟! لم أكن متأكداً من ذلك، وكل ما أعرفه هو أنه ليس مهمًّا أن أعرف. فمع الأسف، تلقى ضربة رمحٍ في أعلى فخذه، فيمـا تلقيت طعنة سـكينٍ في ظهـري... في تلك الأثنـاء، انفجرت قذيفـة مدفعٍ أخرى وسـط الطريـق تماماً. انبطـح الجميع علـى الأرض ما عـداي، وتطايـرت قطـع الحجـارة الكبيـرة والصغيـرة مرتطمةً بجسـدي، وأصابت إحداها عيني اليسـرى، وأطفأت نورهـا، وزلزلت الأرض حولي زلزالاً شـديداً، وربما كان ما شـعرت به زلزالاً حقيقياً. كل مـا كنت أعرفه هـو أن قذيفة المدفع هـذه المرة لـم تكن قذيفـةً عاديـةً. وتتابعت أصوات المدافع القادمة من خارج الأسـوار. لا بد أن هجوماً ليليّاً قد بدأ، وإن كان لديّ حظٌّ، وهناك احتمال بأن أنجو بحياتي فسيكون الآن؛ في هذه اللحظة بالذات. اسـتطعت أن أمشـي وأنا أجر قدمـيّ، ومررت بجانـب الهوّة التي أحدثتها قذيفة المدفع من دون أن أسقط فيها... وتناهى إلى سمعي صوت سافينو من مكانٍ قريبٍ؛ رغم الدوي الذي كان يصمّ الآذان. لقد فقد أثري تماماً بسـبب الغبـار والدخـان اللذين زادا مـن حلكة الظـلام. لاحظت أن سـيفي لا يزال في يدي وأنا أجر جسـدي بصعوبةٍ. وانحسر صوت الطنين في أذني، وسـمعت صوت سـافينو مـرة أخـرى... كان يصيح فـي رجاله، ويحاول توحيد صفوفهم... وتمتمت: «لن يحدث هذا بالطبع!».

تراجعـت إلى الـوراء، ومضيت بقوةٍ متجدّدة شـعرت بها تسـري في عروقي التي أحسسـت أنها اتسـعت فجأةً... وبعد عدة خطـواتٍ، وصلت إلى المـكان الـذي كان يقف فيه متتبعـاً صوته، ومسـتعيناً بالظـلام والغبار وملابس الفرسـان المتدربيـن التي كنـت لا أزال أرتديها، والتـي لا تزال تفيدني. ثم خرجت فجأةً من وسـط الغبار والدخان، ووجدت نفسـي أمام

سافينو، وعلى مقربةٍ منه. حدث الأمر فجأةً، حتى إنني دهشت مثله تماماً. فمنذ فترة قصيرة تمكنت من الابتعاد عنه عدّة أذرعٍ على الأكثر! وقبل أن تختفي نظرات الدهشة وعدم التصديق من عينيه، أغمدت سيفي في صدره حتى مقبضه. لا أذكر أنني رأيت من قبل في أي ميدانٍ للقتال مثل تلك الدهشة التي لا توصف التي رأيتها في عينيه الزرقاوين المتسعتين. مات على الفور رغم أنني لم أكن أريد ذلك؛ وكأن قلب هذا العجوز قد توقف قبل أن يسقط على الأرض! كنت أتمنى أن يسيل دمه لفترةٍ طويلةٍ، وأن يموت موتاً بطيئاً. لقد كان رجلاً يؤدي عمله المقزز بتفانٍ، وكان من أخطر الرجال الذين رأيتهم في حياتي. وقبل أن يدرك أحدٌ ما حدث ابتعدت عن المكان بصعوبةٍ. ولكن، هذه المرة كنت راضياً؛ فأنا لم أستطع أن أقتل فل دو ليسل آدم، ولكنني قتلت سافينو.

III

26 أيلول 1522

«كل شيءٍ. أريد أن أسمع كل شـيءٍ يا عثمان». هذا ما قلته للجندي الشـاب عثمان من زونغولـداك فانطلق يقول: «حسـناً يا سـيدي، لا ترهق نفسك».

كنـت قـد أخذتـه تحـت حمايتـي منـذ فتـرة، وكنـت أعلمـه بعـض الأسـاليب حتى يصبـح جاسوسـاً جيـداً. كان واضحـاً أنه قـد وضع بضع قطراتٍ من زيت الزيتون على شـاربه العريض الكثيف الذي أطاله مؤخراً، ومشـط شـعره بيديـه بطريقةٍ مـا مغمضـاً عينيـه الزرقاويـن اللتين تشـبهان الخرز. وبتعبيرٍ أكثر دقّة، كان شـاباً وسـيماً. وإذا رسـم ابتسـامته المقوسة على شفتيه؛ فهذا يعني أنه لا يوجد عملٌ لا يستطيع القيام به.

«فلتسـمع ما حصل إذاً. أتدري مـاذا حدث وأنت راقـد في غيبوبتك ما يزيد على عشـرين يوماً؛ من دون أن تعي شـيئاً من حولك، وأنت تهذي بسبب حرارتك المرتفعة؟».

عنفته برقّةٍ: «اختصر يا عثمان».

ضحك عثمان وهو يقـول: «فلتكن صبوراً بعض الشـيء يا سـيدي. كانـت جراحك عميقـةً، ولكنها لـم تكن مميتـةً والحمد لله. وقـال حكيم باشـي[1] أحمد جلبي إنك سـتنهض على قدميك في غضون أسـبوع، لكن أضلاعك يمكـن أن تؤلمك لشـهورٍ، كما ينبغـي ألاّ ترهق نفسـك حتى لا تسـوء حال جراحك. والأهم من ذلك أن عينك سـليمةٌ، وسـتظل مضمدة

---

(1) كبير الأطباء.

هكذا لفترةٍ ما، ويجب أن تتدبر أمرك وأنت على هذه الحال حتى تشفى».

- دعك مني...

- حسناً يا سيدي. أنت تذكر التقرير الذي قدمته في تلك الليلة وأنت راقدٌ على النقالة عندما وصلت إلى مقرّ الجيش أليس كذلك؟!

- أتذكر قليلاً.

- لقد منحك السلطان مخصصاتٍ جديدةً، كما أمر لك بعشرة آلاف قطعةٍ ذهبيةٍ.

- أعرف ذلك أيضاً.

- في تلك الليلة التي وصلت فيها، نجح الجنود في التقدم بهدوءٍ حتى اقتربوا من السور من خلال النفق الذي حفروه في الناحية الجنوبية لبرج الإنجليز، وأسقطوا جزءاً كبيراً من البرج بتفجير كميةٍ كبيرةٍ من البارود. وبعدها مباشرةً، شنّ جنودنا الفلاحون[1] هجوماً كبيراً. وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الفرسان، تمكن بعض جنودنا من الوصول إلى الجزء العلوي من البرج. غير أن ليسل آدم كان قد وجّه معظم قواته إلى تلك الجهة، وأنشأ خط دفاعٍ مزدوجاً في المقدمة. وعلى الرغم من الغطاء الذي شكله رماة النبال لدينا، تمكنت نيران الأركبوزات[2] من حصد جنودنا بسرعةٍ كبيرةٍ، وفقدنا أكثر من ألفي جنديٍّ. أما السّريّة الصغيرة التي حوصرت داخل البرج، فقد قُتل جميع أفرادها، وتمّ إلقاء رؤوسهم إلينا بواسطة المنجنيقات.

- ما الذي تقوله يا عثمان؟ هل باءت الحملة بالفشل؟!

هز رأسه بهدوءٍ وهو يقول: «مع الأسف يا سيدي، لقد اضطررنا

(1) هم جنود يتم استنفارهم وقت الحرب، ويعملون في الأراضي في حالة السلم، ضمن تقسيمات إدارية للدولة العثمانية في ذلك العصر، ويتدربون على الفروسية ورمي النبال وأنواع القتال المختلفة.

(2) سلاح ناري محمول بدأ الفرنسيون باستخدامه في القرن الخامس عشر.

للانسحاب».

تحدثت وأنا قلقٌ ومهمومٌ: «على جيشنا أن يراعي نقطةً هامةً. فما يواجهنا ليس جيشاً عادياً، بل إنهم داخل قلاعهم المنيعة، ومرتبطون ببعضهم برباط الأخوة حتى الموت. إنهم محاربون نبلاء، وهؤلاء الرجال يمكنهم أن يموتوا من دون الشعور بأي خوفٍ، وهم لا يتراجعون أبداً، وتوقع ذلك منهم ضربٌ من الغباء. لا بد أن تستخدم وحداتٌ وكتائب أكثر تأثيراً، لذلك يجب أن تشترك كتائب اليني تشري، وأن تستخدم القوات الخاصة في آخر مراحل الحرب وإلا فإن الأمر سيطول كثيراً».

ابتسم عثمان فجأةً وقال: «في هذه الأثناء حدثت تطوراتٌ جيدةٌ».

- وما هي؟!

- لقد سقطت جزيرة إيلكه لي بيد القبطان الرئيس قره محمود والرئيس قهرمان...

وفجأه قطّب عثمان وجهه، ثم التقط نفساً عميقاً وقال:

- لكن الرئيس قهرمان سقط شهيداً وهو يحارب في الصفوف الأمامية بمنتهى الشجاعة والبطولة.

وقعت كلماته على مسمعي وقوع الصاعقة، وكنت كمن تلقى صفعةً على وجهه، وقلت وأنا أكاد لا أصدق ما أسمعه:

«وا أسفاه على الرئيس قهرمان. لقد كان جسوراً وقوياً، يحارب العدو بمفرده وكأنه جيشٌ. كان إنساناً عظيماً يفعل ما يقوله. فليتقبل الله جهاده وليكتبه في عداد الشهداء. اللهم اكتب لنا الشهادة ونحن نقاتل الأعداء».

وتابع عثمان كلامه قائلاً: «ثم في الرابع عشر من شوال، فتح جنود البحرية بقيادة مصطفى رئيس وبهجمةٍ واحدةٍ جزيرة انجيرلي الواقعة جنوب غرب جزيرة إيلكه لي، وعسكرت بعض سفننا الحربية في تلك المنطقة، وشكلت خط دفاعٍ أماميًّا ضد خطرٍ محتملٍ للأسطول الصليبي.

- هذا تقدمٌ جيدٌ يا عثمان. هذه الجزيرة كانت في موقع مناسب ليشنّ العدو هجماته منها، وكانت مصدر قلقٍ وإزعاجٍ كبيرين لنا؛ تماماً كشوكةٍ تحت أقدامنا.

- انتظر يا سيدي، فهناك المزيد.

- وكيف ذلك؟

تنهد عثمان وهو يلوي رقبته، ثم قال بصوت مختنق:

«لقد تكبدنا خسائر فادحةً، وانضم الينى تشري إلى حملتنا قبيل حلول المساء، واستمرت الحملة طوال اليوم، ولكنهم قتلوا جميعاً. ولذلك قام السلطان سليمان خان بعقد اجتماع، ووبّخ كلاً من الصدر الأعظم بيري محمد باشا، والوزير الثاني سردار أكرم مصطفى باشا، وعنّفهما قائلاً: أهذا هو الولاء؟! أين التفاني والشجاعة والإقدام؟! فما كان منهما سوى أن قالا بانكسار: النصر لا يتحقق إلاّ بالصبر يا مولانا!

بقي المجلس في الديوان منعقداً طوال الليل؛ حتى أعدت خطةٌ جديدةٌ لشنّ هجومٍ شاملٍ. وكنا نتصرف بموجب هذه الخطة، ونحاول أن نسرع في عملنا قدر المستطاع. وكانت الخطة هي الاستمرار في حفر الأنفاق التي يتم حفرها بالطريقة نفسها، والقيام بهجومٍ شاملٍ عند تحطم الأبراج. إلا أنه ظهر أمامنا هذه المرة ذلك المهندس الإيطالي الذي يدعى غارلي مارتينينغو. لم نعرف متى قدم ومن أين جاء، لكن الرجل كان بحقٍّ خبيراً في حفر الأنفاق والممرات. فقد تمكّن من تحديد أماكن كل الأنفاق؛ حتى تلك التي تصل في أعماقها إلى أربعمئة مترٍ تحت الأرض، وحفر الأنفاق المضادة، ونصب الفخاخ لجنودنا، فانفجرت عشرات البراميل من البارود في جنودنا الذين كانوا يحفرون الأنفاق في منتهى التفاني، ودفنوا وهم أحياء تحت الأنقاض في تلك الأعماق».

- هذا أمرٌ سيّئ... هذا يعني أنه سيتوجب علينا بذل تضحياتٍ كبرى كي ننهي هذه الحرب يا عثمان. لقد أصبحت السيطرة على قلعة رودوس

مسألة شرفٍ بالنسبة إلينا جميعاً، ولا يمكننا أن نفكر مجرد تفكيرٍ في رفع الحصار عنها. سأقدم أفكاري في ديوان الحربية.

سألني عثمان بصوت يملأه الأمل: «ما الذي يدور برأسك يا سيدي؟».

– ما نحتاج إليه ليس فقط مدافع الحصار، بل إننا بحاجة إلى استعمال مدافع الأسطول أيضاً لتطلق نيرانها من مسافةٍ أقرب.

– لقد كان الأسطول يشن هجماته طوال اليوم يا سيدي، ولم تتوقف نيران مدافعه.

شعرت بألمٍ شديدٍ في كل جسدي وأنا أصيح: «عثمان، استخدم عقلك قليلاً! إن ما أعنيه هو سحب مدافع الأسطول إلى مكانٍ قريبٍ من الأسوار. فإن كانوا يحمون أبراجهم الدفاعية بالقطران والمواد الملتهبة العجيبة، فعلينا أن نزيد من قوة نيراننا».

– ولكن، ألا يستلزم ذلك يا سيدي حفر متاريس جديدة؟

– بالطبع أيها الفتى الحائر. يجب القيام بأعمال الحفر وإنزال المدافع ليلاً.

ظهرت علامات الكدر في عيني عثمان، وبدتا وكأنهما سحابتان محملتان بالمطر:

– سيدي، لم أخبرك بالأسوأ بعد.

– ماذا تقول يا عثمان؟! وكيف يمكن أن يكون الأمر أسوأ بعد؟! أقسم إنك ستجعلني أندم على استيقاظي من فراش الموت.

– سيدي، لقد بدأت أعمال حفر الأنفاق مرة أخرى بأمر من سلطاننا في التاسع والعشرين من شهر شوال. كانت الأنفاق الخمسة عشر الأكثر عمقاً تحفر في وقتٍ واحدٍ. ونجح غارلي كالسابق في تحديد أماكن الحفر، إلا أنّ تطوّراً مرعباً في الأوضاع حصل بالنسبة له وللفرسان. ففي الثاني من ذي القعدة، قامت جاسوساتنا الثلاث داخل القلعة بتفجير

مخزن الذخيرة، واستشهدت اثنتان منهن هناك. أما الأخرى فقد ألقي القبض عليها وهي تحاول الهرب، وقُطّعت إرباً. لقد بدأ ذلك الصباح بانفجارٍ هائلٍ يا سيدي أورخون. وبينما كانت كرات النار الملتهبة وسحب الدخان السوداء تتصاعد لتصل إلى عنان السماء، لم أكن أستطيع أن أحدد إن كان ما أراه حلماً أم حقيقة.

– إن ليسل آدم ليس غبياً إلى الدرجة التي يضع فيها كل ذخيرته في مكانٍ واحدٍ يا عثمان.

– وهذا ما حدث بالفعل. ولكن، على الأقل لم يعد لديهم بارودٌ لتفجير الأنفاق التي كنا نحفرها. وفي الرابع والعشرين من أيلول، في ساعات الصباح الباكر، بدأت الحملة الكبرى التي اشترك فيها السلطان بنفسه، وارتفعت النداءات بأمر من السلطان بين صفوف المقاتلين: الحجارة والأرض للسلطان، والدم والمال للجنود، واندلعت اشتباكاتٌ رهيبةٌ في الأنفاق، وتحولت تلك الأنفاق الضيقة إلى مقابر لمئات الجنود الشجعان. وكان الأعداء يحفرون من الجهة المقابلة بالحماسة والقوة نفسيهما. والتقى الفريقان في الأنفاق كلها، ودارت المعارك الضروس بينهما في تلك الأنفاق الضيقة التي لا تتسع إلا لمرور شخصين متجاورين.

وفي الخارج، كان الدوي المرعب الهائل الصادر من القذائف التي تلفظها المدافع يبدو مخيفاً، فيما كانت القذائف تدك الأسوار بمساعدة البارود الذي كان ينفجر في الأنفاق مهدّماً بعض النقاط في الأسوار والأبراج الدفاعية. أمّا نيران البنادق والأركبوزات فكانت تؤمن الغطاء للجنود الذين تدفّقوا عبر الثغرات المفتوحة تحت وطأة القذائف والنيران التي شكّلت سحباً. وعلى الرغم من كل هذا، كان الوضع سيئاً بالنسبة إلى جنودنا المتساقطين جماعاتٍ جماعاتٍ أمام هذه المقاومة العنيفة. كنا نرى من حينٍ إلى حينٍ بعض راياتنا ترفرف فوق الأبراج، غير أنها لا تلبث أن

تختفي بسـرعة... عندها، كنا ندرك أن جندينا الذي نجح في الوصول إلى البرج يخوض معركةً طاحنةً. وفي تلك الأثناء أيضاً، رأيت والي مصر خير بك وهو ينضم إلى الغارات على رأس مجموعةٍ من الفدائيين.

ورغـم كل ذلـك، إن ذكاء السـلطان وفطنتـه المدهشـة كانـا العامل الأساسـي الـذي أضعـف مقاومة الفرسـان، ورفـع الـروح المعنويـة لدى جنودنـا. كان عليـك أن ترى يا سـيدي السـلطان وهـو يدنو من الأسـوار، شـاهراً سـيفه، وحوله الحراس الذين أقسـموا على حماية جسـده الغالي؛ حتى من الطيـور المحلّقـة. وكان السـلطان يصيح فـي أبنائـه الجنود بكل مـا أوتي من قـوةٍ، ويبث فيهـم روح العزيمـة والحماسـة قائلاً: هيـا قاتلوا أيها الشـجعان، قاتلوا... قاتلوا أيها الأبطـال. إنه اليوم المنشـود لتثبتوا فيه بطولتكـم. فإمـا أن نرحل من هنـا ونحن نشـعر بالخـزي والعـار، وإما أن نمضـي منتصريـن... قاتلوا يـا أبنائـي الشـجعان، وأروني ماذا سـتفعلون. فاستجمع الجنود قوّتهم وشـجاعتهم مجدداً، متحمسـين لوجود السلطان بينهـم، ولـم يبـقَ بينهـم متـردد أو جبـان... اسـتمر الزحـف طـوال اليوم والفرسـان يصبّـون الزيـت المغلـي علـى رجالنـا من فـوق الأبـراج وهم يدافعون عنها. حتى إذا مال النهار نحو الغروب، بدأوا يسـتخدمون النيران الإغريقية التي لا تطفئهـا المياه... لم يتوقـف جنودنا الشـجعان أو يتوانوا لحظةً واحدةً، ومضوا إلى الموت دونما ترددٍ؛ لأن السـلطان سليمان خان في تلك اللحظـات كان يقترب كثيـراً من وابل السـهام والنيـران؛ حتى إن الوزراء اتجهوا إليه خائفين، وحاولوا إقناعه بالعودة، لكنه لم يكترث حتى بالسهام والرصاص والشـظايا المتطايرة فوق رأسه، وكان يبعد الجميع عنه قائـلاً: إذا كان الموت مقـدراً فلا مفـر منه. لقـد كان مثل أبيه رحمـه الله؛ ينفث غيظه في نقطةٍ لا نراها داخله.

وهكذا، حرّضـت تصرفات السـلطان غيـر المبالية بحياته آغـا الينيتشـري بالي آغا، فقام مع مجموعة من رجاله بالهجوم علـى أبراج القلعة،

ونجح في الوصـول إلى القمة ورفـع رايتنا هناك. ولكنهم طوّقـوا بعد فترةٍ قصيرةٍ بسبب عدم وصول الإمدادات إليهم، واندلعت معركةٌ حاميةٌ شديدةٌ شـهدها كل من كان بالقرب من الأبراج. حتى إن الطرفيـن تركوا المعركة وشـاهدوا النزال. وهمّ السـلطان سـليمان بقيـادة حصانه العربـي الأصيل مباشرةً إلى منطقة النزال، إلا أن بيري محمد باشـا تدخل في الأمر بنفسه، فقـام الفرسـان المكلفون بحراسـة السـلطان والمرتبطـون به مباشـرةً بأمرٍ من محمد بيري باشـا باحتجـاز حصان السـلطان العربـي الأحمر الأصيل بيـن أحصنتهم القويـة المغطـاة بالندبات من آثـار الجروح، ولم يسـمحوا له بالاقتراب من موقـع النزال. أما السـلطان فـكان يصيح بهـم: اتركوني، اتركوني. ماذا تفعلون؟! اتركوني... ألست سلطانكم؟! ابتعدوا عني.

في تلك اللحظات العصيبة، ألقى بيري محمد باشـا بجسـده النحيل أمام قوائم حصان السلطان، وأمسك باللجام، وبدأ يتوسل للسلطان قائلاً: أرجوك أن لا تفعل هذا يا مولاي. إن نهاية هذا الأمر هي الموت المحقق. مما يعني ترك المسـلمين بدون قائد بسـبب هـذا التصرف المتسـرع! إنك معـروفٌ بهـدوء أعصابك يا مـولاي، فلتحافظ علـى هدوئك. عمـا قريبٍ ستسـقط الأبراج كلها بإذن الله الكريم، وليس فقط هذا البرج. إنها معركةٌ بلا أملٍ بالنسبة إلى فرسـان رودوس. أرجوك ألاّ تقترب من موقع النزال يا مولاي. إن هذا سيجلب علينا غضب الله، وستكون نهايتنا مؤسفة...

وأخيراً، وبشـق الأنفس، عدل السـلطان عن قراره الجنوني، واضطر إلى مشاهدة انهزام أبطاله الموجودين في البرج، وعيناه ممتلئتان بالدموع. حاول بالي آغا والفدائيون العشـرون الذين كانوا معه المدافعة عن أنفسهم باستخدام الرماح في البداية، لكن رماح الفرسـان الشهيرة كانت أطول من رماح جنودنـا. وعندما بدأوا يتسـاقطون الواحد تلو الآخـر، ألقوا دروعهم من فوق الأسـوار، وأمسـكوا بسـيوفهم على طريقة اليني تشـري القديمة، وقاتلوا لفترةٍ طويلةٍ جداً بسـيوفهم مجرّدين من الـدروع. ولولا الإمدادات

التي حصل عليها فرسان القلعة المهرة، لتمكن جنودنا من التخلّص من ذلك الحصار اللعين، ولنجوا بأنفسهم. لقد ذاد بالي آغا ومن بقي معه من رجاله على قيد الحياة عن رايتنا، والتفوا حولها كشجر صنوبرٍ أحمر قانٍ معمّرٍ يبلغ من العمر مئات السنين. وفي النهاية، عندما أدركوا أنه ليس هناك أي أملٍ في النجاة، ربط بالي آغا الراية على رمحه، وألقاها لأصدقائه أسفل البرج، ثم هجم على العدو للمرة الأخيرة. في ذلك اليوم فقط سقط منا خمسة عشر ألف شهيدٍ...

- ما الذي تقوله أيها الفتى؟

- أنا أخبرك الحقيقة يا سيدي. لم يقبل السلطان بانكسار جنوده أكثر، وكان يعتقد أن وضع من هم داخل القلعة أصعب بكثير من وضعنا نحن، لذا قرّر معاودة الهجوم في صباح اليوم التالي. لم يخلع السلطان سليمان خان درعه في ذاك المساء، وبقي في خيمته الكبيرة مع وزرائه وقادته وحراسه. لم يتحدث قط، بل ظل صامتاً، وعيناه مثبتتان على نقطةٍ ما وسط الظلام. لكن صمته ذاك كان جميلاً ومعبّراً، وربما يغنيه عن الكلام طول العمر. لم يتناول لقمة واحدة حينها، وما أعرفه أنه لم يكن يتناول شيئاً منذ عدة أيامٍ. يرى بعضهم أن ذاك الصمت ليس بسبب الحزن فقط، بل لأنه كان ينتظر خبراً... نعم، كان ينتظر خبراً في غاية الأهمية.

قلت لعثمان: «اذهب الآن يا فتى، وقل لعمر فهمي جلبي وأرطغرول جلبي[1] إنني بخيرٍ، وإنني علمت منك بكل ما حدث. وأخبرهما أنني أريد منهما إطلاعي على كل أحوال السلطان».

---

(1) جلبي هنا لقبٌ وليس اسما دالا على عائلة.

IV

عمر فهمي وأرطغرول فدائيان يأتمـران بأمري. وهما في الوقت ذاته في القصر بناءً على أمر السـلطان. أحدهما مشـرفٌ على موائد السـلطان، والآخر رئيس السّرّاجين. لا يتضرر أحدٌ من وجودهما، ولا يهتم بهما أحد بسـبب مظهرهما الصامت الخجول مقارنةً مع حراس السـلطان الخاصين ضخام الجثـث. لكنهما فدائيـان لا يتوانيان عـن القيام بالأعمـال الخطرة، ورجلان يصعب الوقوف في وجهيهما. وكانا مكلفين بحماية السلطان من كل المخاطر، وقاما بالعديـد من الاغتيالات وعمليات التجسـس في عهد السلطان سليم خان.

قال عمـر أفنـدي بابتسـامته التـي تزيـن وجهـه الهـادئ: «لا، الخبر المنتظـر ليـس خبـر الإمـدادات الجديـدة، بـل إن كانـت عمليـة اغتيـال المهندس الإيطالي غارلـي مارتينينغو قد نجحـت أم لا. والحمد لله، فهذا العمل الذي تـولاه حليفنـا دون أندريـه دامارال تكلـل بالنجـاح، فقد قتل المهندس الإيطالي يا سـيدي أورخـون. ويصعب عليهم بعـد الآن مقاومة الأنفـاق التي نقـوم بحفرها. لقـد بدأت بالفعـل علامات الخـوف والرهبة تبدو عليهـم، وبدأت حـالات الفرار مـن القلعة ليـلاً عن طريـق الممرات السرية، وبالقوارب الشراعية الصغيرة تحت ظلمة الليل».

قلت ضاحكاً: «هـذا يعني أنهم ليسـوا أهل فخر ونبل بمقـدار ما كنا نظن».

قـال أرطغرول أفنـدي وقد لمعـت على وجهه الأسـمر نشـوة الظفر الوشـيك: «وإذا أضفنا إلى ذلـك عمليـات الانتحار من فوق الأسـوار كل ليلتين أو ثلاث، فسندرك أن معنوياتهم لم تعد كما كانت من قبل».

21 تشرين الأول 1522

نعـم، كانت هـذه ظاهـرة تـدل علـى أن النصـر بـات قريبـاً. ولكن، متى؟! كنا نكتفي بشـنّ الهجمات التكتيكية الخفيفـة، والقيام بأعمال حفر الأنفاق التي تجعل الأسـوار خرابـةً مدفونةً تحت الغبـار والتراب. وكانت المدينـة تبـدو أحيانـاً بأسـوارها البيضـاء الشـامخة مكانـاً مهجـوراً. لكن فرسـان القلعة لم يكفوا قـطّ عن مواصلـة الترميم وسـدّ الثغـرات، وكانوا يواصلون أعمـال الصيانة طوال الليـل في ظل الأناشـيد والابتهالات بعزمٍ وتصميمٍ جديرين بالاحتـرام. وكانت الليالي تئنّ بسـبب أصوات الفؤوس والمطـارق والرافعـات. وفـي المقابل، كان السـلطان سـليمان خـان يأمر عازفي الموسيقى بقرع الطبول لفتراتٍ طويلةٍ، فتستمر أصواتها بالتردد في المكان حتـى بزوغ خيوط الفجـر الأولى وانبلاج النهـار. وبدأت علامات الملل والضيق تبدو على جنودنا، إلا أن السلطان سليمان كان يختلط بهم، ويأكل معهم مما يأكلـون منه، ويتجـاذب معهم أطـراف الحديث، ويعمل على رفع معنوياتهـم. ولولا هذا التصـرّف الواعي من قِبَل السـلطان لكان صبر الجنود على الحرب التي طالت قد تلاشـى منذ وقتٍ طويلٍ. لكنه لم يكن يظهر لليني تشـري هذا اللين الـذي كان يبديه تجاه الجنـود العاديين، بل كان صوته يرتفـع تعبيراً عن ضيقه وغضبه منهم، فيسـري الاسـتياء في صفوفهم وهم يقولـون: يبدو أن سـلطاننا قد أقسـم على أن يدفننـا جميعاً تحت هذه الأسـوار التي تفوح منها رائحة الجثث. هل يليـق بنا أن يموت هذا العدد الكبير من أصدقائنا في سـبيل هذه القلعـة الصغيرة؟! نحن نريد أن نعود إلى إسطنبول؛ إلى معسكراتنا...

فكان السلطان سليمان خان يخرج من خيمته عندما ترتفع أصواتهم، ويقول لهم: «ألسـت أباكم؟! ألست رفيقكم؟! ألسـت كبيركم وسيدكم؟! أهو الخوف الذي يدفعكم إلى العودة وأنتم تنالون عطاياكم وتستوفونها؟! حرب القـلاع تختلف عن حـرب الميدان، وقـد يطول الأمر أحيانـاً، والله

وحده يعلـم ميعاد الفتـح. فهل كنتـم تتوقعون خـوض حرب سـهلة وأنتم المحاربون المجرّبون؟».

وعندها، كان الصمت والهدوء يسـودان لفترةٍ تأثراً بكلام السـلطان. لكن هـذه الطائفة التي تملك الاسـتعداد الدائم للعصيان سـرعان ما كانت تتذمر مجدّداً.

كنت أشعر بتحسنٍ كبيرٍ، لكنّ أضلاعي كانت لا تزال تؤلمني. وكما حذّر الأطباء، كان ينبغي ألاّ أقوم بعملٍ شـاقٍّ للحيلولـة دون تردّي حالتي الصحية، فضلاً عن الألم الشـديد الذي كان يتركني فـي منتهى العجز. أما كتفي اليسـرى فكانـت قبل عـدة أيّام تشـتعل ألماً، فيمـا لـم يكـن بإمكاني رفع يدي اليسرى أعلى من محاذاة رأسـي. وكنت عندما أفعل ذلك أسمع صوت طقطقةٍ غريبةٍ، ثم أشعر وكأن سـيخاً رفيعاً وحاداً ينغرز عند مفصل كتفي. أخبرني الجراحون أن إصابتي تحتـاج لعمليةٍ كبيرةٍ. لكن، كان لدينا في ذلك الوقـت الكثير ممـا يجب القيـام به، ولذلـك لم أكن أسـتطيع أن أخاطر بالحصول علـى العلاج لفترة طويلة. وفي كلّ الأحوال لن أتحسـن تماماً، واحتمال حصول ذلك ضعيفٌ جداً.

تحولت منخفضـات رودوس إلى ما يشـبه أنفاق الخلد بسـبب كثرة الأنفـاق فيهـا. كان يخيل لـي أحيانـاً وكأن القلعـة برمتها ستسـقط وينتهي أمرها. يا الله! كم روحاً أزهقت في سبيل سـقوطها؟! إلا أن خبر الخسارة العظمى جاء عقب صـلاة الظهر اليوم. فقـد خرج بيلر بيـي مصر خير بك مع مجموعةٍ من رجاله في طلعةٍ استكشافيةٍ نحو القسم الداخلي للجزيرة؛ بحثاً عن صيدٍ طازجٍ للسـلطان، فوقعوا في طريق عودتهـم على فخٍّ نصبته لهـم مجموعةٌ من الفرسـان. لم يكونـوا مسـتعدين لذلك، ولـم يدركوا ما حل بهـم. ويبقى السـؤال الأهـم والأخطر: إلى أي مدىً يسـتطيع فرسـان القلعـة الخروج من القلعـة والحصول على مياه شـربٍ ولحـم صيدٍ وقتما يريدون؟! كنا نعـرف أن لديهم ممرات سـرّيّةً تؤدي إلى البحـر، ولم نكن

نهتم بهـا كثيراً. ولكـن، إن كانت لديهم ممـرّات أخرى تـؤدي إلى جنوب الجزيرة فهذا يمكن أن يشكل لنا جميعاً مشكلةً كبيرةً.

حارب خير بك ورجاله بجرأةٍ وجسـارةٍ، لكن فرسـان القلعة تمكنوا مـن مباغتتهم، واسـتفادوا مـن عنصـر المفاجأة، فسـقط خير بـك ورجاله خلال فترةٍ وجيزةٍ واستشهدوا جميعاً؛ باسـتثناء من قادوا أحصنتهم بسرعة البرق ولاذوا بالفرار.

حزن السـلطان سـليمان خان لذلك كثيراً. فقد كان خير بك شـخصاً عادلاً وشـجاعاً خـدم السـلطان سـليم بمنتهـى الـولاء، وحـاز على حب السـلطان سـليمان خان وثقته أيضـاً عندمـا جاءه بالإمـدادات فـي الوقت المناسب من دون أن يطلب منه ذلك.

غضب السـلطان غضباً شـديداً، وأمر بتسـريع الهجمات مرةً أخرى. وقام على رأس مجموعةٍ من حراسـه بزيارة جنود التحصينات الذين كانوا يعملون على نقل مدافع الأسطول إلى أماكن أقرب للأسوار، وتفقد أعمال حفر الأنفاق، ودعا بالخير لهم جميعاً. وفي ذلك اليوم، صلى السلطان كل الصلوات مع جنـوده، ونزع عنه ملابسـه الفخمة، ولبس ثيـاب قائد عادي لمجموعةٍ من الجنود، وكأنه يريد أن يزيل عن كاهله عبء السـلطنة الثقيل ولو لفتـرةٍ وجيـزةٍ. ورأيناه وهو يمسـك بالجـاروف، ويعمل مـع الجنود. اعتـرض وزراؤه ولكنه لم ينصت إليهم، ولم يسـمح لأي منهـم بالتدخل. لقـد كان يحفـر الأرض وكأنه يـود أن يلقـي بالألم الذي يشـتعل فـي قلبه والتعـب الروحي الـذي ينهكه فـي باطـن الأرض. وأخذ يحفـر ويحفر... ثم اعتدل في وقفته تحت المطر الشـديد وهو يقول: «اسمعوا أيها السادة، وأيها القادة. إن لم أتمكن من إسـقاط هذه القلعة، وإن لـم أثأر لأصدقائي، فليكن قبـري داخل هذه الأنفـاق». فصاح كل مـن كانوا حولـه في صوتٍ واحدٍ: «حفظ الله السـلطان». إلا أن من رأى ذاك الحـزن الفظيع في عينيه أدرك على الفور مدى رغبته الشديدة في الانتقام.

في تلك الليلة، انضممت إلى الديوان بصفتي قائد الحرس الخاص، وأصغيت إلى كل من تحدث. كان السلطان سليمان يبدو متعباً وغاضباً كما لم أره من قبل، وكان الصمت يسود المجلس، ولم يكن أحدٌ ينبس ببنت شفةٍ. وبعد عبارات العزاء تحدث إبراهيم البرغالي. وما إن سمعت صوته حتى انتبهت بكل جوارحي رغم ذلك الألم الذي كنت أشعر به في معدتي، وأصغيت لما يقوله.

أنت أيضاً كنت تلاحظ وجودي وتحتاط له، أليس كذلك يا إبراهيم؟! أنت أيضاً كنت تشعر بالخوف لأنك تعتقد أنه يمكن أن يكون هناك من يرى ما هو تحت قناعك. ولكنك رغم ذلك لم تكن تعبأ بأحدٍ. كنت تشعر بالقلق خوفاً من انكشاف خطواتك الكبيرة الصامتة عاجلاً أم آجلاً. لقد كنت منذ البداية تكرهني كرهاً شديداً. لم تكن تكره بيري باشا أو مصطفى باشا أو أي شخص آخر من الوزراء والسادة وكبار رجال الدولة من الأتراك إلى الحد الذي تكرهني به. كنت تشك في أنني على علمٍ بالمؤامرة الدنيئة التي نفّذتها مع حليفك فرحات باشا للتخلص من شخصور أوغلو البريء، وكنت تخاف كثيراً من أن أقوم بفعلٍ خارجٍ عن سيطرتك، وتشعر بأنني قريبٌ من السلطان بشكلٍ خفيٍّ، ولم تستطع التخلص من خوفك من انقلاب السلطان عليك بسبب قربي الشديد منه. ولكن، هل لك أن تصدق أنني كنت أتجنبك يا إبراهيم؟ فقد أغاظني كثيراً وقوع خير بك في ذاك الشرك البسيط بتلك الصورة. علاوةً على ذلك، كانت كل خطوةٍ تخطوها تسبقني بخطوةٍ. وأعترف أنّ ما استطعت تحقيقه بقربك من السلطان أكبر مما حققته أنا.

ولكن، كنت أعرف أنك تثق بأحاسيسك مثلما تثق في ذكائك. ولهذا كنت أكتفي بالانتظار. فلا تنس أن من يقف أمامك جاسوس. وبينما أنت تنتظر بفارغ الصبر حتى تبصق على قبري، كنت أريد أن أرى من بعيدٍ الغربان وهي تنهش جسدك. وباختصارٍ، لم أكن لأواجهك. وكان هذا

أيضاً فارقاً بيننا؛ وهو ما لم تستطع فهمه قطّ. لقد كنت تنزعج قليلاً وأنا أستخدم ضدك بعض أوراقي الرابحة في الخفاء، ولكنك لم تكن تستطيع أن تعرف ما هي مطلقاً؛ لأننا أنا وأنت يا أخي نتنافس هذه المنافسة المخزية وسط جهنم تماماً. ولكنني أقسمت أن أقوم بتجميدك في أعماق جهنم يا إبراهيم. لطالما كنت واثقاً من وجود علاقة ما أو اتفاق بينك وبين حرّم، وكان مكرك هذا هو ما سيعجل بنهايتك. كما أن مشكلة الجارية الفرنسية صوفيا علقت بذهن السلطان وكأنها شوكةٌ رفيعةٌ، ولكن هذه الشوكة الرفيعة تكبر وتذكره بوجودها يوماً بعد يومٍ.

شيءٌ واحدٌ يصف كلينا
(إبراهيم البرغالي)

I

«جريت، وعانقت موسم الدماء مبكراً،
وفي ممرٍّ دمويٍّ أصبت وعلقت».

يلماز أوضة باشي

كانت عيناه مسلطتين عليّ مجدداً، وكان ينظر إليّ مباشرةً... ألن تتراجع أبداً يا أورخون جلبي؟! وهل تعتقد أنني لم أفهم؟! كنت أدرك أن هناك خطأ ما، فأنت لم تتخلف عن تعقبي مطلقاً، لكنك كنت تعلم جيداً أنني لم أكن أحمق. ونهايتك لم تعد بعيدةً، وكذلك نهاية كل الأتراك على هذه الأرض لم تعد بعيدةً أيضاً. فتلكأ قليلاً، وقف جانباً لترى كيف تكون العبقرية. أمّا أنا، فسأقف وسط الديوان وألعب لعبتي وأنا أستعد للمشهد. فالآخرون لا يخيفونني؛ إنهم لا يخيفونني على الإطلاق.

قلت ووجهي يغتسل بالضوء المنبعث من الشمعدانات العملاقة ذات القوائم البرونزية:

- مولاي، كان حاكم مصر في عهد المرحوم والدكم خاضعاً للمماليك، وهي الدولة التي أسسها قوقازيو الشمال من الأصل التركي. وبعد الانتصار في الريدانية عام 1517، بلغت عدالة الدولة العلية تلك الأراضي أيضاً، وتم تأمين طرق الحج بمقدارٍ كبيرٍ. وقد ترك والدكم أشراف القوم حكاماً على كل المناطق التي فتحها؛ وهذا يرجع إلى شدّة

عبقريته ودهائه. وأرى أنه من المناسب الآن أن تتبنوا أنتم أيضاً السياسة نفسها.

فأجاب السلطان سليمان خان بحدةٍ مرتدياً درعه البرّاقة التي لم يخلعها منذ أيام:

- ما الذي تحاول أن تقوله يا إبراهيم؟!

- ما أحاول أن أقوله لجلالتكم هو ضرورة أن يكون حكامكم أيضاً من أصول تركية.

سعل السلطان سليمان خان سعالاً خفيفاً وقال:

- أنت محقّ. أنت تعلم يا إبراهيم أنني أحترم فِراستك. ثم سأل: «ما رأيك أنت يا باشا؟!». مشيراً بيده إلى بيري باشا.

لامس بيري باشا لحيته البيضاء برقّة، وعلى الرغم من ارتسام ملامح تفكيرٍ عميقٍ على وجهه الصغير تحدث قائلاً:

- أرى أن ما قاله إبراهيم البرغالي آغا صحيح يا مولاي، ولكنه لا يصحّ الآن في هذا الموقف. إذ إن قدوم الواحد منهم وتضحيته برأسه في سبيلكم بعد كل ما فعلناه في مصر لا يترك مجالاً للسؤال عن ولائهم. وربما يسبب هذا ردّ فعل معاكساً بحسب رأيي.

- أتقول إنّ تصرّفاً كهذا سيحدث مشكلةً في الثقة يا باشا؟

- إنه احتمالٌ فقط يا مولاي. فمتى كانت مصر معمورةً كما هي الآن في عهدنا؟! وفي أي زمانٍ تمتعت بهذه الراحة والأمان؟ فالجنود العثمانيون يجوبون الصحراء في دورياتٍ ضد الخارجين عن القانون، والشعب يتمتع ببيئةٍ يعمّها السلام.

- سآخذ بعين الاعتبار أفكارك وخبرتك يا باشا، وسأفكر مليًّا في الموضوع.

* * *

حين انفضّ الديوان في وقت متأخر من الليل وبقينا وحدنا قلت:

- إن وزيركم الثاني حضرة سردار أكرم مصطفى باشا مناسب جداً لهذه المهمة. فهو ذو أصلٍ تركيٍّ، كما أنه رجلٌ مخلصٌ وصاحب خبرةٍ، ولهذا السبب سينسجم بسهولةٍ مع شعب المنطقة.

فأجاب السلطان سليمان خان فيما الحزن لم يعد يفارق عينيه اللتين تفيضان بالتعب والرغبة في النوم:

- إن مصطفى باشا إنسان عظيم، ولن يمتعض من أداء أي مهمةٍ توكل إليه. ولن يتردد في تحمل كامل صلاحيات القائد. إنه اختيارٌ سليمٌ، ويجول في خاطري أيضاً أنه الشخص الذي يمكنني الوثوق به أكثر من سواه.

- إنه مناسب يا مولاي.

- وإذا تم ذلك، فمن الذي يمكن أن يشغل مكانه يا إبراهيم؟

- بحسب رأيي يا مولاي، أحمد باشا الألباني أمير أمراء روم إيلي.

- هل أنت متأكد من ذلك يا إبراهيم؟

- أراه اختياراً جيداً يا مولاي. فأحمد باشا رجلٌ عاقلٌ وخبيرٌ وجسورٌ لا يعرف معنى الخوف، وهو يمضي إلى هدفه من غير تردد.

ليتني أستطيع القول إنني لم أر التعبير المفعم بالشك والتساؤل الذي لمحته في عيني السلطان. ترى، هل تماديت أكثر ممّا ينبغي؟! هل كان السلطان سليمان خان يرتاب في تصرفاتي ويخفي ذلك عني ببراعة؟ أم إنه أعظم ممثل هنا؟ هل يمكنه أن يفعل ذلك؟ أنا أعرفه منذ زمن طويل، لكن البشر يمكن أن يتغيروا.

- فليصل فرماني إلى مصطفى باشا، وليتحرك مباشرةً إلى مصر غداً. سيتولى السلطة هناك ويحكم مصر باسمنا. وأرسل لأحمد باشا أيضاً عمامة الوزارة وقفطاناً، فهو سردار[1] الغزوة منذ اليوم. وتحدث مع الدفتردار سنان باشا عن الهبات التي ستمنح وفقاً للقانون، وبلغني بما

---

(1) قائد القوات.

ستؤول إليه الأمور.

فانصرفت من مجلسه وأنا أقول: «أمركم يا مولاي».

كانت المواجهة بين أحمد باشا وبيري باشا في أثناء الهجوم على بلغراد لا تزال حيةً في النفوس. فقد أقنع أحمد باشا السلطان في بادئ الأمر بالمسير أولاً إلى بودين، وكان يصعب على بيري باشا تغيير رأي السلطان، فتجادلا بجرأة في حضرة السلطان وتماديا أمامه. غير أن قرار السلطان كان لصالح بيري باشا، وأصبح من المستحيل ألا يحمل أحمد باشا في سرّه ضغينةً ضد بيري باشا. وكان لا بد لأحمد باشا من البحث عن طريقةٍ للانتقام من بيري باشا إن أصبحا في منصبين متقاربين، وسيكون ذلك سبباً للقلق وإثارة القلاقل في قمة السلطة. أما السلطان سليمان خان فسيتحمل هذا الموقف لفترةٍ قصيرةٍ على أقصى تقديرٍ؛ رغم كونه صبوراً. فهل يمكن لخطتي هذه التي تبدو في غاية الحكمة والبساطة أن تعرّضني للمساءلة؟ وهل تضعف حيطتي كلما ازدادت قوتي؟ ولكن، إن لم أستطع أن أحصل على فريستي في وقتٍ ضبابيٍّ كهذا تعبت فيه العقول والأفئدة، فكيف ومتى ستتاح لي فرصةٌ كهذه مرةً أخرى؟

II

15 تشرين الثاني 1522

من المؤكد أن المكوث أمام هذه القلعة منذ أربعة أشهر وحتى الآن قد أتلف أعصاب الجميع. وأصبحت مواصلة العمل ليلاً ونهاراً، تزداد صعوبةً. وبالرغم من بحثنا المكثف، لم نستطع أن نعثر على الممرات التي يستخدمها الفرسان للخروج من القلعة. وكان هذا الوضع يثير ضجر السلطان سليمان خان وسخطه فعلاً. وعلى الرغم من أن هذا الأمر لم يكن هاماً - إذ لم يكن من الممكن أن يتجولوا على سجيتهم داخل الجزيرة - إلاّ أنه كان كافياً لإثارة الغضب؛ فالذبابة صغيرةٌ لكنها مزعجة. وذات يوم، حدثت مصادفة صغيرة، إذ عُثِر على منحدر على الضفة الأخرى كشف عن ممرٍّ ضخمٍ يقود نحو الخارج لم تلاحظه عيوننا من قبل. فأحياناً، تكون الطريقة المثلى لإخفاء شيءٍ ما بتركه واضحاً مع القليل من التمويه؛ وهذا ما حدث هنا بالضبط.

فالأرض ذات المرتفعات الكثيرة في المنحدر البعيد جنوبي القلعة كانت تختفي وراء أشجار كثيفة، ولم يكتشف وجودها أحد من هذا الجيش الكبير. وفي أحد الأيام التي أمضيناها هناك، عثرت مجموعةٌ من جنود اليني تشري في دورية لهم هناك على أرنب بري ضخم، وأصابوه بسهم، لكنه نجح في الهرب زاحفاً. وعندها، أصرّ الجنود على تتبع آثاره، إلى أن عثروا عليه ميتاً، فيما كان يحاول الاختباء في حفرةٍ صغيرةٍ بين الشجيرات. لم تكن الحفرة تشبه جحر أرنب عاديًّا، فقد وجدوا فيها عدة مواضع بارزة، وسطحاً مستوياً في الداخل لا يستطيع أي حيوان أن يصنعه. وبينما كانوا يستشيطون غضباً، ظهرت أمامهم آلةٌ. كانت عبارة

عن رافعة منتصبة فوق منصة تتحرك بنظام البكرات، ترفعها وتخفضها. استطاعوا تحريكها، فرأوا عندها بعض الأشجار في السهل وهي تهبط نحو الأرض وتخرج مكانها منصات كبيرة، ورأوا في الداخل نظام أنفاق شاسعاً ومعقداً. واتفقت آراؤهم جميعاً على أنه ليس المخرج الوحيد. وبعد جولةٍ قصيرةٍ، أغلقوا المنصة كما فتحوها، وعادوا ليخبروا قائدهم عمّا وجدوه.

أمر السلطان سليمان خان بإعداد كمينٍ في ذلك المكان، لكن أحداً لم يخرج من الممر. واستمر الصمت عدة أيامٍ. ثم في إحدى الليالي، وفي ساعةٍ متأخرةٍ، سُمِع صوت السلاسل وأزيز البكرات المحمّلة بحملٍ ثقيلٍ. ولم يكد الفرسان يخرجون من الممر حتى وجدوا أمامهم الجنود العثمانيين. فهاجمهم جنود اليني تشري وضيقوا عليهم الخناق ولم ينج أحد منهم. لكن الجولة التي قام بها جنود اليني تشري داخل الأنفاق المظلمة انتهت عند حاجزٍ حديديٍّ غليظٍ مشبكٍ عمره بضع مئات من السنين، فكان لا بد من تفجيره وفتح الممر وإدخال كميةٍ كبيرةٍ من البارود إلى القلعة. وكان من المتعذر نقل المواد المطلوبة إلى هناك، فرماة السهام خلف قضبان الحديد لم يتركوا أي فرصة لذلك، والنهر بدوره كان يفيض مساءً فيغرق كل الأنفاق. وإذا كنا لا نستطيع الدخول، فهم أيضاً لن يستطيعوا الخروج من هذا الممر منذ الآن فصاعداً.

9 كانون الأول 1522

صباح هذا اليوم، تم تجاوز الأسوار من خمس نقاط وذلك بعد هجومٍ كبيرٍ. وفي النهاية، اضطر الفرسان للانسحاب والاختباء خلف المتاريس الداخلية بعد أن حاولوا التصدي للهجوم ببسالةٍ، وواجهوا مصيرهم بكل شجاعةٍ... وعلى أي حالٍ، لا بد من تقدير جهود الطرفين؛ فالأمطار الباردة التي هطلت من دون توقف في الأيام الأخيرة، ورياح

الشمال الشديدة ألقت بظلالها المنهكة على الطرفين معاً!

قال السلطان سليمان خان الذي فقد الكثير من وزنه، وارتسمت على وجهه الجميل خطوط عميقة تظهر على وجه من يتقدم به العمر: «سأعطيهم فرصة أخرى». كنت أعلم جيداً أنه يضغط على نفسه ليظل هادئ الأعصاب، ولم يعد يتحمل كما كان سابقاً. ثم تنهد سائلاً: «هل تعلم لماذا يا إبراهيم؟ لأن كل شخصٍ يحارب من أجل وطنه يستحق فرصةً ثانيةً».

- وهذا يليق بمقام سموكم يا مولاي. إن جواسيسنا في الداخل يقولون إنهم استهلكوا في الأيام العشرة الأخيرة ذخائر كانت تملأ أربعة عنابر وترسانتين، ولن يستطيعوا الصمود كثيراً في ظل هذه الظروف.

فحوّل نظراته المتعبة التي لا تزال ثاقبة نحوي وقال:

«جهز لي يا إبراهيم رسولين يفهمان في السياسة. وليقابلا قائد القلعة فل دو ليسل آدم وليقنعاه بشروط تسليمها. سأسمح لهم بأن يبقوا المدافع داخل القلعة على أن يسلموا الأسلحة والعتاد ومقتنياتهم القيمة في غضون ثلاثة أيامٍ من دون التعرض لخطر الهجوم. وسيكون هذا آخر عروضي لهم، وبعد ذلك سأهدّم كل شيءٍ، وأدخل من دون الشعور بالرحمة تجاههم. يجب أن يدركوا جيداً أنني سأنتصر في هذه الحرب. أملِ كلّ ما قلته على أحد الكتّاب، واجعل بيري باشا يصادق على الرسالة، واختمها بخاتمي». وواصل كلامه وهو يضرب بقبضة يده اليمنى ركبته بخفةٍ ويقول: «ماذا سيقول الأوروبيون عندما يجدون أن الحرب طالت هكذا يا إبراهيم؟ ألن يرسلوا رسولاً يستجدون به شفاعتنا؟».

- بلى، سيفعلون يا مولاي. ولكن، إن لم يكن هناك أمرٌ هام للغاية تريدونه منهم، فسيقابل وزراؤكم الرسل القادمين.

- كن موجوداً أنت أيضاً في تلك الاجتماعات منذ الآن فصاعداً يا إبراهيم، وأنا أمنحك صلاحيةً مطلقةً.

لم أضيع الفرصة وقلت: «يا مولاي، إن موقف بيري باشا معروف للجميع! ويمكن أن يفهم أنكم أرسلتموني لأكون رقيباً عليهم، أو جاسوساً لكم. وأنتم تعرفون ما سيقوله بحقي، فهو الذي أطلق عليّ لقب أكبر متملقي العصر».

ضحك السلطان سليمان خان وقال: «لا تلق لذلك بالاً يا إبراهيم. فقد أصبح بيري باشا عجوزاً، وسأكلمه إن لزم الأمر، فكن مرتاحاً ونفذ أمري».

في اليوم التالي، كان الغازي سلطان زاده خسرو بك وصاحب غيراي رسولينا إلى فل دو ليسل آدم... وكان رده على الرسالة المختومة بختم السلطان الذهبي أنه يريد إطالة المهلة إلى عشرة أيام. إذ لم يكن يريد أن يظهر بين رجاله كقائدٍ مسكينٍ يقبل كل شروط العدو، وهذا أمر طبيعي.

كانت تقع على كتفيه مسؤولية سلالةٍ عريقةٍ معتادةٍ على الحكم طيلة عمرها، ولم تعرف الهزيمة حتى في أحلك الأزمان اسوداداً. وكان واضحاً أن ليسل آدم لم يعد سوى رجلٍ مطأطئ الرأس نحو الأرض بسبب شعوره بالذّل. ولم يكن لدى السلطان سليمان خان وقتٌ للتفكير في مشاعر أحد منهم. وكان رد الفرسان على موقفه أنهم أطلقوا النيران مجدداً من مدافعهم... وفي اليوم نفسه، جاء رسولان من قبل فل دو ليسل آدم إلى المعسكر، وقابلهم الوزير الثاني وقائد العسكر أحمد باشا. وعرفت في ما بعد أن هناك وثيقةً مثيرةً للانتباه يحملها الرسولان؛ وهي الوثيقة التي كتبها السلطان بايزيد الثاني، والتي تعبر عن عرفانه بجميل فرسان رودوس بسبب المساعدات التي قدّموها للسلطان جم. وقد بين فيها السلطان بايزيد أنه لن يكون راضياً في الدنيا ولا في الآخرة عن أي سلطانٍ من نسله يضع رودوس نصب عينيه.

قرأ أحمد باشا هذه الوثيقة واستشاط غضباً، وسمعت ممن كانوا

هناك أنه مزق الوثيقة إرباً إرباً من دون الاكتراث لقيمتها التاريخية، وداسها بقدميه، وأمـر ببتر أصابع الرسـولين وآذانهم وأنفيهما، وبعث رسـالة مليئة بالسباب الفاحش إلى دو ليسـل آدم، ثم ندم لاحقاً على ما فعله بعد فوات الأوان، وحـاول إخفـاء ذلـك. وكان بإمكاني أن أتسـتر علـى الحادثة وقد بلغتني كورقـةٍ رابحـةٍ، ولكنني لـم أفعـل؛ إذ كان من الضـروري أن يكبح جماح أحمد باشا حينها.

تصنعـت حالةً مـن الحـزن والغـم، وذهبـت إلى سـرادق السـلطان سـليمان خان الذي كان يعجّ بالروائح وأصـوات طقطقة النار المشـتعلة، فسـألني ما إن رفـع رأسـه: «خير يـا إبراهيـم؟». فقصصت عليـه ما حدث بصوتٍ هادئٍ ومهمومٍ، وشرحت له أنّ ما أوقع الكآبة في نفسي هو رؤيتي رسـالة ذات قيمة تاريخية كتبها واحد من آل عثمان تـداس تحت الأقدام، وتنتهك بدلاً من تقبيلها ووضعها فوق الرؤوس.

– وقد أمر ببتر أعضـاء الوزراء أيضاً أليس كذلك؟ إنهـا إهانةٌ لتذكار جدي الأكبر وظلمٌ للرسـولين. أرسـل في طلبه حالاً يا إبراهيـم، وليحمد الله لأنني لسـت إنسـاناً سـريع التصرف مثل والدي، وإلا لكنت قد أمرت بقطع رقبته في الحال.

26 كانون الأول 1522

في اليـوم الثاني من شـهر صفر، ظهـرت الرايات البيضـاء من خلف المتاريـس، وبذلـك أعلن الفرسـان وقـف إطلاق النـار من طـرفٍ واحدٍ، فانطلقت سـجدات الشـكر، وتعانق الجنـود فرحاً باستسـلام العدو. وكان الإعياء والسأم في حالتهما القصوى عند الطرفين.

كانت هذه الحرب الوحشـية في ظل البرودة، والطيـن الأحمر الذي لا ينظّف عن الأجسـاد بسـهولة، والأبدان التي أسـقطتها الأمراض منهكةً وتفقد معناها من يومٍ لآخر. وكنا نعلم على سـبيل المثال أن وباء الزنطاريا

قد انتشر عند الطرفين. وبدأ وباء التيفوئيد المصحوب بالنزيف بالظهور، وكل محاولاتنا لمواجهة هذين الوباءين باءت بالفشل. وبعد ساعات قليلة، عند ظهر ذلك اليوم، خرج قرابة عشرين فارساً على صهوات خيولهم الهزيلة من خلف المتاريس مهرولين. كان خيلاؤهم ووقارهم الظاهريان يتلاشيان في خطوط وجوههم الخالية من الحياة، وفي نظرات أعينهم اليائسة. مروا تحت قنطرة الباب الذي لم يعد موجوداً؛ تلك القنطرة العالية المغطاة بآثار الدماء والبارود، ونظرات الازدراء مسلطة عليهم من الجنود العثمانيين الذين يشاهدونهم من الأسوار التي آلت إلى أيديهم، واتجهوا مباشرةً إلى معسكر الأتراك. سلّم الرسل شروط التسليم باحترامٍ للصدر الأعظم بيري محمد باشا، فقرئت في حضرة السلطان بصوت مرتفعٍ: «كفالة حرية ممارسة الطقوس الدينية للراغبين في البقاء في الجزيرة، وعدم أخذ الضرائب من الشّعب لمدة خمس سنواتٍ، ومغادرة الراغبين الجزيرة في غضون ثلاث سنواتٍ، ونقل الفرسان وتابعيهم بالسّفن العثمانية إلى قلعة قندية في جزيرة كريت وإلى جزيرة مالطة، والسماح بإخلاء الجزيرة خلال اثني عشر يوماً، وتسليمها!».

قبل السلطان سليمان خان بتلك الشروط وبدأت مسيرة الإخلاء بسرعةٍ وهدوءٍ. وفي يوم الثامن من شهر صفر، كان الفرسان قد أنهوا عمليات إخلاء الجزيرة إلى حدّ بعيدٍ. وفي ساعات ما بعد الظهيرة من ذاك اليوم، جاء فل دو ليسل آدم ومعه عددٌ من المحاربين القدماء إلى المعسكر. كانت الأمطار تهطل بغزارةٍ، والمياة التي تشبه السيول المحملة بالطين تجري من أعلى الجبل إلى النهر وكأنها تجرف معها حقبةً من التاريخ. كانت الضفتان قد أصبح لونهما كلون التراب، وكانت الطيور البحرية تبكي على أعشاشها التي فقدتها في المنحدرات، وتطير بالقرب من المعسكر حزينة؛ تماماً مثل فرسان العدو.

ترك السلطان سليمان خان الفرسان ينتظرون تحت وابل الأمطار

البـاردة كالثلج لمدة ثلاث سـاعاتٍ كاملةٍ قبـل أن يأذن لهـم بالدخول، ثمّ جلس على عرشه المرصّع المصنوع من خشب الأبانوس فوق السجادات الفارسـية المصنوعة من الحرير، وسـط سـرادقه الـذي يغلب عليـه اللون الأحمـر، وكان الترف والغنـى يبدوان واضحيـن على السـلطان الذي كان يرتـدي قفطانـه المزركش بالزمـرد الأخضر والمشـغول بالألمـاس. وكان سـيفه المزخرف خارج غمـده على مقربـةٍ من يـده بالرغم من أنه مسـنود على عرشـه، كما كان آبـاؤه يفعلـون عند مقابلة رسـل العدو. إلا أن شـيئاً ما كان في جلسـته ونظراته؛ وكان هذا هو السـر وراء سـحره في الأساس. كان حاكماً حقيقياً في كل أحواله؛ حاكماً حقيقياً على وجه الأرض. وكان مختلفاً بلا شـك في كل شـيء خاص به؛ بدءاً مـن الخطـوط العميقة التي ظهرت مؤخراً على وجهه الفتيّ، إلى تعابير عينيـه الثاقبتين اللتين تخترقان من يخاطبـه وتتخطيانه، ووصولاً إلـى كتفيه العريضتين، وصـدره المنتفخ قليـلاً، ووقفتـه السـاحرة، وسـاقيه الطويلتيـن. كان مختلفاً عـن كل ملوك أوروبا الذين كانوا فقراء وبدأوا يجمعون ثرواتهم حديثاً.

لم يكـن السـلطان سـليمان خان يسـعد بمجالسـة مـن لا يعرفهم ولا بالحديث معهـم. لكنه اليـوم مختلف بكل تأكيـد. وبعد أن تملق ليسـل آدم ومن معه السلطان سليمان خان نيابة عن جميع الفرسان، عبّروا عن شكرهم له من أجل كلّ التسـهيلات التي أمر بها فـي عملية الإخلاء. تأثّر السـلطان بموقف الفرسـان المليء بالاحتـرام، وبارتعـاش أصواتهم الهادئـة في أثناء الكلام، وبنظرات أعينهم المتخاذلة، فقال لهم بلاتينيته السـليمة: «إن فقدان البلدان قدرٌ مكتوبٌ من نصيب الحكام، فلا تتألموا فقد أدّيتم واجبكم».

قدّم له الفرسـان باحترامٍ أربع زهريّاتٍ ذهبيةٍ عتيقةٍ مزدانةٍ باللؤلؤ من صنع الإغريق كانوا قد أحضروها معهم، وأعطوه موجزاً عن تاريخها.

فرح السـلطان سـليمان خان كثيراً بهديتهم. وفي المقابـل، قدّم لهم مجوهرات صاغها بيديه في ورشته، فكانت عبارةً عن قلاداتٍ رقيقةٍ مزدانةٍ

بالياقـوت والذهب والألماس والأوبـال، وخواتم رائعةٍ مرصعـةٍ بالياقوت تحمل الختم السلطاني، وليس لها مثيل.

أبدى ليسل آدم فرحاً شديداً بهدايا السلطان، وظهرت ابتسامة عريضة على وجهه الحزين وهو يقول: «لن أجرؤ أبداً على الخروج في مواجهتك، حتـى وإن كانت كل جيـوش النصارى تحت إمرتي. فالـدول النصرانية لم تسـاعدنا، لكنني أخاف أن يتجوّل سـيفك الظافر على رؤوسهم في يومٍ من الأيام. فإن أذنت لنا، فإننا نريد أن نغادر الجزيرة هذا المساء».

فأجابه السـلطان سـليمان خـان: «لكـم الإذن بذلك أيها فرسـان. يجب على المـرء ألاّ يتألم حين يخسـر، أو يتفاخر حيـن ينتصر. فالأيام دولٌ، وسـيأتي سـريعاً ذلك اليوم الـذي يجد المـرء فيه نفسـه في باطن الأرض تحت الأقدام. فالغالـب المنتصر منذ الأزل وإلـى الأبد هو الله وحده. ادخل الإسـلام، وسـأعيّنك والياً على هذا المـكان، وأصرّح لك بالبقاء فيه».

رفـض ليسـل العـرض بـأدب وقـال: «أنـت مشـهورٌ بشـهامتك أيها السـلطان، لكننـي أصبحـت الآن عجـوزاً، وأرجـو ألاّ يـذكـر اسـمي فـي سنواتي الأخيرة بين إخوتي على أنني جبانٌ ومرتدٌّ».

فقال السـلطان سـليمان خان بابتسـامةٍ متفهمّةٍ: «أنـت أدرى بأمرك، يمكنك الرحيل».

وما إن خرج الفرسـان، حتى وصل خبر استسلام الشاهزادة مراد ابن السـلطان جام وولديه وطلبهم العفو. فتحوّل السـلطان ما إن سـمع الخبر إلى بركانٍ ثائرٍ خـلال لحظةٍ واحدةٍ، وانفجر غضبه المتراكم نتيجة سـقوط ما يزيد على عشـرين ألف شـهيدٍ على مدار أربعة شـهورٍ واثنين وعشـرين يوماً مـن السـلالة العثمانية نفسـها؛ وكأنمـا يقـول: «إن وجـود النصارى، واستمرارهم على حياة الكفر، وتحريكهم سـيوفهم في وجوه أهل الإيمان لم يحدث فـي سـلالتنا نحـن العثمانييـن، ولا يمكـن أن أتحمل تنفسـهم

وبقاءهم على قيد الحياة أبداً».

وهكذا، كان قد تم الاستيلاء على كل الجزر الاثنتي عشرة الموجودة في أكثر الأماكن استراتيجيةً في شرقي البحر المتوسط، والتي تصل مساحتها إلى 2,682 كيلومتراً مربعاً في حملةٍ واحدةٍ، بعد أن استمرت دولة فرسان سانت جين مئتين وثلاثة عشر عاماً، كانت خلالها تتبع كنيسة روما الكاثوليكية. وكانت هذه آخر دولةٍ صليبيةٍ تم القضاء عليها من قبل المسلمين، وتلاشت معها آمال الغرب مرةً أخرى في وقف هذا التقدم العثماني القاسي. انتشرت أخبار الفتح في كل أوروبا تحمل معها موجة هائلة من الرعب. وكان سقوط قلعتي بلغراد ورودوس واحدةً تلو الأخرى بعد أن حاصرهما العثمانيون ثلاث مراتٍ من قبل سيحوّل اسم السلطان سليمان خان إلى كابوس يسيطر على العقول في النهار، ويحتلّ الأحلام في الليل... كلّ هذا وأنا على يقين بأنه لم يكن سعيداً على الإطلاق.

كنّا نجلس في سرادقه ليلاً عندما اقتربت نهاية الحصار، وأمام رقعة الشطرنج التي كنا نتسكع حولها بأعيننا المنهكة وذهننا المتعبين قال لي: «كنت أريد أن أعرف كشاعرٍ كبيرٍ فقط يا إبراهيم. كنت أريد أن أتمكن من البقاء بعيداً عن كلّ هذا الدم والدموع والخراب... لكن، لم يكن ذلك لي أبداً. فهم لم يتركوني كما ترى يا إبراهيم. لم يكن هناك بد من إشهار السيف من أجل سلامة أمتي والمسلمين. ربما نكون قد أخرجنا الخنجر المغروز في صدرنا بسقوط رودوس، لكنْ من يعلم يا إبراهيم أيّ عوائق ستظهر أمامنا مجدداً».

2 كانون الثاني 1523

بعد ارتفاع صوت الأذان من الأبراج، أدّينا صلاة الجمعة في كنيسة سانت جين التي تحولت إلى جامعٍ بعد وقتٍ قصيرٍ بلمسات المعماري

سنان أفندي البارعة. وأثارت الخطبة التي ألقاها شيخ الإسلام الزنبيللي علي أفندي أحزاننا، فاغرورقت عيوننا جميعاً بالدموع. واجتمع الديوان بعد الصلاة في قاعة الاستقبال المدهشة التي تطل على البحر في قصر ليسل آدم. وهناك، أمر السلطان سليمان خان وزراءه بأن يشاركوا في إعمار رودوس وتحصينها تحت إشراف قاسم باشا؛ حاكم الأناضول وولايات كراسي وميديللي وأيدن وساروهان ومنتشة. وسيكون على رأس الأنشطة المعمارية المعماري سنان بن عبد المنّان، واتخذ القرار بأن يبقى في الجزيرة ثلاثة آلاف إنكشاري لحماية المدينة، وأن يُخصص مبلغ مئة ألفِ فينيسية ذهبية للمرحلة الأولى من إعمارها. وقبيل المساء، وفي اليوم الخامس عشر من شهر صفر، تمّ الخروج إلى مرمريس مجدداً على صدى القذائف التي أطلقتها مدفعية الأسطول فرحاً بالانتصار.

10 كانون الثاني 1523

كانت عدم المبالاة التي استقبل بها الشعب السلطان المظفر أمراً لا يصدّق. فقد كان الهدوء يسود الطرقات التي نمرّ فيها. وفي المساء، كانوا يطفئون الأضواء في محيط السرادق الذي أقمناه، ويسحبون الحيوانات من المرعى. ولم يكن هناك صوت يسمع غير صوت الأذان. اجتاز السلطان سليمان خان الأودية الممطرة والسهول التي تحولت إلى أراضٍ موحلةٍ تحت حراسة عشرة آلاف جندي من جنوده. وكان من العجيب حقاً ألا يخرج من القرى أو المدن أو المراكز أيّ شخص ليستقبله. حزنّا جميعاً بسبب هذا الموقف، لكن السلطان سليمان خان قال لي إنه لا يريد أن يشعر بالغضب بعد ذلك الانتصار المبين. ولكنه في النهاية فقد صبره قبل انقضاء الليلة الأولى، وقال لي غاضباً: «أريد منك أن تعرف سبب هذا الأمر يا إبراهيم».

في طريقي إلى مدينة خسرنلر الصغيرة المجاورة مع خمسين فارساً

إنكشـارياً، كنت أشـعر بسـعادةٍ غامضةٍ لم أتبين على وجه التحقيق سببها. كنت أشـعر في ضوء خبرتـي العالية التي لـم تخذلني قطّ أن هذه السـعادة الثائرة في داخلي ليست سـوى نواةٍ لشيءٍ في مصلحتي. اسـتقبلنا أشراف القرية بشـكلٍ حسـنٍ، ورحبوا بنا وكأنّ شـيئاً لم يكن. لكننـي أدركت أنهم يخفون عنّـا حقيقـةً واضحةً تـرى بالعين مثـل ليل الشـتاء الغائـم الماطر المسيطر في الخارج. فالأهالي مسـتاؤون بسبب قتل شخصور أوغلو قبيل الحرب، ولذلك قاطعوا السـلطان صراحةً اعتقاداً منهم ببراءته. وكان ذلك يتيح لـي فرصةً جيدةً لـم يكن لـي أن أنالها ولو سـعيت للحصـول عليها؛ فرصةً أكبح بها قوة فرحات باشـا حليفـي الحالي المؤقـت كما حدث في مسـألة أحمد باشـا، وأحطّ من كرامتـه، بل وربمـا أتمكّن من قطع رأسـه. لا بـد أنها البشـرى التـي كانت أشـعر بها فـي داخلـي. وما إن عـدت إلى المعسـكر حتى سـعيت إلى مقابلة السـلطان، وبدأت بإخبـاره عن الوضع وأنا أضخّـم الأمور كثيراً. فمـا كان منـه إلاّ أن التفت إليّ وقـد ظهر التردّد على محياه وهو يقول: «لا يمكنني يا إبراهيم أن أنكر أنني كنت أشـك من الوهلة الأولى باقترافي خطأً. لكننا كنا سنضيع تماماً إذا تعرضنا لأي خيانةٍ في أثناء حملة رودوس».

تابعت وأنا أتصنّع الحزن: «مع الأسـف يا مولاي، لم يكن شخصور أوغلو من أمـر بقتل الوفـد الذي أرسـلته للتحقيـق، بل كان فرحات باشـا نفسـه. وهذه حقيقةٌ أعرفها منذ زمـنٍ، لكنني كنت أخفيهـا ولم أتمكن من البوح بها أمامكم. أما الذين تآمروا على هذه المذبحة، فهم بعض سـباهيي التيمارات[1] ممن يظلمون الأهالي التركمان والطلاب والزعماء. لم أرغب

(1) هم فرسان يعطيهم السلطان أو من ينوب عنه من الولاة والحكام أرضا بمساحة تقدر بإنتاج سـنوي يبلغ (20,000-30,000) أقجة (نوع من النقـود الذهبية والفضية التي تـم سـكها في ذلك العصر بوزن معيـن)، لقاء خدمات يؤديهـا أولئك في الحروب، والعناية بالمسافرين وخيولهم وغير ذلك في حالة السلم...

في إحزانكم في أثناء الحملة ولذلك لم أخبركم. ليس الشعب وحده هو الذي يتحدث عن ذلك فقط، بل بعض رجال الدولة أيضاً. فمعظم النّاس مقتنعون ببراءة شخصور أوغلو. ولم يكتف فرحات باشا بذلك، بل تعاون مع أولئك الخونة، فظلموا أتباعكم التركمان في المنطقة ظلماً كبيراً. والناس يتهامسون بأن العثمانيين ينتقمون من الأتراك ويستعيضون عن نقصان الضرائب التجارية التي تقل بما يفرضونه عليهم. فرجال فرحات باشا يقطعون الطريق على قوافل تجارة الأقمشة الحريرية من القمحة والتافتا والأطلس والمخمل القادمة من الهند[1]؛ قبل أن تصل إلى بورصة (وهي مركز التوزيع إلى أوروبا)، ويفرضون عليها الأتاوات. وما يفرضونه على تجارة البهارات القادمة من حلب وقونية وكوتاهية إلى إسطنبول أسوأ».

شعرت بأن شرارات الغضب التي تنطلق من عيني السلطان سليمان خان ستحرقني، فتراجعت خطوة إلى الوراء، واستطردت في حديثي: «وأعتقد أنه فعل ما فعله بسبب عدم ارتياحه من إعلان جوبان مصطفى باشا والياً على مصر، وتعيين أحمد باشا وزيراً ثانياً و«سرعسكر»[2] للجند. لذا، قضى على بطلٍ مثل شخصور أوغلو وأولاده لينال مكانةً عندكم».

سادت فترةٌ طويلةٌ من الصمت، لم يكن يُسمع فيها إلا صوت الحطب البلوطي الذي يحترق في الموقد متناغماً مع صفير الرياح الباردة التي كانت تهب في الخارج. وارتفع صوت السلطان سليمان خان مرتجفاً هذه المرة: «لقد تسرعت في الغضب على شخصور أوغلو يا إبراهيم، وسيحاسبني الله على ذلك. ولم يكن سقوط بيري باشا العظيم مغشياً عليه في مجلسنا يومذاك حين سمع بالخبر من فراغ».

حاولت التخفيف عنه وأنا أقول: «لم يكن لديكم خيار آخر يا

(1) أنواع من الأقمشة الحريرية.
(2) السرعسكر قائد الجيش، وما يقابل وزير الحربية في يومنا هذا.

مولاي، فإما أن يستمر ظلم فرسان رودوس، أو أن تقولوا لهم كفى. ولم يكن في إمكانكم أن تظلوا مترددين بين الأمرين».

وضع السلطان رأسه بين كفيه قائلاً: «ما الذي فعلته يا إبراهيم؟! لقد كنت أشعر منذ فترةٍ أن فرحات باشا منهمك في السعي وراء السلطة، وكان يجب أن أتصرف بفراسةٍ أكبر».

تابعت متظاهراً بأنني لم أكن على علم بما جرى: «يجب أن تكون عاقبة من يستخدم قربه منكم وسيلةً للخيانة - أياً كان قربه منكم - الهلاك يا مولاي».

«لكنه أمر قد انقضى يا إبراهيم، وأخاف أن أرتكب مصيبة أخرى لا قدر الله. وإذا كان فرحات باشا قد ارتكب خطأً ما، فإنه سينال ما يستحقه بالتأكيد. لكنني أعلم أيضاً أنه استطاع أن يخفي خطيئته إن وجدت؛ حتى الآن. ومهما فعلنا فلن نستطيع أن نثبت عليه التهمة بعد مرور كل هذه المدة. كما أنني لا أريد أن أرتكب شيئاً سيبعد بيني وبين أمي وأختي. إنه فرماني السلطاني، أبعدوا فرحات باشا الإبليس إلى الحدود، كي لا ترى عيناي هذا الكلب مجدداً. فأنا أرجو أن يتوقف ظلمه إن تغير مكانه... سأكلف رجلاً ليحصي عليه خطواته، فأعلم ما يفعله خطوة خطوة».

سألته محاولاً أن أخفي نشوة السعادة العارمة التي كانت تجتاحني: «من الشخص الذي تفكرون في وضعه مكانه يا مولاي؟». ظهر الغضب والدهشة في عينيه وقال: «كيف لي أن أفكر بكل شيء بمفردي يا إبراهيم؟! أنت كبير مربي صقور السلطان[1]، ومن يقم بهذه الوظيفة فعليه أن يجد الحلول، فاقترح أنت».

«أعرف رجلاً ذا عقل راجح، ويتفانى في عمل الدولة يا مولاي، وينفذ الأوامر من دون أن يسأل أسئلةً كثيرة تضجركم؛ إذ ليس لأحد أن يرهق حاكم الدنيا بأسئلته». كنت أعني بذلك بيري باشا. فلوّح السلطان

(1) ربما كان المقصود جهاز الاستخبارات الخاص بالقصر.

سليمان خان بيده في ضيق وهو يقول: «قل من هو يا إبراهيم».

«أقترح إياس باشا أمير أمراء سوريا الذي عينتموه مكان جان بردي. فهو في منتهى الإخلاص والعدل والطاعة يا مولاي».

فقال السلطان بحدة: «أنا لا أحب زير النساء ولا أثق به. وها أنت تشير علي الآن أن أوليه منصباً رفيعاً داخل دولتنا».

«أن نعلم نقاط ضعف أحدهم خيرٌ من ألاّ نعلم يا مولاي. فأهم ما يميّز إياس باشا هو إخلاصه وقوته في أداء عمله. فهناك الكثير من الرجال الذين يتصفون بالمهارة، ولكنهم مترددون. وبعضهم يأخذون الأوامر وينفذونها بلا تردد، ولا تكون لديهم مشكلةٌ إلا في كيفية تنفيذها بأفضل وسيلة. وإياس باشا من هذا النوع».

أشاح السلطان بيده، وتحدث بصوت من لم يعد يطيق سماع المزيد حول هذا الأمر: «افعل ما تريده يا إبراهيم ما دمت ترى أنه الأفضل. أرسل علم الوزارة ذا الريشات الثلاث مع فرقة المراسم بمجرد وصوله إلى إسطنبول».

غادرت سرادق السلطان وأنا أشعر بنشوة ظفرٍ عظيمٍ؛ فكل شيءٍ يمضي كما أريد.

31 كانون الثاني 1523

انتهت أخيراً حملة رودوس التي استمرت سبعة شهورٍ واثني عشر يوماً، ووصلنا إلى إزميت؛ قلعة ديليس. وكنا نبحر على متن سفينة حربية متواضعة تعمل بالمجاذيف والأشرعة، متقدّمين بسرعةٍ بفضل الرياح الشمالية وجهود المجذّفين. أراد السلطان أن يدخل إسطنبول هذه المرة بهدوءٍ؛ تماماً مثل أبيه، وقد أقيمت الاحتفالات في المدينة لمدة عشرة أيام. لكنني كنت أعلم جيداً أنه لم يكن هناك شيءٌ يشغل باله أكثر من شوقه للقاء حرّم. إذ كانت حالة الشوق المسيطرة عليه واضحة للغاية. فلم

يكن يسمع الأسئلة أحياناً، وإذا سمعها لم يكن يستطيع أن يجيب عنها كما ينبغي. جربت حظّي مرّةً أخرى:

– آن الأوان لانتقالي إلى المنزل الذي أمرت ببنائه من أجلي يا مولاي.

كان لا بد من أن أنتبه لكلامي، فقد أشاح بنظره عن ليل البحر الذي كان يراقبه من زجاج قمرته في السفينة والذي ينفتح على الأحلام، وقال في أناةٍ: «أنت تعرف النساء يا إبراهيم!».

فهمت من النظر إلى محياه ما كان يفكر فيه، فقلت من دون انتظار: «هذا ما يجب أن يحدث يا مولاي. لا نستطيع أن نعيش طيلة العمر تحت السقف نفسه». ابتسم ابتسامة من يشعر بالذنب وقال: «صدقني، لا يوجد فرقٌ بين المنزل الذي ستنتقل إليه والقصر. فلا يوجد منزل أشد روعةً من هذا المنزل في إسطنبول».

– المهم بالنسبة إليّ هو منزلي الداخلي في قلبكم يا مولاي. فملك الدنيا يأتي ويزول، أما بركة رضاكم فباقية. سأفتقد إلى تلك الليالي التي كنا نمضيها في غرفتين متجاورتين ونحن نتسامر حتى الصباح.

ظهر في عينيه بريق وهو يقول: «نحن صديقان إلى الأبد يا إبراهيم، إلى الأبد. لن تدخل بيننا حرّم ولا غيرها».

إلا أن الشك وقع في قلبي. هل يثق بما يقوله، أم إنه يريد أن يتأكد من ذلك؟ وأردت أن أستوثق منه فقلت له: «هل تقسم يا مولاي أن تظل مخلصاً لما تقوله إلى الأبد؟». عانقني بمحبة وقال: «أقسم على ذلك. وقسمي صحيح يا إبراهيم إن كنت ابن ياووز. أنت أخي، ولتزِل هذه النظرات عن وجهك، ولا تدخل في عقلك أيّ أفكار سلبية». فتبسمت بحب وتمتمت: «أنا أصدقك يا سليمان».

III

رست السـفينة في الخليج، وكان جنود الحماية الخاصون مصطفين بشـكلٍ مخيفٍ في تلـك الليلة من ليالي الشـتاء دامسـة الظلمـة رغم بريق المشـاعل. ترجّلنا من السـفينة، وتحركنـا فوراً إلـى القصر بصحبة سـعيد جلبي وكيل قاضي إسـطنبول، ومحافظ إسـطنبول عزت باشـا وكيل بيري باشـا مسـتقلّين عربة السـلطان. كانت حـرّم علـى رأس فريق التشـريفات خارج القصر. ومـا إن رأتني حتى قطبـت حاجبيها بعداءٍ. منـذ متى تحطّم ذلك التعاون الصامت بيننا؟! لم أعد أذكر، فبعد أن كنا نسـعى معاً لكشف مكائد القصر المحاكة ضدنا، أصبحنـا معاً في ظلامٍ، ونحن نجهل ما يدور حولنا... لم يكن أحدٌ يسـتطيع التدخل في سيطرة حرّم الخفية على القصر بعد الآن. من المؤكد أن ثقتها في وجود الشاهزادة محمد الذي يزيد عمره عن ضعـف عمرهـا ذات تأثير. وأنـا على يقين بأنها تسـتخدم هـذا الرجل الغامض ضـدّي كمـا تسـتخدم أورخون جلبـي، لكننـي أعلم أيضـاً أن ما يتحدث في ظل ألعاب السلطة هذه ليس الأدلة بل الحدس والفراسة. وأنا أعلم كيف أثق في حدسي جيداً.

15 آذار 1523

لم يكن أحمد باشـا شـديد الـذكاء، لكنه كان علـى درجـةٍ عاليةٍ من المكر والعنـاد. وكان يعيش سـحر الكلمـات القليلة التي همسـت بها في أذنيـه عن عـزم السـلطان علـى إحالة بيـري باشـا إلـى التقاعد بعـد حملة رودوس. وبعد أن خلا الجو من فرحات باشـا، بدأت أمنياته الخبيثة تنمو، وبدأت خططه الخبيثة المظلمة التي تدور في عقله الذي يعيش فيه أربعون ثعلباً تبدو على خطوط جبهته الضيقة؛ وكأنها دخان ذو روائح كريهة. كنت

سـأكتفي بعد ذلك بالجلوس وباحتسـاء الشـراب مشاهداً المسـرحية التي حبكتها. كان هناك ما يشبه معاهدةً جديدةً صامتةً بينـي وبين حرّم. وكنت أكتفي بتدعيـم التحالـف الذي كوّنتـه زوجات السـلطان الأخريـات فلانة وماهي دوران وغولفم من الخارج. ولـم تكن حرّم تسـتطيع أن تثبت شـيئاً حتى لو ارتابت في الأمر. وكنت أعلم أنها لا تذكرني كثيراً أمام السـلطان، طالمـا أنها لـم ترني أو تسـمع باسـمي... ومـا يجب علـيّ فعلـه الآن هو الصبر حتى أنهال عليها بضربتي القاضية. لذا، بدأت أهتم بشـؤون الدولة، وتشاغلت بها بعيداً عن نظرات أورخون جلبي الحادة.

كان الوزير الثاني والسرعسـكر أحمد باشـا يرى أنه ما من أحد غيره يطمح فـي منصب الصـدر الأعظـم، ويعيش فـي عالم خيالي بسـبب تلك الكلمات التـي قلتها له. حتى إن المسـكين بـدأ يقول أشـياء تكاد تضحك الغربان الموجودة في حديقة القصر. قلت له بعد إحدى جلسات الديوان: «يا سـيدي، لـم نعد بحاجة إلى تلـك العقـول البالية. لذا، يجـب أن يكون هناك فريق عمل في السـلطة تحت قيادتـك». فحكّ لحيته وهـو يفكر، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ: «إنك محقٌّ يا إبراهيم آغا. وسيكون لذكاءٍ لامعٍ مثل ذكائك مكانٌ في هـذا الفريق حتماً. فلا تبخل علينـا بدعمك». وذات مرةٍ، ولأنني لم أجد الجسارة لزيارته في منزله شخصياً، سعيت إلى لقائه صدفة فـي بهو القصـر وقلت لـه: «لا يمكـن أن أكـون أنا فقـط من يـرى نظرات إعجاب سـلطاننا بك». فقال بطريقـة تنم عن خبايـاه: «أنا أيضـاً على علم بذلك يا إبراهيم آغـا». واسـتطرد بنظرة مفعمـة بالرغبة والتفـاؤل: «طالما أنك تدعمني؛ فالسلطة ستكون لنا».

حـرص هذا المسـكين وغضبـه المتبقـي ضد بيري باشـا منـذ حملة بلغراد قد أفقداه عقله، حتى إنني سـمعته بأذني مرةً يقول في الديوان: «لن يتحمل بيري باشا العظيم هذا الأمر». وأشـاع أن بيري باشا يعمل لحساب الشاه إسـماعيل بدعم الباشـاوات من الأصل التركي. وعندما لم يفلح في

مسعاه، أذاع أن بيري باشا ومن حوله يتصرّفون في الدولة كما لو أنهم في مزرعة، وينشرون الرشى على طول حدود الإمبراطورية.

24 تموز 1523

لم يستطع أحدٌ حتى السلطان سليمان خان أن يعرف مصدر تلك الشائعات الغامضة التي تتحدث عن بيري باشا، ولم يتمكن أورخون جلبي من اكتشاف مصدرها أيضاً. لم يكن السلطان يصدّق ما يسمعه، لكن المشكلة تكمن في ما تتعرّض له هيبة رجال الدولة الذين يخدمون طويلاً في مناصب هامةٍ في أواخر أيامهم. وكان يمكن لهذا الموقف أن يتصاعد ويفتح الطريق أمام الشغب والاضطرابات. وكان السلطان في الآونة الأخيرة قد سئم من النزاعات بين زوجاته، فارتفعت عيناه وتركزتا على طول الحدود مجدداً. ولا يمكنني أن أغفل هنا عن شعوره بالضيق بسبب قلة الأموال التي بقيت في الخزائن التي ورثها عن أبيه، والتي شارفت بسرعة على النفاد.

بدا شارلكان كما لو أنه يريد أن ينفث غيظه من توسّع نفوذ الدولة العثمانية العلية من دون أن يتمكن أحد من الوقوف في وجهها بالانتقام من الفرنسيين. فالمساعدات التي قدمناها لفرانسوا الأول في سبيل الحفاظ على أراضيه موحدةً، والنجاة من الاحتلال الألماني لم تعد تخفى على أحدٍ. وقد لفت المبعوث الألماني نظرنا إلى ذلك عدة مراتٍ، لكننا لم نوله أي اهتمام. ولم يتردّد الألمان في تعذيب جنودنا الذين وقعوا أسرى لديهم حتى الموت. ومن المؤكد أننا سنقف وجها لوجه مع الألمان بسبب الفرنسيين.

وكان ملك المجر لاجوس الثاني وهو في قمة الخطر، قد أقدم على الزواج من ماريا فون هاسبورغ شقيقة شارلكان في العام الماضي، وخطب أخته آنّا لأخيه غير الشقيق فيردناند، لكي يشعر بالأمان. ومنذ ذلك الحين،

إن أي عمليـة تحصل ضـد المجر تعتبـر ضد شـارلكان. وبهـذه الثقة التي أولاه شـارلكان إيّاها، كان لاجوس يتدخل في مسألة الأفلاق بشكلٍ دائمٍ، ويتحالف مـع البوغضان ضـد المصالـح العثمانية؛ في إشـارات تدل على المدى الذي يمكن أن يبلغه.

أما اللوثريـون فكانوا تحـت الضغط؛ بالرغـم من كل الدّعـم الهائل الـذي قدّمناه لهم. وكلمـا ازداد تقديـر السـلطان للبروتسـتانت، ازداد معه ضغط شـارلكان عليهـم. ومـن المؤلـم أن الضغط الـذي تمت ممارسـته على بروتسـتانت المجر كان أشـد بكثير من ذاك الذي تمت ممارسته على البروتسـتانت في أي دولـة أخـرى؛ اسـتفزازاً للعثمانيين. وكانـت محاكم التفتيش تحاكم كل من يظهر فـي المجتمع كزعيم للبروتسـتانت، ويحكم عليه بالحـرق حتى الموت. لـم يكن باسـتطاعتهم انتقـاد لوثر علنـاً، لكنه تعرض لثلاث محاولات اغتيال في السنة الأخيرة. ولأنهم لم يكونوا ممّن يضعون صـوراً في كنائسـهم، ولا ممّـن يسـجدون للتماثيل، وكانـوا ممّن يعتبرون سيدنا عيسى عبد الله ورسوله، ولأن ياووز وسليمان يظهران نوعاً من الاهتمام بهـم؛ كانت ترتكب بحقّهـم كل تلك الجنايـات، وكان قد آن الأوان للوقوف في وجهها، والتصدي لها.

* * *

عندما اسـتدعاني السـلطان فـي سـاعةٍ متأخرةٍ مـن الثاني عشـر من شـعبان صاحت جارياتي فزعاً. لم أفهم سـبب ذلك في البدايـة، حتى بين لي بعض مـن لديهم خبـرة ومن بينهـم الكاخيا أن اسـتدعاء أحد أشـراف القوم إلى القصر في وقـت متأخر من الليل لا يمكن تفسـيره كعلامة خيرٍ. فكان أول ثمنٍ سـأدفعه بعد بقائي منفصلاً عن القصـر تحت الضغط الذي تمارسـه حرّم، هو انعكاس الخوف الرهيب الذي يشعر به من يحيطون بي عليّ أيضاً.

ولم أكد أصل إلى السـلطان حتى بادرني قائـلاً: «إن قراري لا رجعة

عنه. يجب أن أحافظ على سلطة بيري باشا وأحميها يا إبراهيم. فلا يجب أن نسمح لهم بالتمادي ضده أكثر من ذلك». وكانت تلك فرصة سانحة لي لأقول: «إن أحمد باشا يطمع في منصبه يا مولاي». فقال السلطان سليمان خان: «أعلم ذلك». ثم نظر إلى الشمعدانات البلورية وعيناه تلمعان كالكريستال وقال: «يمكن أن يكون أحمد باشا مصدر الشائعات التي انتشرت عنه». فتظاهرت بأنني مندهشٌ وقلت:

– ماذا تقولون يا مولاي؟! هل من الممكن أن يفعل أحمد باشا شيئاً كهذا؟

– هل نسيت تصرفاته السابقة يا إبراهيم؟! إن أحمد باشا رجلٌ جشعٌ، ولا يروق لي.

– يا الله! أنا من اقترحت اسمه لتولي هذا المنصب يا مولاي. أستميحكم عذراً يا مولاي.

– لست مذنباً في ذلك يا إبراهيم. فالرجل أفصح عن حقيقته مع مرور الوقت، وذهبت ثقتنا به أدراج الرياح. سأجمع الديوان غداً صباحاً، وأشكر بيري باشا على ما بذله من جهود، ثم أعلن إحالته إلى التقاعد.

التقط السلطان نفساً عميقاً، ثم مسح جبينه الذي يتلألأ بلون العقيق والياقوت وقال: «هل كانت مكائد كهذه تحدث في عهد أبي يا إبراهيم؟ هل ترى ما هي نتيجة الرحمة؟ يجب أن يكون السلطان ذا قبضةٍ حديديةٍ في إدارة الدولة».

– لم يقولوا عبثاً: إن المرض ينتج عن الرحمة يا مولاي.

أنزل السلطان يده بخفة ووضعها على ركبته، وقال: «لا، يعلم الله حالي ونيتي».

فسعلت سعالاً خفيفاً، ثم طرحت السؤال الذي طالما جال بخاطري: «بمن تفكرون يا مولاي؟». فالتفت نحوي، ونظر إليّ نظرات مليئة بالحب والبشارة – لكنها لم تكن كافيةً للقضاء على شكّي وارتيابي

– وربّت على ظهري، وضحك: «ستعرف ذلك قريباً يا إبراهيم».

اجتمع الديوان قبيل ظهيرة يوم 26 حزيران. وفي ذلك الاجتماع، أحال السلطان سليمان خان بيري باشا إلى التقاعد بحنكته، فيما كان أحمد باشا يحاول إخفاء ابتسامته تحت شاربيه العريضين؛ فقد كان واثقاً من أنه سيكون الخلف المختار. لكن السلطان فاجأ الجميع، وتغير كل ما كان متوقعاً. إذ أعلن السلطان بشكل مفاجئ أنه سيرفعني من منصب كبير مربي صقور القصر، لأصبح والياً على ولاية روم التي ارتفع شأنها في الآونة الأخيرة. وتملكت حالة من الغضب والدهشة أحمد باشا، حتى إنه تجرأ على رفع صوته في مجلس السلطان قائلاً إنه لا ينبغي أن يكون جزاء السنوات الطويلة التي خدم الدولة بها هكذا. ولأنه لم يكن بإمكانه أن يتحمل هذا الخزي، فقد طالب بإبعاده وإرساله إلى مصر. وبتلك الكلمات الحمقاء التي تفوه بها، كان أحمد باشا يزف إليّ بشارةً أخرى تزيح هما آخر من طريق مستقبلي، فبادرت إلى القول والدهشة ما زالت تتملكه: «أعتقد أن ذلك مناسب يا مولاي. فمصطفى باشا هناك منذ فترة كافية، وأعلم أنه لا يحب الأماكن الحارة، فلنحضره إلى المركز، ولنرسل أحمد باشا وفقاً لرغبته إلى مصر ليكون والياً عليها».

أدرك أحمد باشا أنني كنت أستغله طوال ذلك الوقت، ونظر إلي بعينين يملأهما الحقد والضغينة، وأصبحت بشرته شديدة البياض حمراء أولاً، ثم ذات لون بنفسجي عجيب؛ وذلك بعد أن أدرك الخيانة التي تعرض لها. وكانت نظراته نظرات رجلٍ يقسم على الانتقام في يوم من الأيام. شعرت برعشة الخوف تسري في أعماقي رغم مركز القوة الكبير الذي بلغته. ما الذي يمكن لهذا الرجل أن يفعله بي؟ يمكنه أن يوقعني في مخاطر كثيرة في المستقبل، لكنني سآخذ حذري منه. قدّم السلطان الشكر إلى الباشا على خدمته المستمرة للدولة منذ أيام والده، في مدةٍ بلغت خمس سنوات وتسعة شهور وأربعة عشر يوماً، وودعه قائلاً إن راتبه

السنوي سيصبح مئتي ألف أقجة. وبذلك كان أحد عهود الدولة العثمانية يطوى، ويبدأ عهدٌ آخر جديد؛ عهد ترقّيت فيه من كوني إبراهيم آغا إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وأنا لا أزال في الثامنة والعشرين من عمري.

30 تشرين الثاني 1523

بعد استلامي الفرمان المختوم في احتفالٍ رائعٍ، أمضيت أسابيعي وشهوري في توصية الوفود القادمة من الأناضول بالصبر والحلم، وفي محاولة إقناع البرتغاليين بتوقيع معاهدات تجارية، وفي البحث عن نقاط مشتركة بين البرتغاليين وأهالي البندقية. كانت رقعة الدولة تتسع، وأصبح السلطان يعرف بين الغربيين بعد فتوحاته الأخيرة باسم «المعظّم». كانت تلك الفتوحات عظيمةً، لكننا لم نستطع التكيف مع الخسارة الرهيبة التي منينا بها بسبب تراجع قيمة البهارات والحرير. كان كل شيء يُرى من الخارج على أنه مثالي، إلا أنه توجب علينا أن نفعل شيئاً حيال ذلك بسرعةٍ. وتوجّب عليّ أن أكون أكثر قسوة حيال الولاة الذين يغضّون الطرف عن قطاع الطرق واللصوص الذين ينهبون مزارع التركمان، ويستولون على بضائعهم ومنتجاتهم. من المؤسف حقًّا أن أعظم مصادر الدخل والتمويل بالنسبة إلى دولة كبيرة تحكم أراضي شاسعة هي الحرب. لكنني لم أكن أتجرأ قطّ على قول شيء كهذا للسلطان سليمان. فعندما تنحسر الفتوحات، ينخفض الدخل، ويخرج الإداريون المحليون عن السيطرة، ويكون المظلوم هو الشعب. وكانت النقطة الأخرى المهمة هنا هي إهمال رعاية الجياد مع مرور الأيام. فقد كنا نتوجه في استثماراتنا العسكرية نحو الأسلحة الناريّة الثقيلة، والمشاة المزودين بالأسلحة النارية لمواجهة جيوش أوروبا. وكان ذلك يفتح مجالاً لنفقاتٍ غير عادية، ويسبب الغضب المبرر لأصحاب التيمارات[1]. إذ كانت نفقات

(1) حيث تربى الخيول ويتم تجهيز الفرسان وتدريبهم.

تزويد الأسطول بأسلحةٍ ناريةٍ جديدةٍ تزداد يوماً بعد يومٍ، وكان ازدياد نفوذ شارلكان وقوته يوماً بعد يومٍ يعصفان بصادراتنا القطنية والحريرية التي كان مركزها بورصة التي كانت أيضاً المركز الرئيس لتوزيع واردات الصوف. حتى إن أهالي البندقية الذين يعملون بالتجارة منذ فجر التاريخ لم يكن يسعدهم ازدياد نفوذ شارلكان، ولم يكن لنا بد من الدخول في صراع معه، ومن الانتصار على هابسبيرغ عاجلاً أم آجلاً.

أما المحاصيل الزراعية التي كانت تمثل أهم مصادر دخلنا، فقد كانت في حالة ركود منذ تولي الشاه إسماعيل السلطة؛ وذلك بسبب سخط التركمان الذي لا ينتهي. ونحن مجتمعٌ زراعيٌّ، وهذا واقع لن يغيّره اتساع رقعة الدولة وضمّها أراضي شاسعة فقيرة. وقبائل التركمان التي كنا نحملها على الهجرة مع اتساع أراضينا، كانت تواصل تمرّدها واحتجاجها بسبب انتقالها إلى حياةٍ غير ملائمةٍ لطبيعتها. ولم يجد نفعاً دعمها بالبذور، وتخفيض الضرائب المفروضة عليها. لذا، كان على الدولة أن تجد وسيلةً للصلح مع أتباعها التركمان، والبحث في مطالبهم بشكل جدي؛ وإلاّ فسيتفاقم الوضع، وسيدخلنا في ما لا تحمد عقباه.

أرسل الشاه إسماعيل وفداً من خمسمئة شخص يرأسهم تاج الدين حسن خليفة أحد علماء الشيعة، فوصلوا إلى أسكودار في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر. اكتفى السلطان سليمان خان بعد أن سئم من سوء العلاقات مع التركمان باستقبال عشرين شخصاً من الوفد الذي تم إرساله إلى القصر. قرأت في حضوره الرسالة التي قدّم فيها الشاه إسماعيل العزاء له بوفاة أبيه السلطان سليم خان، وبارك له بفتح قلعتين مهمتين مثل بلغراد ورودوس. فشكر السلطان الوفد، وطلب منه الإقامة في ضيافته لفترة، وأمر بكتابة ردٍّ لطيفٍ، وودّعه به بعد عدة أيام.

ذات يوم، زارني بيري محمد باشا كما كان يفعل دائماً، فأخبرته عن بعض همومي باقتضاب، فأسهب لي في الحديث عن صعوبة الوجود في

السلطة، وأورد بعض الأمثلة التي تبيّن أن الكثير من الأمور الخداعة في مظهرها تخفي غير ما تبدي. كان محقاً في ما يقوله، لكنني كرهت أسلوبه التهكمي الذي بدا فيه وكأنه يقول لي: «هذه ليست مشكلتي الآن، بل إنها مشكلتك».

* * *

كنت أعد خطّة صغيرةً لمحاسبة حرّم على مواقفها ضدي، ولقلب مسار الأمور. بل كنت أريد ضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ؛ إذ كنت أسعى للتخلص من حرّم وحليفها وهيمي جلبي معاً. ولذلك كان يجب عليّ الحذر والصبر. كنت أخطط لحل الموضوع باستعمال نوعٍ من السّمّ الذي استولى عليه الغزاة التتار منذ سنواتٍ من تاجرٍ صينيٍّ، وباعوني جزءاً منه بثمنٍ فاحش الغلاء. كان في خزانة الأدوية السرية العديد من السموم. وكانت الخزانة مصنوعة من خشب الصندل، وموصدةً بسلسلتين حديديتين. وكان المسؤول عنها كبير الأطباء صنع الله أفندي. لكنني كنت الوحيد الذي يعلم خصائص هذا النوع من السموم وتأثيره. فذات ليلة، كنت في منزلي في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل مع أحد الغزاة التتار، وكانت رائحةٌ كريهةٌ كرائحة الجيفة تفوح منه. أخرج التتري من جيبه علبةً مخمليةً صغيرةً ملفوفةً بقماشٍ، ولوّح بها أمام عينيّ، وابتسم بفمه المعوجّ قائلاً: «هذه العلبة مسحورةٌ يا باشا». واستطرد في غموضٍ: «ولولا ذلك، لكانت بودرة الغوبي الموجودة داخلها قد اخترقتها». كانت عيناه تلمعان كاللهب وسط وجهه الذي تملأه خطوط عميقة. وكنت أستطيع أن أشم رائحة الشراب المنبعثة من فمه.

«لا تدع أي ذرة منه تلمس جلدك». ثم مد يده إلى خنجري، واستله بلا أدبٍ، لكنني لم أقل شيئاً لأنني كنت معتاداً على فظاظة هؤلاء القوم. ثم أمسك بذراعي، وسحبني إلى الشرفة قائلاً: «ما ستراه الآن يجب أن يكون في الخارج أيها الباشا». وفي تلك الليلة الباردة الخالية من النجوم،

أخذ التتري بضع حبات من العلبة تشبه حبات الياقوت، ووضعها على نصل خنجري الصلب الذي كان يلمع. في البداية لم يحدث شيء، ثم ما لبث ضوءٌ أحمر أن ظهر، وبدأ طرف النصل بالذوبان. وقال التتري: «لا أنصحك بتنشق الدخان الناتج. وما خرجنا إلى الشرفة إلا لأريك ما يجعلك ترى الكوابيس لشهورٍ». وبالفعل، بدأ الدخان يتصاعد من الثقوب التي أُحدثت في النصل فكتمنا أنفاسنا، وأدرنا رأسينا باتجاه السماء الحالكة والمطر. كانت تلك إحدى المرات القليلة التي خفت فيها كثيراً. حتى إنني لم أوبّخ الرجل على ما فعله بخنجري القيّم.

استطرد التتري قائلاً: «أعطه لمن تريد. لكن، حذار من خلطه بالماء لأن تأثيره سيتضاعف إلى الحد الذي تنهار فيه الضحية والكوب لا يزال في يدها؛ فيحدث عكس ما تريده وترمي إليه. اخلطه مع المشروبات، وحركه سريعاً وجيداً، وعندها لن يذيب الكأس. وبعد تحريك الشراب في الكأس عليك أن تضع الملعقة تحت مياهٍ جاريةٍ، ولا تضعها في منزلك أو محيطك. كما ينبغي أن تبذل كل ما في وسعك كي لا ينسكب، لأنه سيذيب كل ما يلمسه، وستنكشف حيلتك. هذه نصيحتي لك أيها الباشا».

قلت له: «لقد فهمت. إذا أعطيت بودرة الغوبي هذه بتلك الطريقة، فمتى سيظهر تأثيرها؟!». ابتسم مجدداً، وأظهر أسنانه السوداء وقال: «إذا نجحت في استعمالها وفق المقادير التي سأخبرك إيّاها، فسيظهر تأثيرها في مدةٍ تتراوح بين الأسبوع والعام، وستموت الضحية فجأةً بالسكتة القلبية».

«حسناً. هل يمكنني أن أحدّد بشكل أكثر دقة متى ستموت الضحية؟».

فغمز بعينه واقترب مني هامساً: «ستزداد قوة الضحية لتصبح كالثور قبل وفاتها بثلاثة أيام، وستشعر أنها بصحةٍ جيدةٍ لم تحظ بمثلها طيلة حياتها». فتعجبت منه كثيراً، حتى إنني سألته من دون أن أبعد وجهي عن

رائحة أنفاسه الكريهة: «وإذا كنت مخطئاً....».

«وهل تعتقد أنك الوحيد الذي يشتريه مني؟».

لم أرتح لكلامه، لكن عقلي كان لا يزال يفكر في خزانة الطبيب صنع الله أفندي. كان عليّ أن أظهر السم وكأنه قد أُخرج من خزانته. وبترتيباتٍ بسيطةٍ، سينزل الخبر على الناس كالصاعقة، وسيبقى اللص مجهولاً كلغز يبحثون عن حله.

سألني التتري سؤالاً لم أكن أتوقعه: «لـمَ يريد باشا مثلك سمًّا كهذا؟! فأنت تستطيع أن تأمر بدقّ عنق من تريد». عندها، غضبت وقلت له: «يا رجل، هذه دولةٌ لا تدار شؤونها كما تديرون شؤون قبائلكم الوحشية في واحات الاستبس. هنا، لا يمكن لأحدٍ أن يدق عنق من يريد من دون أدلةٍ وبيناتٍ».

«حتى السلطان؟!».

«حتى السلطان. وكلّ رجل نشطٍ مثلي ويعمل في منصب مهمّ، يجب أن يكون حريصاً دائماً. أفهمت؟ هيا خذ هذه العلبة الآن واغرب عن وجهي. وإن أخبرت أحداً عن هذا الأمر فسأجعل وجهك القبيح هذا طعاماً للكلاب».

خرج الرجل من بيتي وهو يبتسم في ظل مراقبة آغا الإنكشارية. وما سيحصل بعد ذلك كان متوقفاً على ذكائي ودهائي. وجاءت التطورات الأخيرة لصالحي، ولتؤكد كل ما كنت قد توقعته في حق أحمد باشا، وتثبت صحة ما كنت أقوم به وأخطط له. وكان ذلك يزيدني ثقة بنفسي.

وكان الليل في أعماقي!
(سليمان خان)

I

«سيصدق الناس أعذاركم، وصدقكم، وثقل الآلام في أعماقكم... ولكن، بعد موتكم».

ألبرت جيمس (السقوط)

لم نستغرب كثيراً أنا وإبراهيم عندما سمعنا خبر تمرد أحمد باشا في مصر في تلك الأيام الثلجية العاصفة الأولى من عام 1524م. ولكن، كان هناك شيء ما يتحطم داخلي. وكنت أشعر بطعنات الآلام في قلبي بسبب الخيانة. وحدّثت نفسي قائلاً: «ليتني كنت مثل أبي رجلاً لا يبالي بما مضى، ويمضي متشبثاً بمنطلقٍ جديدٍ. آه، وكيف أنسى سريعاً رحمته التي تتسرب بصعوبة من درعه الصلبة، وعدم مبالاته التي تسندها قوة جسمه. فعندما كان وجهه الأبيض يتلبد، ويحني رأسه، ويطبق شفتيه المختفيتين تحت شاربيه الغليظين المرتجفين في هدوء، كان يحبس عالماً من الزلازل في أعماقه. إنها أعباء السلطة؛ ذلك الحمل اللعين الذي كان يحمله على عاتقه».

لكن إبراهيم يصرّ على أن قاضي زاده محمد بك الذي اصطحبه ذلك الخائن إلى مصر وعيّنه في منصب الصدر الأعظم له لا يزال على وفائه لي، وهو يتحين الفرصة لمعاقبة أحمد باشا على ذلك الفعل الشائن، وينتظر ظهور كل زعماء التمرد من أتباع المماليك القدامى.

فهل ينبغي لـي أن أسـأل إبراهيم عـن كيفية توقعـه هـذه الخيانة من أحمد باشـا منـذ البدايـة؟ وهل كانـت مهمـة قاضـي زاده محمـد بك في الحقيقـة تعقّب أحمـد باشـا لمواجهة حركتـه تلـك؟ أم إنها كانـت حركة لاسـتدراج أحمد باشا لقطع رأسـه؟ إذا سـألت إبراهيم عن ذلك فأنا أعلم علم اليقيـن أنه سـيقوم بإقناعـي بوسـيلةٍ مـا. وإن بحثت فـي الأمر سـرّاً، فسيظهر غضب مؤيديه وكأن ما أقوم به تدبير مسموم يتم من وراء ظهره.

وأنا لا أسـتطيع أن أكلّـف أورخون جلبـي بالتحقيق فـي الأمر؛ لأنه ليس سوى رجل يحشـد الأدلة ضد إبراهيم. وجميع من حولي أطرافٌ في حربٍ مسـتمرةٍ صامتةٍ وداميةٍ. فيما أبقـى وحيداً، وأنا أمـارس دور الأصمّ وسط الفوضى.

ولكن، لم يكـن هناك بـد من تكليـف أورخـون جلبي ليتحـرك قبل إياس باشا الذي انطلق مع جيشـه المكوّن من ثلاثة آلاف جندي من جنود النخبة. غيـر أن قاضي زاده محمد بـك ألقى القبض علـى الخائن في غارةٍ ليليةٍ مفاجئةٍ، وتـم إعدامه فيما الجيـش لا يزال في الطريـق. لقد بلغني أن أحمد باشا حارب بشجاعةٍ لا تتناسـب وفطرته الضعيفة، ولـم يلتمس أمانا ولا عطفـا ولا رحمة. ولما سـلّط سـيف قاضـي زاده على رقبتـه نظر إلى خصمه بثبـاتٍ، وكانت آخـر كلماتـه: «من عاش بالسـيف فسـوف يموت بالسيف».

وبعد التشـهير برأسـه المعلق علـى باب الزويلـة في القاهـرة؛ حيث علقت جثـة السـلطان طومـان بك فـي زمن والـدي لمـدة ثلاثة أيـام، قام وهيمي أورخون جلبي بوضعه في كيس جلدي مليء بالعسـل أحضره إلى إسطنبول. صمتّ وأنا أرى رأسه، وطال صمتي وأنا أنظر إلى تغضّن جلده الأبيض، وإلى لسـانه المتضخم الـذي خرج من فمه المفتـوح، وإلى عينيه الخاليتين من كل تعبيرٍ، والزائغتين في كلّ اتجـاهٍ، وجميع الحضور حولي يساورهم قلقٌ بالغٌ.

ورغـم كلّ شـيء، اسـتمرت الحيـاة، وحدث فـي تلك الأيـام تطورٌ أسـعدني كثيـراً. فبجـرأة لا تخفـي علامـات الإحـراج والخجـل اسـتأذن إبراهيم باشـا فـي ذلك المسـاء طالبـاً يـد أختي خديجـة سـلطان للزواج؛ معتمداً علـى صداقتنـا القديمـة والقوية. وكانـا قد التقيـا معاً عـدة مراتٍ، وأحبا بعضهما، واتفقا على العيش معاً. وفي الواقع، كان ذلك الأمر يخطر ببالي منذ زمنٍ، ولكنّ الحياء كان يمنعني من الإفصـاح عنه، ولكنني أعلم أيضـاً أن السـعادة كانت شـديدة الوضوح فـي عيني وملامـح وجهي. غير أنني لم أكن لأغفل أيضـاً عن تلك الضربات الخفية والناعمة للفرشـاة في اللوحة الحقيقية؛ والتي تكشـف تحركاتـه الخفية والذكية ضـد حرّم. ولم تغب عن بالي قطّ كلمات مركز أفندي: «من يعش بيـن الكاذبين، لا بد أنه سيجد نفسه كذبةً يصدقها». لسـت أشـك في حب إبراهيم لي، فهو يؤدي دور الصديق الجيد لي منذ فترة طويلة من الزمن. والإنسـان إن لم يسـتطع أن يكـون كما هـو؛ فهو يتلـوّن بلون الشـخص الـذي يتقمـص دوره. وقد أحسسـت منذ زمن بعيدٍ أن إبراهيم يسـتمد قوته من غضبه علـى عبوديته. لكنه الآن وهو في ذروة قوته ليس عبداً، بل إنه سـيدٌ حقيقيٌّ. وهذا الزواج سـيخفف من غضبه من ماضيه، وسيلبسـه شـخصيةً مختلفةً تماماً عما هو عليه.

وفي عشـية ليلة العـرس، وبالتحديد في الثاني والعشـرين من شـهر مايو، وصلنا خبر وفاة الشاه إسـماعيل خصمنا اللدود في الشرق عن عمر يناهز السـابعة والثلاثين. لقد كانـت الصفعة التـي تلقاها من والـدي قويةً إلى الحد الذي لم يتمكن بعده من اسـتعادة بلاده، ولا من التقاط أنفاسـه، فكانت وفاته نتيجة هذا الحزن والكمد. وخلفه ابنه طهماسب ذو السنوات العشـر، وبذلك بلـغ وجهـاء التركمـان السـلطة... كتبت خطـاب التعزية، وأرسلته في مظروفٍ ذهبيٍّ كان قد أرسله لي منذ فترةٍ.

استمر عرس إبراهيم باشا والسلطانة خديجة حتى الخامس من شهر

حزيران، وأسعد المواطنين في الأستانة ومحيطها. كنت أتجول بعربتي في أنحاء السلطنة سعيداً، فيما الأفراح تغمر الميدان نهاراً. وفي الليل، كانت الألعاب الضوئية والنارية تزداد، وتستمر الاحتفالات التي تعبر عن قدرة الدولة وثرائها. وعندما كان إبراهيم باشا يلقي بعض القصائد الجميلة لمن أفضّلهم من الشعراء أمثال خيالي وذاتي وفيغاني، كنت أبلغ قمة نشوتي وسعادتي وكرمي. كما كنت أستمتع بقصائد الشعراء الشعبيين أمثال كبير سلطان أبدال وكيغوسوز أبدال وسيد نسيمي. وفي تلك الأثناء، فيما الاحتفالات بالعرس على قدم وساق، رزقت بأميرٍ جديدٍ في الخامس والعشرين من شهر رجب، لتزداد بذلك فرحتي. لقد نجحت في تلك الأيام بالتخلّص من الهموم، وتمتعت بالطمأنينة وراحة البال وهدوء التفكير؛ ولو إلى حين... نعم نجحت. ومرةً أخرى كان السبب في ذلك إبراهيم، لذا شعرت تجاهه بالامتنان مجدداً. ومهما يكن الأمر، فلا يوجد حولي من يفكر بسعادتي سواه.

سميت ابني سليماً، وأذّن له يحيى أفندي، وطلبت منه أن يدعو له بأن يكون قائداً مهمًّا كأبي، وأن يبلغ بالدولة العلية قمماً جديدة عليا.

بعد العرس، قام إبراهيم الذي لقبته بمقبول داماد باشا بالإبحار بالأسطول إلى مصر لوضع قانون نامة مصر موضع التنفيذ، وليجري فيها بعض الإصلاحات. وكنت قد وضعت في لوائح قانون نامة بعض القوانين الصارمة مثل: «إذا تمرد عرب البدو وظهرت بسببهم العداوة والفتنة في السلطنة، يجب قطع رأس المتسبب بذلك»، والتوفيق من الله.

عند انتهاء فصل الصيف، توجهت نحو أدرنة لقضاء فصل الشتاء فيها. وكنت قد خططت للقاء مارتن لوثر، ومبعوثي شارلكان لتحذيرهم مجدداً ليكفوا عن اضطهاد بروتستانت المجر. من جهة أخرى، كانت أحداث فرنسا توترني، وكنت أريد من شارلكان أن يدرك أن جهود فرانسوا لن تبقى بلا نتيجةٍ. كما كنت أريد أن أقوم برحلة صيدٍ كتلك التي

كان والدي يقوم بها في السهول الخضراء والغابات الموحشة؛ فيما أتلقى في تلك الأثناء أخبار إبراهيم بانتظام.

واجهت الأسطول في أثناء انتقاله إلى مصر عاصفةٌ كبيرةٌ، غير أن السفن وصلت إلى ميناء الإسكندرية من دون أن تمسّ بسوءٍ، ثم دخل إبراهيم القاهرة وكأنه السلطان. وأستطيع أن أجزم بأنه نجح في نقش مجد السلطنة العثمانية في نفوس الشعب على أكمل وجهٍ، وأطمئن إلى ذلك... فقد نشر القطع الذهبية على الناس من الصناديق المزينة بالمجوهرات، وأهدى الشيوخ والأطفال المعاطف المرصّعة بأزرار زمرد لا تقدر بثمنٍ، كما أهدى لجام حصانه المرصع بالألماس إلى أحد سائسي الخيول عند مدخل القصر، فأدهش الجميع. وهكذا، تمكن من تغيير نظرة الناس إلى العثمانيين؛ فهم أغنياء كثيراً، علاوةً على كونهم إخوةً لنا في الدين. انتشر خبر السائس واللجام، حتى إنّ سكان القاهرة احتشدوا في منزل الخادم وكأنه مزارٌ، وتصارعوا لكي يتمكنوا من رؤية تلك الهدية القيمة. استمرت ضيافة إبراهيم باشا أيّاماً؛ كان خلالها يستمع إلى الشكاوى، فتهب أجواء العدالة في الآفاق، وتبث روح التفاؤل في نفوس الناس الذين تعرضوا للظّلم والاضطهاد. ولن يمضي العام إلاّ وسيصبح الشعب المصري الأكثر وفاءً لنا. نعم، لن يكون من الممكن أبداً نسيان خدماته هذه. ربما سيؤذيني جشعه في بعض الأحيان، ولكنْ ليس من السهل على أي حاكم أو رجل دولةٍ وسياسةٍ أن يجد رجلا مثله. وأنا في حاجة إلى شخص مطواعٍ كإبراهيم، يتفانى في تنفيذ أوامري، وليس إلى من يعارضني في كل خطواتي مثل بيري باشا.

وفي رسالة أرسلها إليّ إبراهيم ونقل فيها الحديث الذي دار بينه وبين بحارنا المشهور الرئيس[1] بيري باشا وجدت متعة حقيقية. فأنا أعلم أن ذاك العجوز ذئب البحر قد وضع الخرائط لأبعد المناطق في العالم

(1) الريس في لغة اليوم.

وأكثرها خفاءً. وقد ازدادت سعادتي عندما علمت أن إبراهيم استطاع إقناعه بتأليف كتابه الكبير الذي يحمل اسم كتاب البحرية عام 1521 وتضمينه آخر ما توصل إليه من معلوماتٍ.

كما قام إبراهيم بتعيين المخصيّ سليمان باشا والياً على مصر، وأرى أنه كان موفقاً في ذلك. إذ إنّ عبداً سابقاً مثله يستطيع تمييز العبيد الضعفاء والخاضعين عن أولئك ذوي الشخصيات العظيمة والقوية المتمسكة بالجذور؛ وثقتي بإبراهيم تامة.

وهنا أتوقف عند طهماسب، وعند إهماله خطاب تعزيتي له بوفاة والده، فقررت إرسال خطابٍ آخر:

«لو كان في نفسك المظلمة بسبب الاختلاف المذهبي بعض الاحترام لكنت قد متّ من الخجل كوالدك. ولكنك تعيش لتكون هدفاً لشفقتنا التي تتصاغر أمامها، ولتكون دائماً تحت تهديد سيفنا. لِمَ لم ترسل رسولك إلى قصرنا الذي يمكن اعتباره مركزاً للكون؟ ولِمَ لم تأت إلينا وترتمي عند قدمينا وتعلن ولاءك لنا كبقية الدول؟ اعلم أن سلوكك المغرور هذا سيدفعنا إلى الزحف نحو الشرق بإذن الله. إننا نريد أن نقيم فسطاطنا في بلاد فارس وطوران وسمرقند وخراسان. وقد أخرتنا الحملات التي وجهناها إلى أفخم وأعظم قلعتين في بلغراد ورودوس، والتي توّجت بالنجاح عن السير إلى بلاد فارس. وها قد أصبحت الآن الأماكن التي كانت أصنام الغرب تنتصب فيها جوامع للمؤمنين. راجع نفسك جيداً، فقد حولنا أنظارنا إليك، ونحن نعلن لك هذا التحذير على عادة الأبطال في إعلانهم الحرب على أعدائهم. فالبس ثياب أسلافك الدراويش، واخلع تاجك عن رأسك، وانتظم في صفوف الدراويش، وانسحب إلى عزلتك. وإن أتيت إلى بابنا واستجديت منا لقمة في سبيل الله منحناك إياها. وإلا، فاعلم أنك إن تحولت إلى نملة تغيب في باطن الأرض، أو إلى طير يغيب في السماء فسنبحث عنك في كل مكان،

وسنجدك. أصغِ إلى فرماننا هذا جيداً، واتخذ عبرةً من الماضي»[1].

* * *

وتمكنت خلال هذا العام من لقاء رسل هنري الثامن ملك إنجلترا كل على انفراد، واستطعت إقناعهم بتناسي العداوات التاريخية وحروب الأعوام المئة مع الفرنسيين، وحصلت منهم على وعودٍ أكيدةٍ للعمل معاً ضد شارلكان. وفي المقابل، فرحت كثيراً لتجاوب المبعوث الفرنسي الكونت أموري أفينال، حيث بدا أكثر ليناً من السلوك المتعجرف الذي لقيته من الإنجليز.

دخل الكونت معتمراً قبعة كبيرة مصنوعة من جلد الجمال، ومرتدياً بنطالاً ضيقاً يظهر ساقيه النحيلتين، وانحنى أمامي في مشهد مضحك وهو يقول باللغة التركية: «عاشت دولتكم». إنه سلوك يعجبني، ويعكس الرغبة الفرنسية في الحصول على صداقتنا.

التقيت البابا صاحب العقل المتفتح مارتين لوثر في قريةٍ صغيرةٍ في إقليم أدرنه. وفيما كنا نحتسي شراب الرمان من كأسين كريستاليتين، عرضت عليه القدوم إلى إسطنبول عند الضرورة، وحثثته على المقاومة، وقلت له إنني سأوفر له التسهيلات اللازمة كافة. ولكنني كنت أدرك أيضاً أنه لن يترك أتباعه وحدهم في الميدان. كانت عيناه الخضراوان تمتلئان بالدموع، فيصبح لونهما نفطيًّا بفعل أشعة الشمس التي تميل نحو الغروب. وفيما كان يتململ على أريكته المطلة على الأفق من النافذة البلورية الملونة، شكرني بلطف وخاض في حديثٍ مختلف.

أخبرني لوثر أن معارضة فويفودا أردال[2] (ترانسلفانيا) جانوس

---

(1) لاحظ توجيه الخطاب بصيغة المفرد؛ وفي هذا نوع من الاحتقار. وقد جرت العادة في الخطاب العثماني أن يكون بصيغة المجهول، أو بصيغة المخاطب الجمع.

(2) فويفودا Voyvoda: لقب أطلقه العثمانيون على أمراء مقاطعتي الأفلاق والبوغدان.

زابويـا لنفـوذ هابسـبيرغ والنظـام الملكي فيهـا تزداد حـدة كرد فعـلٍ على مركزيـة حكـم لاجـوس الثانـي ملـك المجـر. كمـا حدثنـي عـن اعتنـاق الفلاحين المجر الذين شـردهم لاجـوس بجوره عليهـم وفرضه الضرائب العالية البروتسـتانتية. وقـال لي إنّ الكثيـر من الجنود المجريين سـيتركون أسـلحتهم عنـد مواجهتهـم العثمانييـن فـي أي صـدام... ولعل مثـل هذه التفاصيل الصغيرة كانت تزيدني شـجاعةً. وإذا اتفقت مع زابوليا، فأنا أرى أنه من المناسب أن أتركه في المناطق التي أستولي عليها كتابع مخلص لي أعتمد عليه كما كان أبي يفعل.

عند الـوداع، شـكرني لوثر على كـرم ضيافتـي مفصحاً عـن مطالبه، فوعدتـه بتلبيتها؛ من دون أن أغفل عـن تذكيره بضرورة تذكـره موقفنا معه عندما يحين وقت الحاجـة إليه، وبألاّ ينسـى تابعيته لنا. وربمـا كان لقاؤنا هذا سـبباً لانتشـار مذهبه في الدول الأوروبية بسـرعة مذهلةٍ، علاوة على وقوف هنري الرابع ملك إنجلترا إلى جانبه. غير أنه لم يكن يسـتطيع حتى الآن الدخول في مواجهةٍ علنيةٍ مع الفاتيكان... وفيمـا كان لوثر يبتعد ماراً بين صفـوف الإنكشـارية، كان يخيّل إليّ بـكل فخرٍ أن الشـخصين اللذين سـيغيران التاريخ كانا مجتمعين قبل قليلٍ. لكن فرائصي كانت ترتعد خوفاً كلما تذكرت حجـم المسـؤولية التي أتحملها بسـبب الأزمـات التي تحلّ بأتباعنا.

وعندمـا كان العـام 1524 الميلادي يوشـك علـى نهايتـه، وبينما كنا على وشـك إنجاز التحالف بين الإنجليز والفرنسـيين، نشـب صدام قصير وشـرس بين الجيشـين الألماني والفرنسـي في سـهول بافيا غرب إيطاليا، انهزم على إثره فرانسـوا، وسـقطت قلعـة ماربيلا في يد شـارلكان؛ بعد أن تمكنت مدافع الهبي مـن صدّ هجماته لمدة أربع سـاعات. حينها، لملمت أوراقي في أدرنه، وعدت إلى إسطنبول، وأنا لم أتعاف بعد من صدمة خبر تمرد الإنكشارية الذين سئموا القعود، وقلّت العطايا التي تمنح لهم.

ففـي الأول من جمـادى الآخرة، قـام المتمـردون بنهـب العديد من أماكن إقامة رجال دولتي، وعلى رأسـهم إبراهيم باشـا وإياس محمد باشا والدفتردار عبد السلام شلبي والخصي سنان باشا، واستولوا على البضائع الموجـودة بالمخازن، وسـكبوا قسـماً منها فـي البحر من دون أي سـبب، وهـدّد اثنان مـن قادتهـم قائلين: إمـا العطايـا أو البضائـع... وهنـا، تلقت التجارة الخارجية مرةً أخرى ضربةً موجعةً على أيدي الإنكشـاريين؛ وهي في الأصل كانت تسوء يوماً بعد يومٍ.

تمـت السـيطرة علـى العصيـان، ولكـن الحادثـة كانـت القشـة التي قصمت ظهـر البعير في ظل الضغـوط الألمانية والإسـبانية علـى التجارة، وفي ظل المضايقات التـي لا تنقطع من طرف الأقليـات الأخرى، فقامت العديد من الشركات الإيطالية المتضررة بإغلاق مكاتبها مغادرةً إسطنبول. وتعرضـت مخـازن الأرمن والـروم واليهـود إلى خسـائر فادحـةٍ، وطالبوا بالتعويض عن خسـائرهم تلك. كانوا محقيـن في مطلبهم من دون شـكٍّ، ولكـن المبلغ المطلـوب كان كبيـراً جـداً لدرجة أننـا تعهدنـا بمنحهم إياه على دفعـاتٍ. ولعل إعـدام زعيمي العصيان الإنكشـاري؛ آغا الإنكشـارية مصطفى آغـا، ورئيـس الكتاب حيـدر أفندي لـم يكـن كافياً لإعـادة مناخ الأمن والاسـتقرار مجـدداً. علاوةً علـى أن الإنكشـارية لم يقبلـوا بالعودة إلى معسـكراتهم من دون تلقـي العطايا الكبيـرة، فضلا عـن البضائع التي سلبوها؛ إذ لم يكن هناك من يجرؤ على رفع صوته لمطالبتهم بها.

ورغم أن هـذه الفئة الفوضويـة التي لا تخجل من إشـهار أسـلحتها على بني جلدتها والمكلفة بحمايـة الدولة لم تعد تمتثـل لأوامري، ورغم إمكانيـة تبنيها موقفـاً تتجاهلنـي فيه إذا لـزم الأمـر، ورغم ارتعـادي خوفاً حينما يخطر على بالي أن هذه الفئة لـن تتوانى عن احتلال دولتنا والتعاون مـع أعدائنـا إذا ضعفـت السـلطة فـي عهـد أبنائـي، إلا أنني كنـت أتنفس الصعداء رويداً رويداً وأنا أستعد لمواجهة شـارلكان. فعما قريبٍ، سيكون

أمامي هدفٌ أستطيع عند تحقيقه توجيه الفئة الضالة.

كما حصل حادث آخر لم يفارق ذاكرتي قطّ. إذ قدمت امرأةٌ عجوزٌ من أحد الأطراف النائية تريد مقابلتي، فردها الحراس. إلا أن العجوز أصرّت على مقابلتي بشكلٍ غريبٍ، وبدأت تصرخ بشدةٍ لتلبية طلبها، فضاق الحراس ذرعاً بطلبها ذاك، وأبلغوا آغا الخاصة (رئيس الحراس) ليبلغ بدوره رئيس الجوخدار، وبلغني الطلب عند أذان الظهيرة فسمحت بدخولها. حضرت السيدة العجوز التي غطت التجاعيد وجهها وكأنّ مآسي السنين قد حفرتها عليه، وادعت سرقة الإنكشارية لمنزلها في أثناء العصيان، وزعمت أنني المسؤول عن ذلك الحدث. فسألتها وأنا أنظر إلى آثار السنين على العباءة المرقعة البالية التي ترتديها، والتي كانت رغم ذلك نظيفة جداً: «أماه، أنت لا تستطيعين أن ترفعي رأسك في عمرك هذا من ثقل النوم، ثم تحاسبيننا على سلب بيتك! لم تنامين بمثل هذا العمق؟».

فأجابتني بلا تردد أو انتظار وقد تغضن وجهها وتغير لونه:

«لا تؤاخذوني يا مولاي، كنت أظنّكم صاحين ولهذا نمت بطمأنينة في بيتي». فنزل الجواب على رأسي كالمطرقة. وبعد فترة قصيرة من الصمت قلت لها: «أنت محقة...». وزاغ بصري وأنا أقول: «أنا مسؤول عن رعيتي... أنت محقة... سأتكفّل بما تعرضت له من خسائر من مالي الخاص يا أمي».

II

لن أتمكن من القضاء على خطر شارلكان قبل تفتيت دولته إلى دويلات صغيرة مجدداً. وكان هذا الموضوع يستولي على تفكيري، فالموارد الطبيعية والأراضي التي اكتسبها شارلكان بفضل مستعمراته في أمريكا كبيرة جداً، علاوة على تحالفاته الواسعة مع أوروبا؛ الأمر الذي أزعجني كثيراً وأقلقني. وكان السبيل الوحيد لمواجهة خطره يتمثل في القيام بحملاتٍ تنهي هذا الانتظار الممل الذي أثار أعصاب الإنكشارية أنفسهم. ومن يستطيع أن يحل هذه المشكلة في غرب البحر الأبيض المتوسط هو خير الدين برباروس، وسأتولى الأمر في البر بنفسي، وسأظهر للعالم من هو الأقوى. والآن يا فرانسوا، أيها القابع أسيراً في زنزانتك الرطبة في مدريد في قصر الجزار، اصبر قليلاً.

في تلك الفترة، كنت أتصارع مع الإحساس بالفراغ والوحدة اللذين شعرت بهما بسبب عدم عودة إبراهيم حتى الآن في خضمّ هذه التطورات. لا أعرف لماذا. ربما لأن إبراهيم هو أكثر من يدرك عدم الارتياح الذي أشعر به دائماً أمام من يختلفون عني في لغتهم وثقافتهم. ولأكن صريحاً أكثر، لقد اشتقت إلى عالمه الكبير المحاط بشيء من المكر. ولا يغير أي شيء هذا الأمر؛ حتى لو كنت أنا من يتعرض لمكره.

عاد إبراهيم أخيراً في العشرين من ذي القعدة من مصر التي قضى فيها فترةً طويلةً من الزمن. وكنت أنتظره بفارغ الصبر، فهناك الكثير مما ينبغي أن نتحدث به، ولكننا قبل أن ننهي حديثنا الطويل الذي كان في معظمه يدور عن مصر، ظهرت مشكلة حرّم مجدداً. فهي لم تكن تضيق صبراً بوجوده فحسب، بل تكيل له الاتهامات الكثيرة التي لو بدأت في

الحديث عنها فلن تنتهي أبداً. وكانت تتهمني إن أعرضت عنها بأنني لا أصغي إليها. نعم، إنها محقةٌ بذلك. فأنا أتفادى الاستماع إليها وإلى شكاويها لأنها ستقول ما لا أريد أن أسمعه.

في أواخر عام 1525، وصل إلى إسطنبول الوفد الذي أرسلته والدة فرانسوا الوصية على عرش فرنسا باسم ابن لويس دو سافوا، برئاسة الكونت جين فرانجيباني. ونقل إليّ الوفد أنّ فرنسوا يطلب مساعدتي بصورةٍ عاجلةٍ، ويعترف بأنه لن يلجأ إلى البابا؛ لأن قوة البابا السياسية والعسكرية لا تكفي لإخضاع شارلكان. ويعترف أنني في نظر الغرب إمبراطور روما الشرقية. ولكنه يخطئ في ذلك؛ فأنا إمبراطور روما كلها، وشارلكان ليس سوى رجلٍ محظوظٍ جداً، فليس هناك من لا يعرف أنه اعتلى عرش البلدان التي يحكمها بالروابط والعلاقات العائلية وليس بقوته. ألم يرث حكم إسبانيا من والده، وإمبراطورية ألمانيا من جده؟ وتحالفه مع الصفويين ألا يزال قائماً رغم كل تحذيراتنا؟ وها هي فرنسا تصبح اليوم حليفة لنا، والعلاقات الدافئة تنمو بيننا.

وفي تلك الفترة، توفي العالم الجليل والشيخ علي أفندي الزنبيللي بعد توليه منصب شيخ الإسلام في عهد ثلاثة سلاطين، وعينت مكانه شيخ الإسلام العالم الجليل كمال باشا زاده أحمد شمس الدين أفندي الملقب بابن كمال أفندي، وهو أيضاً ممن كان والدي يثق بهم ويجلّهم، حتى إنه أمر أن يوضع معه في قبره قفطانه الذي تلطخ بالطين المتطاير من حوافر حصان العالم الجليل.

أرسلت إنذاراً شديد اللهجة إلى شارلكان بوساطة المبعوثين. وربما زادت آلام فراق الشيخ الجليل من حدته. كما أرسلت رسالة إلى فرنسوا:

«من سلطان السلاطين وحاكم الحكام، وظل الله الذي يمنح التاج للحكام على الأرض، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والروميللي والأناضول وآذربيجان، سلطان الشام وحلب ومصر ومكة والمدينة

والقدس وكل الديار العربية واليمن والعديد من الممالك، السلطان سليمان خان بن سليم خان بن بايزيد خان إلى فرنسوا ملك فرنسا، لقد أرسلت إلى بابنا الذي يلجأ إليه الحكام خطاباً مع مبعوثيك، تخبرنا فيه أن بلادك قد استولى عليها الأعداء، وأنك الآن قابع في حبسك، وتطلب منا المساعدة كي ننقذك. وقد تم عرض كل ما قلته على أعتاب عرشنا الذي يدار منه العالم، وعلمنا كل شيء. ليس من العجب التعرض للهزيمة والحبس، فكن منشرح الصدر ولا تحزن. ففي مثل هذه الظروف لم يكن أجدادنا يتوانون عن القيام بالحملات لدحر الأعداء وفتح البلدان. ونحن أيضاً على درب أجدادنا سائرون، وسنفتح البلدان والقلاع العصية على الفاتحين. خيولنا متأهبة ليل نهار، وسيوفنا مسلولةٌ، فليوفقنا الله لما فيه خير، فما أراده الله تعالى فسوف يكون. ولتحصل على الأخبار الأخرى من الرجل الذي أرسلته».

في الرابع والعشرين من أكتوبر 1526م أطلق شارلكان سراح فرانسوا بعد توقيعه اتفاقية مدريد بشروطها المجحفة. ومن الواضح جداً أن شارلكان يشعر بأنه لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك أمام ضغطنا عليه. وإذا كان فرانسوا قد اضطر إلى التوقيع على اتفاقية تلزمه بالانضمام إلى حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ وكبيرةٍ ضدنا حتى يطلق سراحه، فإنه يتصرف تصرفاً يتفق مع نبله، ويخبرنا بذلك.

في تلك الأيام، أقدم لاجوس على عملٍ شنيعٍ، وأعتقد أنه قد آن الأوان لوضع حدٍّ لتصرفاته. كان الأمر يتعلق بالكونت ليندفاي بروس أحد كبار رجال دولة المجر الذي اعتنق المذهب البروتستانتي وعائلته. فقد عرف لاجوس بعد وشايةٍ خبيثةٍ أنه غيّر مذهبه. ولما كانت عائلة الكونت غنيةً وقويةً وأصيلةً ترجع إلى مؤسسي الإمبراطورية، فقد استطاع أن يستمر في وظيفته كجنرال في وحدة فرسان الإمبراطورية لفترة. ولكنْ، تمّ الزج بعائلته في أزمةٍ اقتصاديةٍ لا تستطيع تخطيها بسهولة إثر مؤامرةٍ

نفـذت بإتقـانٍ. فقد تضخمـت الضرائـب المؤجلة علـى أرباد بـروس ابن الكونت البالغ من العمر خمسةً وعشـرين عاماً ويمتلك مناجم لاستخراج المعادن. كما كانت نسـبة فائدة التأخير كبيرةً وخارجةً عـن المألوف، وتم حجز كل ثروته نظراً إلى عدم تمكنه من السـداد. فإما أن يقوم بسداد ديونه في فترةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز الشهر، وإما سيخسر كل ما يملكه.

وحتى يتمكـن الكونت من تخطـي هذه الأزمـة لجأ إلـى تزويج ابنه أرباد من إحدى بنات العائلات الكبرى الغنية ببشـته؛ وبذلك تكون إحدى العائلات الغنيـة التي تملـك المال وتبحث عـن الأصالة والنبـل قد بلغت غايتها، وتكـون إحدى العائـلات النبيلة التي تحتاج إلـى المال قد وجدت المال الذي تريـده. إلا أن الكونت لم يتمكن من إنقاذ كامـل ثروته. ووفقاً للادعاءات، تعـاون الكونت بـروس قبل حوالى شـهرٍ مع الأتـراك، واتهم ببيـع معلوماتٍ مهمـةٍ للجواسـيس الأتـراك مقابل المـال، وقـدّم إثر ذلك للمحاكمـة العسـكرية، وعزل مـن وظيفته. لم يكـن الكونت بـروس يقوم بتسليم المعلومات وبيعها بنفسـه، بل كان يقوم بذلك عن طريق ابنه أرباد، ولـم يكن الشـخص الذي تصل إليه المعلومات سـوى جاسوسـنا الشـهير وهيمي أورخون جلبي؛ إلا أنه هو نفسه لم يكن يعلم شيئاً عن هذا الأمر.

في النهاية، حكم على الكونت وابنه بالإعدام بعد محاكمةٍ من جلسةٍ واحدةٍ وشهادة زورٍ من قبل بعض الشهود. أعرف ما قاله الكونت في أثناء خروجه من قاعة المحكمة وكأنني سمعته بنفسي، حيث توقف لحظةً وهو بين أذرع الحراس، وصاح قائلاً: «يوماً ما سـيظهر أحدهم ويحاسبك على هذا الغدر يا لاجوس». نعم، يوماً ما سيحاسـبك أحدهم بسبب ما تعرض له رسـولي الوفي بهـرام جاويـش، والكونت بـروس وعائلته، والعشـرات ممـن قتلتهـم مـن البروتسـتانت، وقضيتـي بوغـدان وأفـلاق، واحتمائك بشارلكان.

لم يمر وقت طويل حتى اتخذت قراري بشـنّ الحرب. وفي بدايات

شهر جمادى الأولى، استدعيت إبراهيم في وقت السحر وأبلغته قراري: «ابدأ بالاستعدادات يا إبراهيم. سنزحف على أونجروس. لا تنس أبداً أن هذه الحرب لا تشبه الحروب الأخرى، بل إنها حربٌ شاملةٌ، وأنت سرعسكر الجيش».

23 نيسان 1526

تفيض الحماسة في نفوس المحتشدين على طول طريق الديوان، وتنتشي بالموسيقى العسكرية التي تعزفها فرقة المهتران، وتنطلق أصوات فرقعات الألعاب النارية احتفالاً بالأسطول الجديد، يطلقها السلانيكي صاحب الحيل مصطفى أفندي، ناشرةً أضواءها الفوسفورية اللامعة مدةً طويلةً في السماء، فيما كان جيشي يتقدم بتثاقل العظمة وكأنه محيط يتموج بهدوءٍ. كان مؤلفاً من مئة ألف شخصٍ، منتظمين في وحداتهم، وسيوفهم مشحوذة ولامعة. وكان حراسي يسيرون بجواري مختالين بزيهم الأخضر الزمرديّ المطرز بالخيوط الذهبية وبدروعهم الحديدية، فشعرت بأنني محاطٌ بالنسور المخلصة لي، وخلفي ثلاثمئة مدفع من مدافع الحصار الشاهيّة التي يجرّ كلّ عشرين منها ستون ثوراً، والتي جذبت انتباه الشعب بأحجامها الضخمة ولونها الأسود القاتم. واختلطت رائحة البارود مع رائحة اللحم المشوي الذي وزّعه بائعو اللحم المتجوّلون مجاناً مع الخبز وعصير العنب. ميّزت بين الجموع بائعاً مسناً يبيع حلوى المعجون، ويلفّ الحلوى الملونة الموجودة في وعائه الذي يشبه لوحة رسامٍ إفرنجي على العصيّ الرفيعة؛ فتذكرت طفولتي، واستيقظت داخلي بعضُ الأحاسيس عندما رأيت لاعبي الخفة المهرة، وممثلي المسرح الجوالين من الروم الذين أضفوا على الجو المزيد من البهجة والفرح. وفي الزاوية، كان هناك مدّاح شاب يقوم بتسلية مجموعة من الأطفال... تعلق بصري بمجموعةٍ كبيرةٍ من الطائرات الورقية الملونة

التي تطير فوق التلال العالية التي تداعب قممها الرياح... إنها فرحة كبيرة؛ فرحةٌ غامرةٌ تفيض بها نفسي، وكأننا قد استيقظنا فجأةً وتذكرنا أن اليوم عيد. الشعب كله يشترك في مرح طفولي لا ينسى، وأفواه الجميع ممتلئة باللحوم الطازجة التي أمرت بذبحها وشيّها وتوزيعها عليهم. فهل يمكن أن يغيب عنّي الحب الذي يكنونه لي والذي يبدو في نظرات عيونهم؟! أنا أيضاً أحبهم، وأحب كل الناس اليوم، وكثيراً ما أحدث نفسي قائلاً: «يا الله، إنني على رأس هذا الجيش الضخم الذي يسير بعنايتك، أعوذ بك من أن أظلم مثقال ذرةٍ... سيأتي يومٌ لن يصدّق الناس فيه أن سلطان العالم لديه هذه المخاوف الحساسة، فهل يمكنني أن ألومهم على هذا؟! امتلاك العالم لا يعني أبداً امتلاك قلوب الناس، ولكنني مضطر إلى خوض الحرب من أجل سلامة شعبي. فلتعف عني يا الله».

أنا سعيدٌ رغم الدموع التي ذرفتها حرّم خلفي... سعيدٌ على الرغم من أن ماهي دوران، وكول فام، وفلانة بعيدات عني.... وكأن الرغبة والشوق من فرط السعادة قد تحولا إلى مطرٍ خياليٍّ غزير ينهمر من السماء الزرقاء ويبللني تماماً؛ ربما لأنني هذه المرة أسعى خلف نصرٍ قريبٍ، ونصرٍ عظيمٍ سيفوق كل الانتصارات التي حققتها من قبل. ترى، هل يمكن أن تكون لدى الإنسان رغبةٌ في البكاء ورغبةٌ في الضحك معاً؟! نعم، إنني الآن هكذا، فإما أن تحتضنني الشهادة، أو غرور الانتصار... نعم، إنهما على بعد خطوةٍ واحدةٍ، وأنا أشعر بهما معاً.

سروج خيول وزرائي وأحزمتها مطرزة بخيوط الذهب والفضة، ومرصعة بالياقوت والزخارف المخضرة، وجلودها المعطرة بمسك الغزلان تلمع لمعاناً شديداً. فيما أجسام وزرائي المختفية خلف دروعهم البرونزية والفولاذية نموذجٌ للقوة والثبات. وبدت الشمس وكأنها تغيب من شدة لمعان الدروع التي ارتداها الجنود فوق ملابسهم القطنية. لكنّ حصاني الأبيض بياض اللبن، الذي رصّع سرجه بالجواهر والأحجار

الكريمة بدا كالشامة بين الخيول.

أما العمامات المخملية الحمراء على رؤوس السلاحدارات الذين كانوا يسيرون عن شمالي اليوم فبدت وكأنها شعلات حمراء أشعلتها شمس الربيع، فيما تدلت خصلات شعرهم من الجانبين وهي تشتعل وتنطفئ كخيوط حريرية تتدلى بهدوء تحت النيران. لم يكن بإمكان الناس تحويل أنظارهم عن اللون الموحد للقمصان المصنوعة من الحرير، وعن الدروع الصغيرة المستديرة التي غطّت ظهور فرسان القصر من أصحاب الأعطيات[1] الذين كانوا يسيرون أمامي مباشرةً مرتدين معاطف حمراء من فرو الدّببة. أمّا دروع الفقراء فبدت عجيبة وكأنها منحوتة من الشمس، وتدلّت سيوف قدامى الإنكشارية من الباش جاويش الفولاذية والمعقوفة من أكتافهم وعلى ظهورهم. بدا المنظر وكأن عالماً من الخيال قد تسلل إلى الواقع، فسرحت وسط ألوانه وكأنني أعيش طفولتي. تقدمت إلى الأمام ملقياً التحية على شعبي، فيما موكب الحرّاس يحيط بي من يميني ويساري، يتقدّمه الجنود المكلفون بتجهيز الطرق ونصب الخيام بثيابهم الزمردية وقلنسواتهم المخروطية.

خلفت ورائي كوزلجه قاسم باشا والينا على مصر وبيلر بيي الأناضول سابقاً في إسطنبول، فأمر الوحدات التي يقودها بإطلاق النار من أربعين مدفعاً تحيةً لي، ورافقني حتى الأسوار.

* * *

بعد يومين من المسير الشاق، أمرت بنصب خيمتي في الضفة الأخرى لنهر ماريتش ذي المياه الزرقاء الهادئة، واستقبلت الوفود القادمة من الجوار، وصرفت لهم العطايا... كان الطقس في هذا الموسم هادئاً في منطقةٍ تخضع لنظامٍ غير مستقرٍ... وحين أوشكنا على بلوغ صوفيا بعد مسير

(1) وهؤلاء هم عبيد القصر الذين يدربون على الفروسية ويمنحون أعطيات وأجوراً كل ثلاثة شهور.

شـهرٍ ونصف، هطلـت الأمطار الغزيـرة التي تتعـب الجيش وكأنها سـيل لا يريد أن ينتهي، فأمرت باستراحة الجيش مدة ثلاثة أيامٍ أمام المدينة، أرسلت خلالها ابن عمتي الغازي خسـرو بك قائد فرسان البوسنة على رأس قوةٍ من خمسة آلاف شخصٍ للاستطلاع، كما أرسـلت بالي يحيى زاده بك[1] والي سمنديرة على رأس قوةٍ من خمسة آلاف شخصٍ لحماية مؤخر الجيش.

في الرابع عشـر من رمضـان، كان البـرد شـديداً؛ رغم أننا في شـهر حزيران وفقاً للتقويم الميلادي. وكانت السـماء تموج فوقنا ببطءٍ مثل بحرٍ متجمدٍ، وبدأ الزكام ينتشـر بين الجنـود... فمنحتهم ثلاثة أيـام من الراحة من أجل العـلاج، ووضعت جميـع الأطباء فـي خدمتهم... وعلـى الرغم من كل تلك المشـاق والصعاب، كان معظم الضباط والجنود الأناضوليين يصرّون على الصيام ولا يأخذون برخصة السـفر، ولم تتمكن فتوى شـيخ الإسـلام كمال أفندي وجهود أئمة الكتائب من إقناعهـم برخصة الإفطار. وفي المقابل، كان الإنكشـارية يأكلون في خيام إعداد الطعـام حتى تمتلئ بطونهم. وإذا كان الخلاف بين الطرفين قديماً ودفيناً، فإنه هذه المرة يأخذ بعداً جديداً في جدلٍ عقيمٍ لا ينتهي حول النيات والتصرفات السليمة.

أمرت ذات يـومٍ بنصب المائدة وسـط مقـر الجيش لأتنـاول الطعام مع كل وزرائـي وقادة الوحدات؛ حتى أسـتطيع أن أضع حـداً لهذا الجدل الذي لا ينتهـي. وحين أصر جنـود الأناضول علـى الصيام، منعـت قادتي من التدخل لأنني أدركت أن هذه المسـألة لو احتدمت أكثر فستتحول إلى صراعٍ مذهبيٍّ بين الإنكشارية البكتاشيين وجنود الأناضول السنيين. علاوةً على ذلك، أنـا أعلم جيـداً أن قـوة معنويات الجنـدي أهم بكثيـر من قوته البدنية، وأنه عنـد الحاجة تكون قوة الروح هي التي تحمل الجسـد الهزيل على متابعة المسير.

عندمـا اقتربنـا مـن بلغـراد، أرسـلت الصـدر الأعظـم إبراهيم باشـا

---

(1) بالي بن يحيى، وزاده يعني الابن.

والقوات التي يرأسـها أيضاً بصفته بيلر بيي روم إيلي إلـى قلعة بيترفارادين لأن فتح هـذه القلعة مهم جداً لأمن جيشـنا مـن الجهة الخلفيـة... وذهب برفقة إبراهيم باشـا كلٌّ من بيلر بيـي الأناضول بهرام باشـا، والوزير الثاني إياس باشـا، والوزير الثالث مصطفى باشـا، ووزيري الثاني السابق، ووالي مصر... وحاصر أسطول السفن الخفيفة بقيادة سـليمان رئيس القلعة على طول نهر تونا بثمانمئة سـفينة؛ قسـم منها مزودٌ بقربينـات ذات نظامٍ جديدٍ لإطلاق النيـران... كان قائـد القلعة تومـوري بابا من أشـهر قـادة المجر، وكان معـه ما يقارب من سـتمئة مـن نخبـة المحاربين. أما قائد الأسـطول المجري الموجود أمام القلعة فهو القائد الشـهير نودور باثوري، وكنت قد رأيتـه ذات مرة ضمن وفدٍ مهيـبٍ جاء إلى أدرنـة للقاء والـدي. كان اللقاء عقب رحلة صيدٍ غير موفقة، وأتذكر أن والدي لم يكرمهم كثيراً؛ لأنه كان ينفر من مظهرهم وتبخترهم الشديد.

فـي اليـوم السـابع للحصـار بلغت موقـع إيـون، وبـدأت أتابـع كل التطـورات لحظـة بلحظـة بالاعتماد على سـتة مراسـلين كانـوا ينقلون لي الأخبار. وفي الثالث عشر من أغسطس/ آب، في وقت السحر، وقبل بزوغ ضوء النهار، باغت كمال رئيس الأسـطول المجري بهجمـةٍ مفاجئةٍ، وقام بتشتيت العدو بنيران القربينات المدهشة. وبلغني أن درع باثوري اشتعلت فيها النيران، ولـم ينج إلا بصعوبةٍ بعد أن ألقى بنفسـه فـي الماء في اللحظة الأخيرة؛ ففرحت بذلك كثيراً.

اسـتمرّ الحصار في ظل تبـادل إطلاق نيـران المدافع بيـن الطرفين، وحروب الأنفاق المحفورة. وشـنّت ثلاث حملاتٍ مختلفةٍ على الأسوار. وفي الحملـة الثانية، وُضعـت داخل مدافع الهـاون كراتٌ نحاسـيةٌ ملفوفة بقطع مـن القمـاش الثقيـل الـذي كان يشتعل بالنيـران الإغريقيـة التي لا تنطفئ بواسـطة الماء، فأحدثت حرائق كبيرة داخل القلعة. لكن المحاربين العازمين على الدفاع عـن القلعة لـم يتراخوا فـي الدفاع عنها، وسـيطروا

على النيـران. فـي الحقيقـة، أنـا أعلـم أن الحمـلات الثلاث لـم تكن في إطار الهجوم الشـامل، بـل كانت تهدف إلى اسـتنزاف قوة العـدو وإحباط معنوياته... أرسـلت وهيمي أورخـون جلبي في مهمةٍ جديـدةٍ مرةً أخرى. وكانت مهمتـه هذه المرة شـراء فـارس مشـهورٍ من فرسـان تومـوري بايا حريصٍ على المال؛ وهو فيكونت نيميث.

وإذا كان أورخـون جلبي لم يعد يسـتطيع اسـتخدام ذراعه اليسـرى، فإن عقله أصبـح يفكر أكثر من أي وقـتٍ مضى. لذا، شـق طريقه في الليل متسـللاً إلى أعماق الأحـراش المحيطة بالقلعـة، والتي تفـوح منها روائح الطمـي والطحالب، والتقـى نيميث، واتفق معـه على إيقاف حفـر الأنفاق المضادة لثلاثـة أيام لقاء عشـرة آلاف دوقة ذهبية؛ دفع لـه منها ثلاثة آلافٍ مقدماً. وبعد ثلاثـة أيامٍ التقـاه أورخون بحجّـة إعطائه المبلـغ المتبقي من الذهب، فقبض عليه، وأرسله إلي في مقر الجيش.

إنه فارس فـي متوسـط العمر، لـم تـزده لحيتـه الصغيرة ولا شـاربه الطويـل المفتـول وسـامةً. كان ينظـر إلي متوسـلاً وهـو يرطـن باللاتينية: «الرحمة يا مولاي، لقد خدعت، وتعرضت للخيانة».

فأجبته: «وماذا عـن أولئك الذين خدعتهم أنت؟ فبسـببك، وبسـبب إيقافك أعمال حفر الأنفاق، بلغت أنفاقنا أعماق جدرانكم».

انهمرت الدموع من عينيـه وهو يقول: «إن تركتموني حياً فلن أنسـى معروفكم هذا طوال عمري، وسـأعمل كل ما في وسـعي لخدمة جيشـكم المبجل في كل موطن يذهب إليه».

لم أسـتطع أن أكبح الاشـمئزاز الذي اسـتيقظ في داخلـي، وصحت به: «لا حاجة لـي إلى أمثالك من الخونـة، ولا أقيم لهم وزنـاً أيها الحقير. حذار أن تتوسل إليّ من أجل الحفاظ على حياتك. لقد قطعت مسافةً تربو على ستة وسـتين يوماً، أتعرف ما الذي فعلته بالخونة الذين عصوا أوامري وعاثوا فسـاداً فـي الحقـول المزروعـة، وأتلفوهـا، واسـتولوا علـى أغنام

المزارعيـن وأموالهم رغم نهيي إياهم عن ذلك؟! سـأقول لـك ماذا فعلت بهم، لقد أصبحت أجسـادهم النجسـة طعاماً للغربان. أيجعلني هذا إنساناً ظالماً أيها الفارس؟ لماذا تصمت؟ فلأجب أنا إذاً. ربما في نظرةٍ سـطحيةٍ إلـى الموضوع سـأبدو ظالماً. ولكـن، لا بد مـن قطع بعض الـرؤوس من أجل سلامة الباقين وراحتهم». شـعرت وأنا أقول هذه الكلمات وكأن أبي يقوم من رقاده ويبعث مجدّداً متجسداً فيّ أنا، أو أنني أموت وأصبح هو.

– إنني ألتمس عدالتكم.

– إن محو السّـفلة أمثالك من الوجود خير للشـعب المجري. وهذه هي عدالتي. وأشرت إلى رئيس البسـتانيين الأخرس: «هيا أسرعوا، خذوه بعيداً عن وجهي».

في مثل هـذه الأوقات، كنـت أختبئ وراء درعـي الحديديـة الثقيلة، وأوجه للرحمة المسـتقرة في أعماقـي ضربةً أصيب بها منهـا مقتلاً... كان لا بد لي من أن أفعل ذلك. ولو ترددت قليلاً، وتراجعت خطوة إلى الوراء في أمر كهذا، لما كان الضرر سـينال مني وحدي، بـل ممن هم في رعايتي أيضاً. والدنيا كلها في مسؤوليتي ورعايتي.

وعلى الرغم من كل شـيء، كان الفارس نيميث يستحق الشكر لقيامه بمهمته بشـكلٍ جيدٍ. ففي اليوم الرابع عشـر من بدء الحصار، في 27 تموز، كان إبراهيم باشـا يفجر البـارود الذي ملأ الحفر المنتشـرة علـى مد النظر. وكانت الأبراج تتهـاوى مثيرة الغبار والدخان المتصاعـد، فيما الانفجارات المدوّية تنشـر أشـلاء الجثث في الأرجـاء. وكان المجريون ينسـحبون إلى القلعة الداخلية متحصّنين بها عند نشوب القتال، لكن إبراهيم باشا لم يكن يترك حجراً على حجرٍ، ولا رأساً على كتفٍ. وعندها، كان المتحصنون في القلعة الداخلية يستسـلمون؛ الفريق تلو الآخر، ويدلّون على نقاط الضعف في القلعة لقاء إبقائهم على قيد الحياة. وهـذه المرة، تجاوزت الانفجارات التي أحدثتها الألغام قدرة المحاصرين على تطويقها، لا سـيما وأن إبراهيم

كان يشـن حملةً جديدةً تترافق مع كل موجة من الانفجـارات، وتنهار معها المقاومة. لكن إبراهيم باشـا - ربما لأنه لم يكن يسـتطيع أن يمحو ذكرياته عن العبوديـة - كان ينغمس في حرب إبـادةٍ جماعيةٍ ولا يبالي بشـيءٍ أبداً، حتـى بدمـوع المستسـلمين، وكأن هـذه فرصتـه للتخلـص مـن الرغبة في الانتقام التي تعتمل في أعماقـه؛ لذا كان يقضي علـى الجميع، حتى أولئك المسـاكين الذين ألقوا أسلحتهم مستسـلمين. وكان يقوم بتلك الأعمال من دون الخوف من أحدٍ؛ حتى منّي، ويعلق رؤوس الفرسـان الخمسـمئة ممن ضربت أعناقهم على الرمـاح، وينصبها على امتداد الطريق، وينظم مراسـم السير بينها. وعندما كان يأمر جنوده برفع أصواتهم قائلين: «عاشت دولتكم يا باشـا»، كان وهيمي أورخون جلبي يـذرف الدموع؛ حزنـاً على ما حظي به إبراهيم مـن مكانة حسـبما أعتقـد. ولأنني كنـت أعلم بما يكنّـه وهيمي أورخـون لإبراهيم من مشـاعر كنـت لا أكتفـي بما أتلقـاه منه، بل اسـتوثق من المعلومات التي يمدني بها بشـهادات بهرام باشـا وإياس باشـا... نعم، لم تكن حالة اللامبالاة والثقة المتطرفة بالنفس عنـد إبراهيم تعجبني، لكن الموقـف حينهـا لم يكـن يسـمح بالجـدال والاحتـكاك. تركت فـي القلعة ما يكفي لإعـادة إعمارهـا والدفاع عنهـا، وثلاثمئـة إنكشـاري، ومئتين من البنائين. وسـقطت قلعتا إيلـوك وOsijek بسـهولةٍ ومن غير حاجـةٍ لحصارٍ طويـلٍ؛ بهجـومٍ قامت بـه القـوات بقيادتـي فـي الثامن والتاسـع مـن آب، وأصبحتا تحت سـلطة سـنجق سـيرم. وفي اليوم نفسه، أرسـلت من ينادي في صفوف الجيش معلناً أن هدفي الآن بودين، وأرسـلت وهيمي أورخون من دون تأخرٍ إلى فويفودا أردل حامي البروتسـتانت للقـاء حلفينا الطبيعي يانوس زابوليـا. وبينما كنـت أودع وهيمي أورخون الذي تنكـر بزيّ راهبٍ كاثوليكـيٍّ؛ كنـت أقـول لنفسـي إنـه إن نجـح زابوليا فـي حسـم موقفه في الحرب القادمـة، وفي الوقـوف على الحيـاد، وفي هزم لاجـوس فإن ذلك يعني أن ملك مجرستان قد أصبح موجودا.

III

استغرق بناء الجسـر على نهر درافا مع نهر طونا في مدينة أوسيجك الخضراء الجميلة في منطقة سـلافونية الجميلة بمهارةٍ عاليةٍ من قبل عمال البناء عشـرة أيام. وعبرت مع إبراهيم باشـا الجسـر الذي تم بنـاؤه في 22 آب، 14 ذي القعـدة مـن التاريخ الهجري. وفـي تلك الليلـة، وبينما كانت الأمطار تهطل بنعومةٍ في الخارج، كانت النشـوة تستقر في أعماقي كحالي قبل كل معركةٍ، فرفعت يدي متوسلا إلى الله: «اللهم لا تجعل وفاتي على السـرير في قصري، بل في غزوةٍ كبيرةٍ كهذه، وأنا أتضرع إليك في خيمتي وفي معسكري حتى الصباح من أجل سـلامة جنودي وأمتي، أو وأنا مرتدٍ درعي وشاهرٌ سـيفي أجاهد به أعداءك». وفي وقت السحر، قبيل استيقاظ طيف الشـفق في الأفق، أمرت بأن تطلـق المدافع نيرانها، وتدمر الجسـر، ليعلم الجميـع أن لا عودة بعـد الآن، وليس أمامنـا إلا النصر أو الشـهادة. كانت نفسي في أثناء إصداري الأوامر مفعمةً بمشاعر مماثلة للمشاعر التي أحسّ بها فاتحو الأندلس حيـن توجهوا إليها للمرة الأولـى، وفي مخيلتي صورة لطارق بـن زياد عـام 711 على رأس قـوة تبلغ سـبعة آلاف تحملها السفن إلى البر الإسـباني. فها هو يشير بسـيفه وهو مغطى بمعطفه المرقع وجعبتـه الممزقـة نحـو السـفن المحترقـة، ويخاطب جنـوده فيما السـفن تنفث اللهيب وتندلع من وسـطها ألسـنة النيران: «أيها النـاس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكـم والعدوّ أمامكـم، فليس لكم واللـه إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هـذه الجزيرة أشـدّ ضياعاً مـن الأيتام في مـآدب اللئام، وقد اسـتقبلكم عدوّكم بجيشـه وأسـلحته، وأقواته موفـورةٌ، وأنتم لا وزر [لا سند] لكم غير سـيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي

أعدائكم...». إن النار ملتهبة في فؤادي؛ تلك النار التي بها استطاعت فئةٌ قليلةٌ أن تغلب فئةً كثيرةً. ليس أمامنا غير الثقة بالله والتذلل له والتواضع واللجوء إليه، وإلا فمصيرنا كمصير حاكم بني الأحمر المترف الذي ضاعت على يديه الأندلس بسقوطها الأخير عام 1492. وما علينا في هذا الموضع إن أردنا النصر إلا التحلي بالتواضع والرحمة والطمأنينة والثبات، والسير إلى الأمام، فإما الشهادة وإمّا النصر والفتح المبين.

في شمال غرب بلغراد، على بعد 32 فرسخا تقع صحراء موهاج، وإلى جنوبها بودين على بعد ثلاثين فرسخاً. دخلنا سهول المجر الكبرى في 28 آب. تقع صحراء موهاج على الضفة اليمنى لنهر طونا، وفي السهل الشرقي تكثر تفرّعات نهر طونا، وتكثر فيها المستنقعات. وفي غربه تنتشر التلال التي لا تتجاوز قممها خمسين متراً، وتقوم في أعلاها كنيسةٌ يسميها الجنود في ما بينهم الكنيسة الفخ، والطريق المتجه نحو بيالي يمر بهذه النقطة. وفي هذا الجزء من الطريق تنهض تلةٌ لا تتجاوز خمسة أمتار، قامت فرقة المهتران بنقل خيمتي إليها، وأصبحت تعرف بتلة هونكار [أي الحاكم].

لم يكن يظهر أي أثرٍ للمجر. وفي ذلك اليوم الماطر، جمعت بعد العصر ديوان الحرب. كان الهواء لطيفاً يميل إلى البرودة، والموقد تشتعل فيه النيران، وكان الحطب الرطب المبلل يصدر عند احتراقه طقطقات مترافقة مع شرارات خفيفة متطايرة. وربما كان ذلك ما يثير في أعماقي ذكريات الحروب الماضية، ويحييها مجدداً. نقلت نظري بين المعاطف الثقيلة، والعمائم الخراسانية، واللحى الطويلة، والعيون المفكرة والأرواح المختفية وراءها وتأملتها بهدوء. كانت الحبال الأفغانية مزدوجة النسيج تثبت خيمتي إلى الأرض، وكانت جدرانها الأرجوانية من نسيج القمحا. وعندما تشتد الرياح، كانت تثير دوياً عميقاً يحرك أغوار النفوس... فيما القناديل الكريستالية تعكس ضوءها العقيقي على وجوه الجميع... أعلم

أنني ربما لن أرى غداً بعض الجالسين على الأرائك المذهبة (بالديبا) في أدب واحترام من دون أن يسندوا ظهورهم؛ وهذا الاحتمال يثير في دماغي المتعب ألماً واضحاً لا ينقضي... وربما أنا أيضاً لن أكون حينها في هذه الدنيا الفانية؛ فمن يدري؟!

استأذن حاكم سمنديرة وابن عمتي بالي بك في الكلام وقد احمر وجهه الأبيض:

- بوصول أربعين ألفاً من فرسان شارلكان بدروعهم الثقيلة، سيبلغ عدد قواتهم وفقاً لجواسيسنا ستين ألفاً. عندها، سيكون عديد قواتهم ضعف عديد قواتنا. ومدافعهم قصيرة المدى يبلغ عددها مئتي مدفعية، لكن عدد البنادق لديهم يتجاوز عدد بنادقنا... ومن المفيد هنا أن أذكر أن الفرسان البالغ عددهم ستين ألفاً مقيدون إلى بعضهم بالسلاسل، ويمكنهم عند الهجوم أن يزيلوا كل ما يعترض سبيلهم. ولهذا، أقترح يا مولاي أن ننظم قواتنا على التشكيلة العثمانية الكلاسيكية، وألاّ ننظمها في خطوط مستقيمة... وأن نستقبل هجوم الفرسان بطريقة ذراعي التطويق مع ثبات المركز والتفاف الطرفين؛ حتى نطوق الفرسان على طريقة الهلال.

بعد سعال خفيف نظفت به حلقي سألت:

- ما قولكم أيها الأغوات؟

أجاب الجميع: «إنه محق يا مولانا السلطان».

فتابعت: «يمكنك الانسحاب يا بالي بك. ولكن، ألا ترى الصحراء الممتدة، ونحن في فصل الصيف؟»".

- لكن الطقس هنا متقلبٌ، ونحن هنا منذ شهر لم تنقطع خلاله الأمطار مطلقاً حتى أصبحت الأراضي موحلةً. علاوةً على أن قسماً من الأراضي قد أصبح مستنقعاً موحلاً بالماء الأسود، وفيضانات المياه نتيجة الأمطار الكثيرة الهاطلة تزيد من ارتفاع مستوى الأوحال والمياه في تلك المنطقة. فإذا استطعنا دفع قوات العدو إلى المستنقع، فسنتركهم يغرقون

في رماله وأوحاله. ولذلك يا مولاي، علينا أن نسحب جيشنا إلى التلال المنخفضة قرب موهاج، فإن فشلنا معاذ الله في الهجوم من المناطق المحيطة بالمستنقعات، فإن الكفار سيبلغون في حملةٍ واحدةٍ باب خيمتكم.

- ينبغي أن نترك لفرساننا مجالاً أكبر للتحرك والمناورة.

وأيد الصدر الأعظم إبراهيم باشا وجهة نظر بالي بك قائلاً: «بالي بك محقّ يا مولاي. فإن لم نتمكن من صد الهجوم الكبير الأول لفرسان العدو، فعندها يمكن أن يقع ما لا يمكن أن نتخيله، وما لا تحمد عقباه».

- يجب انتظار مبادرة الهجوم الأول من العدو. ولذلك، ينبغي أن نترك جنود العزب (الروم إيلي) يواجهون الزحف الأول. وما دمتم تخشون القوة الجبارة لفرسان العدو، فلن نترك المدافع في صفٍّ واحدٍ كما كان والدي يفعل، بل سننصبها على ثلاثة أنساقٍ متباينة العمق، أليس كذلك أيها الأغوات؟

- بلى يا سعادة السلطان.

- خذ نصف طوابير المدفعية يا إبراهيم، وضع المدافع الشاهية في المكان الأكثر عمقا، واصطحب أثقال الجيش الأخرى نحو السفوح، وليطلق عشرون مدفعاً من المدافع الشاهية النيران من الخطوط الخلفية. وسيشكل بهرام باشا والي الأناضول الخط الثاني خلف جنود الروم إيلي، وسينصب المجموعة الثانية من المدافع. بيلر بيي سمنديرة الغازي خسرو بك، العدو لم يظهر حتى الآن، لذا قم مع فرسان البوسنة باستكشاف الطرف الآخر من السهل من دون أن تلقي بنفسك وبجنودك إلى التهلكة... سنقاتلهم حيث نريد لا حيث يريدون، فافعل أي شيء حتى تجذبهم إلى الميدان بأقصى سرعةٍ؛ لأن الانتظار مبرد يبري من جسم الجيش الفاتح... بالي بك، أنت المسؤول عن أمن أثقال الجيش ومدافعه، وسأكون مع إياس باشا ومصطفى باشا في المركز. الإنكشاريون سيقاتلون كفرقةٍ مستقلةٍ، وسيسارعون لنجدتنا في المواقف الحرجة، وسيوجّهون

أيضا الضربة النهائية. نظام الحرب يقوم على توصيات بالي بك. الصفوف الأمامية ستقاتل بكثافة منخفضة، وستعمل على جرّ فرسان العدوّ نحوها. وسنعمل على تحريض آمال العدو بإظهار الاضطراب السريع في صفوفنا، وإن فشلنا في بث حماسة النصر السريع في صفوف العدو، فإن مهمتنا ستكون صعبة. وإن تأخروا في دفع فرسانهم إلى مراحل متقدمةٍ، فإن احتمال انتصارهم سيكون وارداً. بهذه الطريقة ستكون تحركاتنا. أحب أن أتشاور مع وجهاء المنطقة بعد صلاة المغرب، إذ يمكن أن تختلف وجهات نظرهم عن وجهات نظرنا.

صادق أعضاء ديوان الحرب على الخطة بحني رؤوسهم، واضعين أيديهم على قلوبهم، وخرجوا من الخيمة... تمت تأدية صلاة المغرب جماعةً في السهل الممتد؛ في ظل حماية الجنود. وبينما كان شيخ الإسلام كمال أفندي يدعو ويتضرّع إلى الله، لم أتمالك نفسي، وانهمرت دموعي. وبعد صلاة المغرب، لم يأت من المغاوير قوجة ألاي بك، وقرة عثمان، وبالابان رئيس الإنكشارية، ومحمد صوباشي، وعادل تاويجا الذين دعوتهم لاستطلاع الموقف والتشاور معهم سوى الأخير. وقف عادل تاويجا أمامي فقلت له في حيرةٍ وبشيءٍ من الغضب: لماذا أتيت وحدك؟ فأدار وجهه نحو الريح التي طيّرت لحيته، فيما كان مرتدياً درعه الحديدية، وداساً يده تحت معطفه الكبير، وتكلم بلا مبالاة: «أرسلني قوجة ألاي بك. لقد شوهدت ألوية العدو، واشتبك جنوده مع طلائع جيشنا، ولم يبق مكانٌ للاستشارة، ولا للحديث. فلتفصلوا ألويتكم عن أثقال الجيش، ولتدخلوا تحت سنجقنا». واستدار مبتعداً من دون أن ينتظر ردّي. لفني صمتٌ عميقٌ، لكن توصيات أبي بهؤلاء المغاوير الأحرار كانت لا زالت تطن في أذني، ولذلك أشرت بيدي لأهدئ غضب إبراهيم وقلت: «الآن وقت الدعاء، وليس وقت الغضب يا إبراهيم. أصدر الأمر، ولتشعل الشموع، ولننزل النجوم إلى الأرض هذه الليلة». وقبل انسحابي

إلى خيمتي وصل وهيمي أورخون جلبي حاملاً معه أخبارا سارة من يانوس زابوليا؛ إنها الضربة الكبيرة للاجوس الثاني... مددت له يدي هذه المرة عاليا ليقبلها من دون أن ينحني لتقبيل طرف ردائي. فنفرت الدموع من عينيه كالأطفال من شدة سعادته، مددت يدي، ومسحت على شعره الكثيف قائلاً: «لا يمكننا مهما فعلنا أن نؤديك حقك». وتابعت بعد صمت قصير: «مهمتك الآن التسلل إلى صفوف معسكر المجريين، وجمع كل ما يمكن التوصل إليه من خطط الحرب قبل وفي أثناء القتال». كان عندما يريد أن يتكلم يُصدر من شفتيه همهمات يحرك معها رأسه بسرعةٍ وكأنه يريد أن يسد عجزه عن التوضيح، فابتسمت قائلاً: «هيا، أرني همتك يا أورخونْ. وأرني من نفسك خيراً». وكان ذلك كافياً للحد من احتكاك إبراهيم بأورخون من أجل سلامتنا جميعاً، ثم انسحبت إلى خيمتي لأتفرغ طويلاً لقراءة رسالة حرم:

«بعد تمرغ وجهي القبيح بالتراب الذي تدوسه قدماكم المبجلتان يا قطعة من روحي ومولاي وعزيز روحي ودولتي وسعادتي وسلطاني، أشكر الله على وصول رسالتكم الشريفة المبجلة التي منحت عيني نوراً، وملأت نفسي سعادةً وحبوراً... أسأل الله ألا يعدكم عني حتى قيام الساعة، وأن يمكنني من أن أمسح قدميكم المبجلتين بخدي... إن سألتم عن أحوال جاريتكم العاجزة الضعيفة، فوالله يا روحي، ليس ليلي ليلاً، أو نهاري نهاراً. ففي أي حال يمكن أن أكون وأنا بعيدة عنكم؟! ووالله وتالله إنني أحترق ليل نهار شوقاً إليكم، ولا يعلم حالي إلا الله. فأنتم سلطاني، وقطعة من روحي، ونور عيني. أنتم أملي في الدنيا والآخرة، وليس لي في الدنيا مراد سواكم، وحالتي يعجز عن التعبير عنها البيان والريشة. ليكن سيفكم منتصراً، وعدوكم مقهوراً، والسلام....

أمتكم العاجزة حرم

* * *

في سحر الأربعاء 20 ذي القعدة 932هـ، 29 آب 1526م، صلينا الفجر فيما كان المطر يهطل خفيفاً. وبعد تضرع طويل مع جيشي إلى الله، رفعت يدي مبتهلاً: «يا الله، يا ذا القدرة والقوة المتين، إلهي، النصر نصرك، والعناية عنايتك، والحفظ حفظك. بين يديك عصبةٌ عاجزةٌ من أمة محمدٍ فلا تهزمها، ولا تشمت بنا أعداءك الكفار». تردد الدعاء على ألسنة الجنود، وانطلقت من حناجرهم كلمة «آمين... آمين». ثم امتطيت صهوة حصاني الأغبر، وتجولت بين ألوية جيشي، وأنا أخطب في جندي: «أيها المسلمون، يا من تجمعتم تحت السنجق الشريف المبارك، أيها الإنكشاريون، والعزب، والسباهيون، وطلائع جيشي، والمغاوير، وعساكري وجنودي... إن كل العالم يدرك أن المسلمين يخرجون في سبيل الله طمعاً بنيل رضوانه. ونحن الآن هنا لقتال أصحاب الفتن ممن يصدون عن سبيل الله. إن متنا فنحن شهداء، وإن عشنا فنحن غزاة... فليرني كلّ واحدٍ منكم من نفسه خيراً». عند بزوغ أشعة الشمس الأولى، ظهرت تحت الضباب في السهل الممتد أعلام الجيش المجري. كانت جميعها أعلاماً حمراء وسوداء. وكان الجيش مدرعاً بدروع حديدية مخيفة. لكن تلك الأوزان التي يحملونها سرعان ما ستقطع أنفاس حامليها، وتعيق حركتهم... كانت وحدات الجيش تبدو كقطعةٍ صخريةٍ صلبةٍ عند مرورها في مراسم التحية كما هو معتاد. وخطر ببالي العبد العجوز لإمبراطور روما ماريوس أوراليوس المكلف بأن يهمس في أذني الإمبراطور في مثل هذا الموقف قائلا: «أنت إنسان، أنت إنسان»، فكررت ما تردده الجموع: «لا تكن مغروراً يا مولاي، فالله أكبر منك!». اتخذ جيشي مواقعه، وكنا جاهزين الآن لنخوض أشرف حربٍ... كانت نفسي ملأى بالرحمة والغضب، والنشوة والإنكسار، والرجاء والخوف. وأنا على يقينٍ بأن الغثيان الخفيف الذي كنت أشعر به وألم الرأس الذي لا يعرف نهاية سيتلاشيان عند احتدام المعركة. غير أنني لا أشعر بأنني على

استعداد يرقى لما عليه جسدي المدرّع. وبينما توجّهت برفقة حرّاسي نحو التلة حيث خيمتي، رأيت كل ألويتي وطوابير جيشي مترقبة العدو في ظل صفير الرياح... كانت خطة الجيش المجري وفق المعلومات التي تلقيتها من جواسيسي كما يلي: سيتقدّم الجيش بين قريتي Nazinyart و Kulkut اللتين تشكلان مع ميدان الحرب زاوية تبلغ 30 درجة، وسيحاول استدراجنا بعيداً عن المستنقعات الموحلة، وبذلك ستكون ميسرتهم من جهة نهر طونا، أمّا ميمنتهم التي يعتمدون عليها حسب ما سمعت فستكون قادرةً على التحرك بارتياح. وسينتظم الفرسان بدروعهم المخيفة خلف المشاة، فيما سيفترض النبالة والمدفعيون إلى الجانبين مشكلين مظلةً يتحرك في ظلها المشاة. ووجود الميدان في المنخفض سيجبرهم على تقديم حملة الفرسان الكبيرة... ابتسمت لنفسي وأنا أقول: «هيا، هيا يا لاجوس. قم بحملتك هذه، قم بها وتمتع بيومك».

موهاج
(وهيمي أورخون جلبي)

I

«ما لم يكن هناك صبرٌ بلا حدود أو فداءٌ خاصٌ، فلن أتمكن من الهروب من إحدى هاتين النتيجتين: إما خداع نفسي، وإما تجرع الآلام».

لويس ألتبوسر (يوميات الأسر)

كان المطر الـذي يشـتد، والريـاح التي تهـب عاصفة خلافـاً لما هو متوقع يثيران اسـتغراب المجريين من ناحية، وطمأنينتهم من ناحية أخرى. فالجيـش العثماني لن يشـن حملته فـي مثل هـذه الأجـواء، والمرجح أنه سينتظر سـكون الأمطار والعواصف. ولعل القرار الذي سـيتم اتخاذه وفق المعلومات الواردة، ووفق اللقاء الأول السـاخن بين بال توموري والملك لاجوس كان يتجـه بقوةٍ نحو منـح الجنود الراحـة. فقد كان هنـاك خمولٌ كبيرٌ يسـيطر على القوات المشـتركة من إسـبان وطليان وألمان وبولنديين وتشـيك... وكان الجنود منهكين نظراً للسـير الحثيث الـذي أجبرهم عليه الملـك لاجوس الثانـي، والذي اسـتمر أربعين يومـاً من دون راحـة؛ نظراً لمعرفته في وقت متأخر بخروج الجيش العثماني. لقـد قطعوا ما يزيد عن 79 ميـلاً، ونالهم مـن الإرهاق مـا نالهـم. وكان التوتر الذي كان الإسـبان والطليـان يفتعلونه داخل الجيش منذ فتـرةٍ طويلةٍ يزيد الوضـع تعقيداً أمام بال تومـوري ولاجوس. وكانـت محاولة تقـرب العثمانيين مـن الجنويين

حلفائهم القدامى، وكذلك رغبتهم في زيادة نفوذهم أمام الفاتيكان من خلال الاتفاق السري بين إنجلترا وفرنسا ضد شارلكان في الآونة الأخيرة يزيدان من توترهما.

وهكذا، كنت أتجول بينهم كرحالةٍ كاثوليكيٍّ يتجول في الديار؛ واحدةً تلو الأخرى مع اثنين من مريديه، محاولاً إنقاذ الأرواح التائهة بخطبي ومواعظي. أما الآن، فوظيفتي الفخرية محاولة إخماد التوتر السائد بين الإسبان والطليان. نعم، كنت راهبًا مسكيناً لا يهتم بالافتراءات على المجر، ولا بالظلم الواقع عليها من البروتستانت، ولا بتأييد الطليان لها الآن، ويناهض الفكر البروتستانتي بكل وسيلةٍ، ولا يكف عن عداوة بني وطنه. وفي الوقت نفسه، كنت قد نجحت في التسلل إلى كنف أقارب لاجوس لأتمكن من رؤية ساحة الحرب، ومراقبة كل خطوات لاجوس.

بدأ المجر بالاستعداد للحرب بشكل يتناسب مع الخطة الموضوعة. كانت الرياح تهب محملة برائحة الطحالب النتنة القادمة من المستنقعات، وملأ الجو دخان وضباب، وكانت وحدة المشاة المكونة من عشرة آلاف جندي تأخذ مواقعها في الصف الأول على طول الوادي بشكل رائع يثير الدهشة؛ نصفها يحمل البنادق، ونصفها الآخر حراس ضخام البنية يحملون على ظهورهم سيوفاً عملاقة يتجاوز طولها المترين. وكان الغطاء الناري لحاملي البنادق يدل على بداية الهجوم. كان هؤلاء الجنود أعظم من جنودنا الإنكشاريين، وكانت الدروع السوداء التي يلبسونها تشبه الكوابيس، ولعل السفاحين والمجانين عندنا يصعب عليهم مواجهة هؤلاء.

خلف الخط الأول تمركزت المدافع المعززة بالستائر الترابية. وكانت المدافع منصوبة بشكل منخفضٍ. لعلهم كانوا على يقين بأن حملة الجيش العثماني ستكون بالشكل التقليدي. وعلى الجناحين انتشرت وحدتان من الخيالة؛ قوام كل منها ألفا جنديٍّ. وتولى قيادة خيالة الميمنة

القائد العام لفرقة الخيالة الفارس سيمون بوليتيت، فكان مثار دهشة الجنود ببنيته القوية ونظراته الثابتة ولحيته السوداء ودرعه المذهبة. وقد حفرت صورة هذا الفارس في مخيلتي في إحدى الزوايا. كان يمطر الدنيا بصوته الجهوري، ويصدر الأوامر يميناً ويساراً، ولم يكن يعبأ بأي شيء!

وكانت خيالة الميسرة بقيادة بيير بيريني، وكان رجلاً طويلاً يبدو كمنارة متنقلة، فيما مغفره أسطواني الشكل يغطي كامل وجهه، وتنتشر على دروعه نتوءات مسننة، وتغطي أسياخ يبلغ طولها نحو عشر أصابع كتفيه وكوعيه وركبتيه. ولعل هذا كله ما يزيده وحشة وهيبةً. فبالتأكيد لا يجدي معه سيفٌ ولا سهمٌ وهو مدرّع هكذا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي: ترى، ما المدة التي يستطيع فيها محارب مثله أن يصمد وهو يرتدي مثل هذه الدرع الثقيلة؟ فجنودنا من المشاة والخيالة يرتدون دروعاً خفيفةً، ولكنهم يحاربون بسرعةٍ وقوةٍ مدهشة... ولعل في هذا ما يشير إلى مدى خوف الغرب والأوروبيين من الموت. فعقيدتنا تعلمنا مواجهة الموت بثبات، وتساعد المقاتل على السيطرة على خوفه منه. أما الأوروبيون، فإنهم يخافون من مجرد ذكر الموت، فكيف ستكون حالهم في أثناء خوضهم غمار الحروب؟

أما قلب الجيش المجري فيقوده الملك لايوش بوحدات الفرسان الألمان المدرعين بدروعهم الثقيلة. وفي النسق الثاني للجيش، تتمركز وحدات المشاة الأخرى على شكل مجموعاتٍ؛ كل منها تتكون من ثلاثة آلاف جندي يحملون البنادق والسهام، وقد سنحت لهم الفرصة لحفر خندق صغير أمامهم. الجيش المجري بتفوقه العددي وتنظيمه الشديد، ربما يشكل مشروعاً أقرب لتحقيق النصر في هذه المعركة.

في النسق الثالث، تمركزت فرق المشاة ورماة السهام بقيادة جوزيف كارتاكوفي الذي انضم إلى الجيش في اللحظات الأخيرة بثلاثة آلاف من الفرسان، وتمركزت خلفه وحدات بقيادة أنطون تراتبة يبلغ عددها ثلاثة

آلاف فارس؛ بينهم وحدةٌ فدائية مخيفة في أوروبا تدعى فرسـان شامرنبرغ أسسـها بيتر ماركزالـي تعمل في الحـروب كفرقـةٍ انتحاريـةٍ. وكان ماغيار دراجيفي مسـاعد أنطون تراتبة ينتظر في مكانه في مؤخـر الجيش مع فرقة عسـكرية تتكون من ألف فـارسٍ وألفين من المشـاة، فأرسـلت على الفور أحد أعواني إلى مقر الجيش العثماني لينقل لهم هذه المعلومات...

بعد انتظام الوحدات في أماكنهـا، أخذ كل من الملك لايوش الثاني، وصديقه فالديسـلف بلاتـه، والقائـد العام بـال توموري في إلقـاء الخطب الحماسية بين الجنود:

«يا أسـود المجر، يا أبطال العقيـدة النصرانية الفدائييـن، ها نحن هنا في هذا الجو الماطر والعاصف قد تجمعنـا لمواجهة عدو قاسٍ وعنيدٍ إلى أقصى درجةٍ، لا يريد أن يغتصب أرضنا وأموالنا ونساءنا فحسب، بل يريد أيضاً أن يمـس ديننا. ونحن أناس شـرفاء ومحبـون لوطننا ودينـنـا. وها قد جاء اليوم المناسب لكي نتصدى بسيوفنا لهؤلاء المضللين الذين يدعمون المذاهب الهرطقية!».

* * *

كانت أصوات الطبول التي يقرعها الأتـراك تهز القلوب، وهي ترتفع حينـاً وتنخفض حيناً آخـر مع حركـة الرياح. ولـم تظهر في المعسـكر أي حركة، وكنت أعـرف أن بال تومـوري قد أصدر أمـراً بالانتظـار، وفهمت من الشـائعات التي بدأت تنتشـر بين أفراد الجيش أنه سـتكون هناك راحة اليوم، وسـيتم نصب الخيام؛ فقد كانت أعصاب الجنـود المرهقين متوترة إلى حد كبيـر بسـبب العواصف والمطـر. ولعل الأسـوأ مـن كل ذلك هو طول الانتظار. كانت العاصفة تشـتد إلى حدٍّ يسـمع معه اصطـدام الجنود ببعضهم بسـبب صعوبة الحفـاظ على توازنهـم وهم يرتدون هـذه الدروع الضخمة. وكانت تسـمع أيضـاً أصـوات رنين القطـع المعدنية التـي كانوا يخرجونهـا من تحـت دروعهم. وربما شـكلت سـحب البـارود المحترق

الكثيفة خطوطاً حمراء وصفراء تبعث في الإنسان آلاف الذكريات والآمال الكبيرة لصباح يومٍ قادمٍ جديدٍ. نعم، إنها أمنية البقاء ليوم آخر، والرغبة في رؤية فجر يومٍ جديدٍ. كانت أقواس الأضواء تتلألأ في بعض البقع الطينية بلون الدم الأحمر الجاف؛ وكأنها تشير إلى ميدان الحرب. لكن نظرات الجميع - ولسببٍ ما - كانت لا تحيد عن المستنقع الممتلئ بالمياه السوداء. ولعل الأبخرة الخضراء والروائح الكريهة التي كانت تنبعث من سطح ذلك المستنقع كانت توحي بالنهاية التي تنتظر المجر، أو ربما كانت هناك بعض الأسرار التي يعرفونها عنه ولا نعرفها. خلال الانتظار، سمعت من راهبٍ كاثوليكي عن عبد الحضرة الذي يقال إنه طاف قبل عدة قرون صحراء العرب الشاسعة بمفرده، وصادف فيها من المخاوف ما أفقده عقله. وكتابه التشاؤمي العجيب نيكرونوميكون الذي يعتبر طرف البداية لأسرار كل الغامضين على مر العصور كان يدور بين أيادي المتشائمين. لقد كان هذان الاسمان يترددان بين الظلال الحالكة لذلك اليوم الأسود... تنهد الراهب، واستمر في حديثه: «في ذلك الماضي الذي ليس ببعيدٍ، كانت هناك فئة ضالة تمارس بعض الشعوذات السوداء في ظلال هذه المستنقعات. وقد أدى عبد الحضرة الطقوس التي وصفت في ذلك الكتاب الخبيث. وحسب الأسطورة، إن لعنة المستنقع مستمرة حتى يومنا هذا. والرائحة الكريهة المنبعثة منه؛ هي النتيجة الحتمية لدماء الأبرياء التي لا تحصى... ولقد صدق تلك الحكاية الخرافية الكثير من الناس؛ إلى الحد الذي جعل منها حقيقةً واقعيةً تقريباً». لم أكن أدري كم من الوقت قد مضى علي وأنا مستغرق في التفكير في أمر هذا الكتاب العجيب وكاتبه، وغافل عن المطر الذي يغمرني، والعاصفة التي لا تهدأ. أدرك أحد الرهبان مدى اهتمامي بالأمر فقال: «لعلك لم تسمع الاسم اللاتيني لهذا الكتاب الملعون، ولكن على الأقل، لا بدّ أنك سمعت باسمه العربي المشهور». نظرت إلى وجهه المظلم المبتل الذي يشبه التجويف

الصخري، وقلت:

- وما اسمه؟

- العازف.

- نعم نعم، سـمعت بهذا الاسـم من قبـل. ولكن، أيـن؟! نعم، كان فرهاد باشا الذي أخمد العصيان في مصر قبل عدة سنوات قد قال إنه رأى هذا الكتاب الملعون في يد بـدويٍّ دله على مكان جان بردي غزالي. عجباً لهذا الأمر، كيف جرى؟ وكيف كان؟

II

استمر الانتظار الصامت والغامض حتى مالت الشمس نحو الغروب. كانت الأمطار لا تزال تهطل، وكانت أصواتٌ عاليةٌ تسمع أحياناً مصحوبةً بصفير الرياح. وفجأةً، اجتاحت نوبةٌ من الهلع الصفوف التي كانت تتعرض للهجوم... فهمت حين رأيت الأعلام الخضراء والبيضاء أن والي سمنديرة الغازي بالي بك قد كسر حاجز الصمت بهجومه المباغت متوجهاً مع فرسانه إلى خطوط العدو بشكل مفاجئ؛ تاركين خلفهم الطين المتناثر من حوافر خيولهم... بادر الجيش المجري الذي سئم الانتظار بالرد على الهجوم، وتحرك سيمون بوليتيت بفرقته من الفرسان في الجناح الأيمن إلى الوادي كعاصفةٍ سوداء، وتصدّوا للهجوم. وما إن رأى الفرسان الترك هذا السيل العارم حتى نفخوا في الأبواق إشارة الانسحاب... كنت واهماً عندما ظننت أن سيمون على قدر من الخبرة، ولن تنطلي عليه هذه الحيلة... نعم، كنت واهماً، ومخطئاً في ذلك.

لقد أتقن السلطان سليمان خان حساباته، وأدرك حالة الإنهاك التي يرزح العدو تحتها، وعجزه الكئيب من طول الانتظار... وكان هذا الدهاء امتيازاً إضافياً ورثه عن آبائه. فعظماء العثمانيين لطالما كانوا يتمتعون بالقدرة العالية على تقدير خطوات العدو مسبقاً. كان لاجوس شاباً يافعاً، وكان يريد أن يثبت قدرته أمام شارلكان، ويتوق للثأر لهزيمة بلغراد. أما قادة أركان حربه، فكانوا يخافون أن ينصب عليهم غضب شارلكان، فأسرعوا إلى الميدان تاركين توقعاتهم في مقراتهم الأنيقة. ظن لاجوس أنه استعد لهذه المعركة جيداً، وإن حصل ذلك في وقت متأخر. وخدعه تراجع الفرسان الأتراك بعد شنهم هجومهم الأول بهذه السهولة والسرعة.

فمن الذي يستطيع الصمود أمام فرسان شارلكان المرعبين؟!

لم تلق اعتراضات بال توموري آذاناً صاغيةً من لاجوس. ولم تكن لدى هذا الملك الشاب الذي لم يكد يبلغ العشرين من عمره نيةٌ بالاستماع إلى قائد قواته... ويبدو أن الزحف الذي بدأ جيش الروم إيلي يشنّه قد أجهز على ما تبقى من الحكمة عند لاجوس، ودفعه إلى الجنون من فرط الانفعال والغضب. نعم، بدأ جيش الروم إيلي في طليعة الصفوف الأمامية للقوات العثمانية بالزحف؛ متّخذاً وضعية الحرب. وكان واضحاً أن الجيش العثماني في المقدمة يلتحق بوحدات الفرسان الموجودة في الجناح الأيمن. كان توموري البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، والذي احمرت بشرته السمراء كما لو أنه في يوم حار، وظهر في عمق عينيه الزرقاوين بريق شخص قويٍّ يعرف ما يريده يحاول السيطرة على ردود الأفعال، ويحاول ثني الملك عن التقدم قائلاً: «انتظروا حتى يدخلوا مدى مدافعكم. أيها الملك، إن صبرنا قليلاً فستتمكن من إيقاف الصفوف الأولى للأتراك بأسلحتنا طويلة المدى، ثم سنهبط عليهم بالمشاة المدرعين والمسلحين بأسلحة ثقيلة، وسنمزّق صفوفهم في المركز». فصاح الملك:

- ما الذي تقوله يا توموري؟! ألا ترى؟ لقد حوصر بوليتيت، وها هو بيريني يسرع لنجدته. وإن تأخرنا في التحرك فسنكون قد عرضناهم جميعاً للخطر. ولكننا إن لم نفتح ثغراتٍ في وحداتنا، فالنصر سيكون حليفنا بالتأكيد.

- جلالة الملك، إن الأوامر التي تلقاها بوليتيت كانت شديدة الوضوح، لكنه ارتكب خطأ وهو يحاول الالتفاف خلف العدو ليثبت بطولته... ونحن يجب علينا الآن ألا نكرر الخطأ ذاته... إنّ التكتيك الذي يتبعونه تركي كلاسيكي قديم... وأخشى أنهم يريدون تطويق قواتنا ومحاصرتنا.

صاح لاجوس وتعابير الدهشة تملأ وجهه الأبيض الشاحب، بعد أن خلع خوذته وهو يقول:

- ما الـذي تريد منـا فعله يا تومـوري؟! هل نتـرك إخواننـا وحدهم ونسـلمهم للموت؟! إن لم تفترق صفوفنا فلن يسـتطيع أحد محاصرتنا... نعم، سنمزق صفوفهم ونخرج من الجهة الأخرى.

- مولاي، يجب على بوليتيت أن يتحمـل نتيجة الخطأ الذي ارتكبه، فليـس المهم هو الأشـخاص، بـل المجر نفسـها. جلالتكـم تتحدثون عن خرق الحصار، ونحن لم نخض مع الترك حرباً ميدانية منذ سـنوات. لكننا سـمعنا عن الدور الذي لعبتـه مدفعيتهم المتنقلة في فتوحات الشـرق. فإن حاولنا اختـراق الحصار، فسـيقابلوننا في الطـرف الآخر بنيـران مدافعهم، وسننهزم في مدةٍ قصيرةٍ.

نخس لاجوس فرسـه، وتقدم من قائد قواته، وأمسكه من كتفه قائلاً: «لقد جننـت يا تومـوري. أتعتقـد أن الجيـش سـيطيعنا مجـدداً إن ضحينا بشـخص مثل بوليتيت الذي يحترمه الجنـود؟! أعط جميـع الوحدات بما فيها الوحدات الاحتياطية أمـراً فورياً بالهجوم. وإن تبعت وحدة الفرسـان الثقيلة التي سارت في المقدمة فالنصر سيكون حليفنا بالتأكيد».

وفـي تلـك اللحظـة، التفـت الملـك إلـى الفـارس أندريـه أباتوري صاحب العينيـن الزرقاويـن الذي يبـدو إلى جـواره كخيال تحت السـماء البترولية المائلة إلى الحمرة، والذي تدخّل في الحديث بلهجة قوية قائلاً:

- جلالتكـم على حق يـا مولاي. أعطوا أمركم بشـن هجوم شـامل؛ فالتـرك ما زالـوا في حالة هلـع بسـبب الهزيمة الأولـى التي تعرضـوا لها. والعائـق الأكبر الذي يواجههـم هو أنهم غريبـون عن المنطقة، لـذا يمكننا أن نشـتتهم في اتجاهين، ونقضي عليهـم؛ إن تمكنا من ضرب الوسـط... والمحاربـون مـن أمثـال بوليتيـت وبيرينـي هـم مصـدر الـروح المعنويـة للجيش.

فصاح لاجوس وقد التصق شعره المبتل بوجهه: «هل ترى يا توموري؟».

كان من السهل إدراك أن لاجوس لم يتعرض لقلق كهذا طيلة حياته... وعندما رأى بال توموري أن كل الأغصان التي يتشبث بها قد انكسرت الواحد تلو الآخر، أدرك أنه لا داعي للإصرار أكثر من ذلك، وأحنى عنقه وقال: «أمرك يا ملكي». ثم استل سيفه قائلاً: «ابقوا أنتم في الخلف. سأحاول الوصول إلى طليعة جيشنا قبل أن يحاصرها الترك. وما أريده منكم هو أن تحاولوا سحب المدافع إلى ميدان القتال قدر الإمكان».

فلوّح لاجوس بيده قائلاً بنفاد صبرٍ: «أنت تعلم أنني لن أستطيع فعل ذلك، فمدافعنا ليست متحركة كمدافع الترك، لذا يجب فكها من القلعة وتثبيتها على عربات، ونحن لا نملك الوقت الكافي لذلك، ولم تبق سوى ساعتين فقط حتى غروب الشمس. اذهب أيها القائد ولا تضع المزيد من الوقت». وعلى الرغم من كل ذلك، كرر توموري تحذيره بوجهٍ قلقٍ: «اتركوا لي الأمر منذ هذه اللحظة يا مولاي، ولا تدخلوا ميدان المعركة. وإن حدث أي موقف فلا تلقوا بأنفسكم في الخطر، واتركوا المنطقة فوراً. وقد يلحق بنا أردال فويفوداسي جوناس زابوليا ويشكل دماءً جديدةً لجيشنا». فقال لاجوس بقهقهةٍ عجيبةٍ: «يمكنك أن تنساه». فوجئ توموري وقال بشيء من الحدة والغضب:

- لماذا أيها الملك؟ لماذا تقول ذلك؟ زابوليا صديق مخلص يمكن الاعتماد عليه.

صاح لاجوس هذه المرة محدقاً إلى عينيه: «أنت أعمى أيها القائد. هل كنت تعتقد أنني لم أعرف منذ البداية أن زابوليا لن يأتي؟ لو لم يكن قد باعنا لكان قد أصبح بيننا الآن بالتأكيد».

- من المؤكد أنه اصطدم مع طليعة الجيش العثماني...

ضحك الملك الشاب مجدداً، وتابع بشيء من الرضى والاعتزاز

هذه المرة: «لقد بلغني من جواسيسي أنه مرابط مع جيشه الآن بالقرب من سيجيدين. إن هذا الخائن ينتظر انتهاء الحرب، ويتقرّب من العثمانيين للإطاحة بعرش المجر بعد هزيمتنا... لكن، أقسم بالله إنني سأفسد ألاعيبه وألاعيب سليمان... فلنتخط هذه المحنة الآن، وبعد ذلك سأحاسب كل واحد على حدة».

* * *

كان الجيش التركي يواصل تقدمه بتثاقل منظم من دون أن يفقد النظام بين وحداته، فيما وقع خطواته فوق الأراضي المغطاة بالوحول يتردد في أنحاء الوادي. وظهر بال توموري على صهوة حصان أبيض يشوبه السواد، مترئساً القوات المجرية ثقيلة الدروع، وهو يصدر أوامره برفع رايات الهجوم الحمراء والصفراء التي رسم عليها رمز الأسد، وبإطلاق أبواق الهجوم. وبدأ الجيش المجري هجومه مدعوماً بالفرسان الألمان.

كنت أستطيع أن أرى من موقعي إبراهيم باشا على رأس طليعة الجيش العثماني من جنود الروم إيلي. كانت درعه اللامعة كالألماس تغطي جسمه الموفور بالصحة والشباب، وكان حذاؤه مصنوعاً من جلد الماعز. أمّا خوذة الفرس فبدت كبدر صغير نزل من السماء الملبدة بغيوم لا تمطر. وكان آغا من الإنكشاريين يقود فرسه بعناية وزهو بين الصفوف، محاولاً تشجيع الجنود وإثارة الحماسة في نفوسهم. وفجأة، أمر بالهجوم على العدو، ثم عمل على إبطاء سرعة الفرسان؛ حتى أصبحت نقطة الالتحام على بعد خمسين ذراعاً. وبعد ذلك، أمر برفع راية الانسحاب الحمراء، فانسحب الجيش من الوسط فجأة، فيما ظلّ الجناحان الأيمن والأيسر ثابتين في مكانيهما، وسرعان ما شكلا دوامةً مميتةً؛ وكأنّ نهراً هائلاً قد انشطر إلى قسمين.

لقد ثبت جناحا الجيش في موقعيهما، وتقدم المجريون بسرعةٍ

لا رجعة فيها نحو وسط الجيش المتقهقر؛ وكأنهم سيل يتجمع في قمع ضخم... أدرك توموري أن الجيش المجري وقع في الفخ الذي كان يخشى منه، وأنه مطوق لا محالة إن لم يتدارك الأمر بسرعة، فتصرف كمحارب محنك، وأمر بنفخ بوق التجمع. وإذا كانت الصفوف الأولى لقواته قد توقفت، فإن جناحي الجيش العثماني قد سارعا إلى تشكيل جدار من الجياد المدرعة التي لا يمكن تخطيها، والتي غدت كشبكة من طوقٍ حديديٍّ. ولم يكتشف المجريون حتى تلك اللحظة أن خيول الترك مربوطةً بالسلاسل.

عندما رأى توموري أن الملك لاجوس في الخلف على بعد عشرين فرسخاً يستعد بنفسه للهجوم، وأنه بذلك سيدخل دائرة الحصار، حار في أمره. وكنت أستطيع تمييز حجم تلك الحيرة... وحدث ما كنت أتوقعه، فقد أمر توموري بنفخ بوق الانسحاب... كان لا يزال يأمل أن تكون دائرة الحصار ضعيفة عند نقطة الدخول، فيعمد إلى كسرها في تلك النقطة، وكانت هذه ستصبح حملةً حقيقيةً... ولم أكن واثقاً من أن المؤرخين سيلتقطون نقطة الإنكسار الرئيسة في هذه الحرب، ويسجلونها بأمانةٍ... لكن الملك كان في ميدان المعركة يصدر أوامره بشن الهجوم من جديد، فعلت أبواق الهجوم مجدداً بين الجنود، وجعلتهم يترددون؛ فقد كانت أبواق الهجوم وأبواق الانسحاب تنفخ في آنٍ واحدٍ. أسرع توموري نحو الملك، وحذره من المدفعية التركية التي تنتظرهم غالباً في الناحية الأخرى من دائرة الحصار. ولعلي كنت سأعرف هذا لاحقاً من بلات نائب لاجوس في أسره... اقترب توموري من الملك الشاب وصاح قائلاً:

- لماذا؟ ما الذي تفعله هنا؟! لقد طلبت منكم البقاء هناك.

فصاح لاجوس بغضبٍ، وعيناه تبدوان كحفرتين سوداوين في وجهه المليء بالخجل: «لا أستطيع أن أترك جنودي وحدهم. أنت تدمر كل شيء يا توموري! يجب أن نتقدم... انظر إلى حالة الجنود المعنوية،

سيستنزف جبنك الجيش بأكمله...».

عندما رأى جنود الأناضول الموجودون في الصف الثاني في الجيش العثماني تحرك الجيش المجري إلى الأمام مرةً أخرى، تقهقروا بالمهارة نفسها، وبادر رماة الأسهم وحملة البنادق إلى تأمين الغطاء مبتعدين إلى الجانبين، وهم يعملون على تعزيز طوق الحصار. وعندما كانت الصدامات الصغيرة تنشب بين ضباط المجر على امتداد الجناحين والأتراك، كانت نيران وحدات البندقية التركية تجبرهم على التراجع بسهولةٍ... كنت أدرك حيرة لاجوس وتوموري، ولو تقدموا بسرعة لأمكنهم أن يبلغوا الطرف الثاني من دائرة الحصار، لكن وحدات مدفعية عسكر الأناضول كانت قد بدأت بقصف الوادي من المنحدرات التي توازي الصف الثاني. وفي الوقت نفسه، كانت وحدات مدفعية جنود الروم إيلي قد بدأت القصف من الناحية الأخرى، وهكذا أصبح العدو تحت قصف متقاطع من الطرفين... وفي النهاية، حدث ما كان توموري يخشاه. ولم تكن نيران المدفعية هذه المرة صادرة من صفوف المقدمة، بل كانت قذائفها تمطر على المجريين من الجهتين بأسلوب لم يستخدمه الجيش العثماني في هجماته من قبل.

هذا الموقف دليل واضح على أن السلطان سليمان خان قائد عسكري محنك... وأستطيع الآن أن أتذكر أن توموري اقترب وسط تلك الفوضى من لاجوس، وحاول أن يقول له شيئاً... لكن صدى الانفجارات المتوالية ملأ المكان، وتداخلت الأصوات في المعركة، وتلاشت تحت دوي الانفجارات. وبدأت مقذوفات المدافع بالسقوط على الأرض اللينة، وأصبحت في ظل صهيل الجياد المختلط بصليل السيوف والرماح والأمطار والوحل وكأنها حبات برد منحدرة من السماء. وكانت كتل الصخور الصماء المختلطة بالماء والطين التي يبلغ وزن كل منها حوالى 800 كيلو غرام تتناثر وترتفع في الجو حتى مئة قدم.

بدأت أجـواء هزيمـة المجريين تلـوح فـي الأفـق، وأدرك توموري أنه لن يتمكـن من إجبـار جنوده علـى طاعته حتـى يكون الملـك موجوداً معه... فرأيته يتجه إلى قائد ذي رتبة عاليـةٍ، ويقف بجواره ويقول له بعض الأشياء. فانطلق القائد بسرعة نحو فرسـان Schmerenburg، وهـم أربعون فارسـاً تحت قيادة بيتر ماركزالي. وسـرعان ما رأيتهم يتجمعون ويسحبون الراية بشكلٍ منضبطٍ رغم حدة المعركة... لم أكن أشك في أنهم سيفعلون ما أتوقعه. فقـد انطلقوا بشـكلٍ مرعـبٍ باتجاه السـلطان. كانـوا يهاجمون بسـرعةٍ وضراوةٍ؛ حيـث إنه لـم يواجههـم شـيء إلاّ وقطعوه إربـاً... ورفع القائد الأعلى توموري لواءه محاولاً تجميـع وحداته التي تتعرض للهزيمة مجدداً؛ إذ لم يكن لديهم مكانٌ ليهربوا إليه، ونشر ببراعةٍ كل الجنود الذين جمعهم أمـام قـوات الصدر الأعظـم إبراهيـم باشـا المتمركز فـي الطرف الأيمن من دائـرة الحصار... وفي هـذه النقطة، كان نهر تونـا ينعطف على شـكل الحرف S. كانـوا يضغطون علـى قوات إبراهيم باشـا مـن الخلف، وأظن أن توموري أراد أن يدفع بقوات سـردار إبراهيم باشـا إلى مياه النهر العميق، ويُحـدث توتراً فـي الجيـش التركـي. وبالتأكيـد، إن نجحت هذه المهمة التي كلف بها فرسـان بيتر ماركزالي، فإن الجيش التركي سيتشتت. وبالطبع، لا يمكن تحديد متى وكيف سيسـتولي مرض الهزيمة على نفسية الإنسـان. فالجندي الذي تـراه الآن عملاقاً يجسـر على اختـراق فرقة من الأعداء، يمكن أن ينقلب خلال لحظة إلى جبـان يفر من جنديٍّ لا يتجاوز حجمه نصف حجمـه من جنود العـدو... إنه الـدور الذي تلعبـه الظروف والوقت والمشاعر.

بدأت الوحدات التركية للمرة الأولى في تلك المنطقة بالتفكك أمام هجوم تومـوري المتـزن، لكن قوات السـيد خسـرو التي أحاطـت بقوات توموري من الخلـف جعلت تلك القـوات بين نارين... الأمـر الذي جعل رجال توموري يسـاقون إلى نهر تونـا، وهكذا وقع تومـوري في الفخ وهو

ذاهبٌ إلى الصيـد... كانت الأرض الموحلة تهبط باسـتمرار، فيما الخيول المجرية تتثاقل وترغب في طرح أحمالها عن ظهورها ثم بدأت تهتاج.

كان الخيار الوحيد المتبقي للمجريين أن يسـتلوا سـيوفهم ويواجهوا مصيرهـم. وكان تومـوري ورجالـه الذيـن ترجلوا عـن صهـوات خيولهم سـيدركون قريبـاً عجزهم عـن القتال في هـذا الوحـل العميق. فـإن كانت دروعهم خفيفةً، فإن سـيوفهم اللامعة طويلة جداً وثقيلة جداً، ولن تنفعهم في تلك الأوحال... اشـتبكوا قليلاً مع القوات التركيـة التي تتعقبهم، وهم يتراجعون نحو مياه نهر تونا الموحلة... كنـت متأكداً من أن توموري يفكر الآن بما وصل إليه بيتر ماركزالي ورجاله.

III

كان بيتر ماركزالي يمسك بلطته الحربية الضخمة ثنائية الحد التي يشبه مقبضها جذور الشجر القديم بإحكام. كان يلوّح بترسه البرونزي الكبير بيده اليسرى ببساطةٍ. لم يكن وزنه الذي يبلغ ثلاثةً وعشرين أوقيةً على الأقل يثقل عليه. وكانت سترته الواقية ودرعه التي غرز فيها عدد لا يحصى من السهام تغطيهما الدماء، ورجاله لا يختلفون عنه كثيراً... كانت ستراتهم الواقية خفيفةً، تمنحهم ميزة التفوق والسرعة في القتال، وكانت تلك السرية تتقدم، وتطوي ميدان المعركة بسرعةٍ مرعبةٍ، أوقعت الرعب للوهلة الأولى في قلوب الجنود العثمانيين.

كانت ملابس هؤلاء الجنود مختلفةً أيضاً عمن سواهم. إذ كانوا يرتدون البناطيل الصوفية الضيقة، وينتعلون الأحذية المصنوعة من جلد الثعلب الأحمر والممتدة حتى الركب... كانت ستراتهم ذات الحلقات النحاسية والزنكية منسوجة على شكل حراشف الأسماك، ومعاطفهم التي طرزت أطرافها بخيوط الذهب قصيرة الأكمام وتمتد حتى الركب، أمّا أذرعهم فكانت مغطاة بالحديد الصلب، وخوذاتهم من الحديد المطاوع على شكل الكمثرى. وكانت وجوههم المكشوفة تماماً تساعدهم على أداء مهامهم القتالية. أما رماحهم المصنوعة من خشب الدردار فطويلة وأنصالها الحديدية تغطيها المسامير الحديدة الضخمة الصدئة، وكان هذا السلاح يبدو فتاكاً أكثر من أسلحتهم الأخرى... أما الذين فقدوا رماحهم، فكانوا يحملون سيوفاً ضخمة مرعبة، يبلغ طول أنصالها ثلاثين بوصة، ومقابضها مستديرة... لم يعد ميدان المعركة مغطىً بالطين فقط، بل يعج أيضاً بمياه الأمطار والدماء والسوائل ذات الروائح الكريهة الصادرة عن

إفرازات الأجسام والجثث....

إن الذيـن لـم يخوضـوا سـابقاً معركـة حقيقيـة، وعلـى الأخـص الشـباب؛ سـيجدون حكايات البطولة والحماسـة تلـك جذابة جـداً. لكن الإنسـان عندما يرى حياته على المحك، ويرى وجه المـوت البارد، يدرك جيـداً تكشـيرة الحـرب الحقيقيـة ومعاناتهـا بعيـداً عـن متعـة الحكايات؛ لأن «المعرفـة» مع الأسـف علم سـطحي بـلا تبحر فـي معظـم الأوقات، وهي ليسـت إلا شـعوراً يصل إلى الإنسـان بطرائق متعـددة، وتختلف عن «الإدراك»؛ حيـث يشـعر الإنسـان بمشـاعر مختلفـة داخله تذكـر بصحوة الألوان اللامعة في رسـومات الفرنسـيين العتيقة. كان ألـم الإدراك يجوب عروقي وأنـا أتابع بيتـر ماركزالي وجنـوده الذين كانوا يحصـدون جنودنا؛ كفلاح سـعيد يتجول في حقله بسلاسـةٍ. وبين حيـن وآخـر، كان رجلٌ أو اثنان منهم يغرقون فـي ظلمة المـوت... هكذا هي الحـرب؛ اضطرار إلى التخلي عن أهـدافٍ يرمي إليهـا الطرفان في المعركة، ونـزول الرعب بكل أشكاله على الطرفين. والحرب هي مشـاهدة القاتل والمقتول من دون أن تعلم مـن المحق منهما ومـن المخطئ. والحرب شـعورٌ بالعـدم المخيف الذي يحل بعده الخراب، ويتسـاوى في إدراكه الغباء والـذكاء... هذه هي الحرب.

كان الوقـت قـد حـان لأتوجـه نحـو السـلطان. كان تابعي قـد جهّز لي حصانـي مع شـيء مـن العتـاد والذخيـرة والبارود فـي منطقـة محاطة بالشـجيرات على حافـة المنحدر؛ فـي المكان الذي تعسـكر فيـه الكتيبة. هرعت مع رجالـي إلى تلك النقطـة، وامتطيت الحصـان، وقلت للحراس الذيـن نظـروا إلـيّ بدهشـة «Dio vi benedica» أي يحفظكـم الـرب، وتوجهت بأقصى سـرعةٍ نحو ميـدان المعركـة، ورميت فـي الطريق لباس الراهب الأسود والحزام، وبقيت بقميصي الأبيض وبنطالي القطني الضيق رغم بـرودة الجـو والأمطـار... كان جنودنا حين يـرون الخاتم السـلطاني

يتدلى من عنقي يدركون أنني قائد خاص، ويفسحون لي الطريق.

وقبل أن يمضي وقت طويل، بلغت تلة السلطان بعد الالتفاف حول المحيط الخارجي لدائرة الحصار. كنت أتوق إلى خوض المعركة إلى جانب السلطان سليمان خان، وبعد أن تسلمت قيادة القوات الخاصة من الإنكشاري ذي الرتبة الأعلى علمدار حسين آغا، وأصبح كل جنودي متجمعين، ارتديت السترة الواقية، وحملت الأسلحة الاحتياطية، وبدأت أبث الحماسة في نفوس جنود نسق الحماية الأخير قائلاً: «إن السلطان سليمان خان أحب إلينا من أنفسنا وعائلاتنا أيها الأبطال... هيا، رصوا الصفوف ولا تخافوا، فسنرى ما هو مقدر لنا، عاقبتنا هنا. ولا يمكن أن نرى بشارةً خيراً من أن نسقط شهداء تحت رجلي خليفتنا... اليوم يوم الشرف أيها الأسود! هيا يا أبطال، واستعينوا بالله». كنت أشم رائحة الخوف المقيتة التي يضفيها الموت على الأبدان. كنت أشعر بخوفهم من أصوات السيوف والصولجانات والبلطات عند اصطدامها بالدروع البالية، وكنت أشعر أنّ خوفهم ذاك يقضي على الإيمان بوجود مستقبلٍ أو حياةٍ... كنت أرى أعين جنود العدو الذين حطموا خطوطاً كنت أظنها لا تعبر تتسع حدقاتها في يأس، من دون أن ينبسوا ببنت شفة، وهم يتقطعون إرباً مستميتين في الدفاع عن أنفسهم؛ إلا أن السواد الذي يقترب من الإنسان يوقظ فيه قوة إدراكٍ لمعنى حب الحياة التي أضاعها هباء.

كنت كأنني أستحم تحت مياه المطر الباردة المختلطة بالدماء الساخنة. أخذت بلطة حربٍ كانت على حصان اقترب مني والدم يسيل منه من جروح تسببت بها إحدى وأربعون طعنة رمحٍ، لا بد أنه كان حصان فارس مجري؛ يتضح ذلك من سرجه وكثرة تجهيزاته. أخذت البلطة في يدي اليمنى وألقيت بدرعي. كنت أحمل سيفي أيضاً في يدي اليسرى.

في هذه اللحظة، تذكرت النصيحة المعتادة المكتوبة على السيوف العثمانية: «أيها البطل المحارب، لا تثق بنفسك». كررت النصيحة التي

يجب أن يسجلها الإنسان في عقله كدستور كامل لحياته، وهمست: «الآن، لا مجد إلا مجدك يا الله، وحدك أنت وإرادتك. فأنا بعد الآن عدمٌ، بل كنت عدماً أيضاً...». كنت كأنني في مكان وزمان آخرين، أسير نحو عاقبتي من دون أن أشعر بآلام الحياة أو الضعف أو أي شيء. وانخرطت في ميدان المعركة بصيحة حرب مخيفة، لكنني لاحظت شيئاً لم يكن مهماً، ولكن كان له تأثيره الذي لا ينكر عليّ. وإذا كان قد أثر عليّ فلا بد أن يكون قد أثر على جنودي أيضاً... لم يكن جنود شميرينبرج يصيحون أو ينظرون يمنة ولا يسرة نظرات تهديدية، ولم يومئوا أي إيماءةٍ، بل كانوا كصيادين منفردين يتقدمون بلطفٍ باردٍ ومهلكٍ مستخدمين أسلحتهم... كانوا لا يهتمون بأصدقائهم الذين يسقطون صرعى إلى جانبهم، وكانوا يكافحون فقط حتى يصلوا إلى الهدف الذي يركزون عليه. ولم تكن الأمطار كافية لكي تغسل الدماء الموجودة على وجوههم وأبدانهم، وكان المشهد الأخير من هذا الجنون قد بدأ في تلك اللحظة.

رأيت محارباً لا تزال سترته تلمع يقترب مني ويقول: «لقد وصلتنا أخبار هؤلاء الفدائيين، أثابك الله يا أورخون». وعرفته عندما نظر إلي بعينيه المائلتين إلى الخضرة من تحت خوذته المشغولة بالألماس ذات الريشات الثلاث، إنه السلطان سليمان خان، فصحت قائلاً: «يا مولاي، كيف تسللتم من خيمتكم ومن بين عساكركم الخاصين الذين لا يبرحون مكانهم؟ من فضلكم تراجعوا، ولا تبتعدوا عن جنود الحماية. انظروا، إن رئيسهم يبحث عن سموكم!». شعرت بأنني أحترق من الصاعقة التي خرجت من عينيه في تلك اللحظة. وعندما تحدث مجدداً، أحزنتني نبرة الحزن الواضحة في صوته، فقد ربّت على كتفي وقال:

– أورخون جلبي، انظر هل تعتقد أن الأبطال لا ينتظرون أحداً؟! فأنا من أحضرهم إلى هنا أساساً، وأنا مسؤول عنكم أجمعين؛ وهي مسؤولية كبيرةٌ لا تستوجب الفرار، بل تستوجب الصمود، وتستوجب الهجوم على

العـدو. وإذا كان هـؤلاء الفدائيـون المجريـون سـيقتلونني، فليقتلوا رجلاً شجاعاً لا رجلاً جباناً.

- لا سـمح الله يا مولاي، وعليّ أن أشـكر الله ما دام قـد أنعم علي بنعمة القتال معك كتفاً إلى كتف. أعاننا الله.

تباطـأت سـرعة الفدائييـن المرعبـة، إلا أن قائدهـم بيتـر ماركزالـي ومعه خمسـة من الجنود الخاصين الذيـن يرتفعون وكأنهم جـدران أثرية؛ نجحوا في القضـاء على آخر خـط، ووصلوا إلينـا. وقد أصبت بسـهمٍ من سـهامهم في سـاقي اليمنى، ودخل سـهمٌ آخر تحـت الجانب الأيسـر من معدتـي بالرغم من أنه اصطدم بسـترتي الواقيـة. لكنني لم أشـعر به وقتها؛ لأن الجـرح لـم يكن شـديد العمـق، فقـد قامـت السـترة بواجبهـا، إلا أن مسـافة الرمي كانت قريبة جداً. شـعرت وكأن الخوف في هـذه اللحظة قد ملأ الدم الذي فـي عروقي بقطع من الثلـج؛ لأنني كنت أخاف أن أسـتدير لأنظر إلى السلطان سـليمان خان؛ فإن كان قد أصيب، فأنا لـم أصن أمانتي العظيمة، فكيف لي أن أسـامح نفسـي؟ لكن صـوت دنيئا لا يعـرف معنى إجلال اللحظة التي أعيشـها همس قائلاً: «هل كان والـده يتوقع وهو يقتل والدك أن حياة ابنه سـتكون بين يديك في يوم من الأيام يا ترى؟!». لكنني اسـتدرت ونظرت إلى السـلطان الذي قال وقد أدرك نظرة القلق في عيني: «أنـا بخير، أصابتنـي ثلاثة أسـهم، لكنها لم تخترق سـترتي». لم يسـتخدم العدو الأسـهم حتـى قضى علـى الخـط الأخير. وهـم يسـتخدمونها الآن بمهارةٍ فائقةٍ بهـدف توجيه ضربتهـم القاضية. كان كلّ واحدٍ من الفرسـان مصاباً، أو لـم يكن حصانه في وضع يسمح له بالتقدم أكثر. لقد كسر هؤلاء الفرسان الخمسة أقواسهم بعد أن شتتوا جنود الحماية الخاصة بنا، والذين سقط معظمهم شـهداء، وأطلقوا جيادهم نحونا مشـهرين سيوفهم... كنت بجانب السـلطان، لكنني تقدمت أمامه فـي هول اللحظـة، والتقطت حربة من الأرض، ونجحت في رشـقها في رقبة أول حصـان بالرغم من أنه كان

مدرعاً. وكنت محظوظاً لأنها كانت حربة يستخدمها فرسان الأناضول؛ وهي رفيعة وسهلة الاستخدام.

لم يتوقف الحصان لتوه، وتقدم بجسمه الكبير المحمل بالعتاد، لكن قوائمه بدأت تتعثر، وانحرف اتجاهه بعيداً عنا. عرفت أنه ماركزالي، وكان الحصان الذي يسقط صريعاً يقدم لي كنزاً ثميناً لا يقدر بثمن. إلا أن أحد الفدائيين الآخرين أدرك ما أرمي إليه فحاول قطع طريقي، وحاول ضربي على رأسي بالصولجان، لكنْ لم أكن أنا أو هو أو الحصان على أرضية متزنةٍ، فرفعت بلطتي ونزلت بها على ساق الرجل فوق فخذه، وكنت موفقاً بإصابته. وقد اتضح من الدماء التي سالت منه، وصرخات الألم التي صدرت عنه أنه وإن عاش فلن يجدي نفعاً. لكن طرف صولجانه جرح رأسي بالرغم من انحنائي في الوقت المناسب. وكان البرق قد أنار أمام عيني في تلك اللحظة، ورأيت آخر قد ترجل عن حصانه، وجرى نحو السلطان، فرميته بالبلطة التي كانت في يدي بكل قوتي، لكن طرفها غير الحاد كسر كتف الجندي، وكان ذلك أفضل من لا شيء، وتعثر الرجل بسبب كثرة الجثث على الأرض، وسقط على الوحل، فهرعت إليه، وأجهزت عليه قبل أن يستجمع قوته وينهض، وأنا غير عابئ بالبرق الذي أثارته الضربة في رأسي.

نظرت إلى السلطان سليمان خان، وفزعت عندما لم أجده بجواري، لكنني رأيته قبل أن يجتمع جنود الحراسة الخاصة. كان في المكان الذي وقع فيه حصان ماركزالي، يقف عند رأسه، ويطعنه في صدره عدة طعنات. تعرض السلطان لهجوم بائس جديد، لكنه اتقاه بحركةٍ سريعةٍ ماهرةٍ، ثم دار على أطراف أصابعه، ونزل بسيفه بفضل الدروس التي تعلمها من أفضل مدربي العالم على قفا الرجل بضربة على شكل قوس.

أما الآخر، فقد أجهز عليه جنود الحماية الخاصة قبل أن أراه... كانت الكلمات عاجزةً عن التعبير عن السعادة والفخر اللذين شعرت

بهما في هذه اللحظة؛ فالسلطان يستخدم السيف برشاقة، وكأنه قد جاء من مكان خارج كل هذا الخراب والدماء المحيطين بنا. وبالرغم من أنه لم يدخل معركة مباشرة من قبل، إلا أن القوة التي منحه إياها إحساسه بالمسؤولية تجاه رجاله قد مكنته من تحقيق النجاح، واكتسب لقب «المعظم» في أعين جنوده بجدارة.

* * *

عندما نجوت أنا والسلطان من تلك الفوضى، لاحظت أن الطرف الوحيد المفتوح في دائرة حصار الجيش التركي هو الطرف الممتد على طول الماء. وكان الجيش المجري بكامل وحداته قد تجمع حول الملك، متقدماً نحونا مهاجماً... إلا أن الرعب الذي بدا على وجوه الرجال، والإرادة والقوة اللتين تفوقان الطاقة البشرية واللتين أظهروهما خلال الحرب كانت دليلاً بالنسبة لي على أن بعض الغموض الموجود في تلك المنطقة يحبط من معنوياتهم.

إلا أن عدداً كبيراً من جنود المجر كانوا يحاولون جاهدين أن يتخذوا موقعاً متقدماً يحول بينهم وبين الوقوع في الماء... غير أن هجوم الوحدات التي كانت تحت إمرة والي إسطنبول بهرام باشا الشديد أجبر الصف الأول من جنود المجر على ترك الأسلحة وطلب الأمان... كانت الأجواء تظلم تدريجياً في تلك اللحظة، والخوف المتسلط على الجنود المساكين الموجودين في الصف الأول وحول الملك لاجوس يبدو وكأنه فم نهمٌ فاغرٌ يلتهمهم بشهية.

في ذلك الحين، كان إبراهيم باشا على رأس جنود روم إيلي، يقوم بعملية إبادةٍ من دون أن يرف له جفنٌ. توقعت أن يتدخل السلطان سليمان خان للحؤول دون ذلك، لكنه وقف طويلاً من دون أن ينبس ببنت شفةٍ، واضطر الجيش المجري الذي كان يحاول التوازن الانسحاب من ذاك المكان.

لقد توجب على كل واحد أن يستخدم أكثر من سيفٍ، وسقط في الأسر ما يقارب عشرين ألفاً، وتقدم الملك لاجوس ووحدة الحماية الخاصة بجواره إلى المياه الضحلة أولاً، ورأيناه يحاول التخلص من سترته وكل عتاده الثقيل، لكن حصانه كان ثقيلا جداً رغم ذلك، غير أنه فعل كل ما يستطيع فعله حتى نجح في الوصول مع حاميته القليلة إلى الطرف الثاني من المياه الضحلة... كنت أعرف أن السلطان سليمان خان يدرك أن الملك المهزوم إذا استطاع أن يصل إلى الضفة المقابلة فسيذهب إلى بودين ويستعين بقواته هناك، غير أنه حال دون تعقبه خوفه من أن يلقي بجنوده إلى التهلكة، فاكتفى بمتابعة الوضع برهةً.

انتظر لاجوس ومن في صحبته في المياه الضحلة لمدة قصيرة، ورأيت أن بال توموري لا يزال سالماً ويقف بجوار الملك، فأمر السلطان بإطلاق نداء يدعو فيه الملك للاستسلام، لكنه لم يلق من لاجوس الذي انكسرت كبرياؤه أذناً صاغيةً، فما كان منه إلا أن انتزع سترته، وخاض في الماء مع جنوده... كنا ندرك أنه ضرب من الجنون، وغالباً كان لاجوس نفسه يدرك ذلك.

كانت الأمطار التي تهطل بغزارة، والطين ذو الرائحة الكريهة سيمنعان عبورهم اليائس. وتحت أنظارنا، نجح لاجوس بشكل ما في السباحة إلى الضفة الأخرى متمسكاً بشعر جواده. لكن الضفة المائلة الموحلة لم تكن تعطي الفرصة لتقدم الجواد الخائر. كان الجواد يحاول، لكنه لم ينجح لنفاد قوته، وكان من الصعب أن يجد الملك مكانا يتشبث به وسط هذا الوحل المحيط به، فكان كل ما بإمكانه فعله هو التمسك بشعر الحصان... لكن الحصان المنهك انحدر تحت الملك، ووقعا معاً في الماء في صراع مع الموت... لقد رأينا لاجوس وهو ينظر خلفه بعينين يائستين، ويتابع اختفاء رجاله جميعاً في الماء بلا مبالاة. وكان توموري الذي يسير خلفه، يشير إلى ملكه أن يواصل التقدم؛ وذلك قبل أن يغرق.

لكن جسد لاجوس النحيف كان قد غرز في الطين بكامله، ووصلت المياه إلى عنقه، وبدت على الضفة الأخرى قوة عسكرية لمواجهة الهاربين، فأشار إليهم السلطان سليمان خان لإنقاذ الملك... ولاحظت أن حاكم العالم يحاول أن يخفي ارتجاف صوته ويديه.

كان من الواضح أن غرق بطلٍ شابٍّ كهذا يؤثر فيه... حاول جنود القوة العسكرية على الضفة الأخرى التقدم لمحاولة إنقاذ الملك، لكن قوائم جيادهم انغرزت بعد بضع خطوات حتى الركب في الطين. حاولوا أن يرموا له حبلاً من بعيد، لكن الوقت كان قد تأخر. وقبل أن يغرق الملك الشاب، أدار رأسه نحو الخلف، ونظر إلى السماء السوداء مباشرة في صمتٍ، ورأيت عيني السلطان سليمان خان لا تفارقان موضع الغرق لمدة طويلة محاولاً أن يخفي دموعه.

IV

ستصبح حرب موهاج الميدانية من أكبر حروب الإبادة في التاريخ. تمّ التحقق من النتيجة في الساعة الأولى، ووصلت الرسالة المرجوة إلى شارلكان بعد أن قتل معظم جيش المجر بالسيف أو غرقاً في الوحل. وبعد هذه المعركة، عرف أن المؤشر في علاقات العثمانيين مع هابسبيرغ سيكون دائماً لصالح العثمانيين، وانهارت دولة المجر القديمة التي ناهز عمرها 657 عاماً، وأصبحت الدولة العثمانية رسمياً من دول أوروبا الوسطى. وبدأ عهد الكوابيس لشارلكان وأخيه أرشيدوق فيرديناند بعد أن امتدت حدود الدولة العثمانية لتصل إلى الحدود الألمانية...

جمع السلطان سليمان خان قادته عقب الحرب مباشرة، وأمرهم بالزحف من دون توقف إلى عمق النمسا، وصدرت الأوامر للجيش بغزو كل ما يقابلهم في الطريق، على أن يحافظوا على سلامة الفقراء الموجودين في القرى والمراكز. ولم يكن أمام شارلكان إلا الاعتراف بنفوذنا أو التعرض له... وأسعد هذا الوضع الجيش كثيراً، وأنسى الجنود تعبهم وما فقدوه... ولكن، قبل كل شيء؛ كانت الجنازات ستقام عند الطرفين.

كان هناك بضعة آلاف من الجرحى في الجيش العثماني؛ معظمهم من الحرس الخاص، وخمسمئة شهيد في أرض المعركة، ولم يهلك أحد منا في ذلك الوحل المشؤوم. وأمر السلطان سليمان خان وحداته بعدم ترك أماكنهم حتى منتصف الليل، وخرج في جولة قصيرة في الجوار. كنت أعرف أنه لا يسعد بموت البشر، وتحل عليه غمامة الحزن التي تفسد عليه بهجة النصر؛ وغالباً هو في تلك الحالة الآن.

عاد السـلطان إلى سـرادقه في المعسـكر قبـل منتصف الليـل بوقت قليـل، وجلـس صامتاً تحـت أنـوار القناديـل ذات القوائـم البرونزيـة التي تنار بزيـت العنبر الذي تفـوح رائحتـه الزكية في المـكان. وكان هـو أيضاً يطبق التعليمـات التي أصدرها لجنـوده، فلم يخلع سـترته الواقية، واكتفى بالاغتسال وصلى. اسـتأذنت بالدخول، ورأيت رجل العالم يجلس صامتاً بالرغم من وجود باقي الباشاوات والسادة حوله.

هنأوني جميعاً لأنني تفانيت في حماية السـلطان. وكان السـلطان قد أخبرهم بذلك علـى الأرجح، وتقبلت منهـم التهاني بلطـف، وذهبت إلى أحد الأركان وبـدأت الانتظار وأنا نصف نائم ونصف مسـتيقظ. وبعد فترة قصيرة، سمعت صوت أبواق التجمع، وتم نصب الخيم بعد أن أمر الجنود بالاسـتراحة. وبدأ صنع الطعام في أوان ضخمة. وكان رعاة الخيم يعزفون المارشات، ويشاركون الجنود المنتصرين سعادتهم.

تناول السـلطان طعامه وسـط الجنود في سـاعات متأخرة من الليل، وتشـاور لفترة مع القـادة بخصوص الحرب. وقبـل أذان الفجر بسـاعتين، ذهب كل القادة إلى خيمهم لكي يستريحوا ويستعدوا للصلاة. واستدعيت وإبراهيـم باشـا إلـى سـرادق السـلطان قبـل الصـلاة بنصـف سـاعة. كان السـلطان قد اغتسـل ولبس قفطانـاً أرجوانياً بلـون جدران سـرادقه، وكان يشرب مشـروباً سـاخناً مصنوعاً من نباتات شـافية في كوب واسع مصنوع من الزجـاج البلوري الفينيسـي، وقدم لنا خدمـه الذين كانـوا يتجولون في المكان كالظل المشـروب نفسـه باحترام، وبـدأ صوت المطر ينـزل خفيفاً على نوافذ السرادق، والرياح تعزف أنغاماً محملة بالذكريات.

قال السلطان وهو ينهض ببطء: «مررت بإحدى القرى الواقعة خارج مركز موهاج». ونظر إلى وجهينا واسـتطرد: «فقابلني الأهالي بالورود عند مدخل القرية، إلا أن مزارعاً عجوزاً خرج من وسط الزحام، ورمى الورود من يده ووطئها بقدميه. هل دهشـت؟! هـل حزنت؟!». وحرّك رأسـه إلى

الجانبين نافياً بهدوء وتابع: «لا، لكـن الجنود كانوا قد أمسـكوا بالعجوز، فسـألته: لم فعلت ذلك؟ فقال المـزارع برجولة: نحن قرويـو ن فقراء، وقد مر بعـض الجنود فـي حقولنا التي زرعناها حديثـاً وقضوا عليهـا. فإما أن تدفع المقابل أو أشكوك.

عجبـت مـن أسـلوب الرجـل الشـجاع وسـألته ضاحـكاً: إلـى مـن ستشـكوني؟ فأجابني قائلا: هنـاك من يطلقون عليه اسـم سـليمان العظيم هنا، ويطلقون عليه في بلده اسـم قانوني... يجب عليك أن تلتزم بالقوانين هنـا وكأنـك فـي بلـدك أو سأشـكوك إليـه. كان الرجـل محقـاً، ووعدتـه بتعويضـه عـن كل الأضـرار التي لحقـت بـه». فالتفت أنـا وإبراهيم باشـا وابتسـمنا ابتسـامات دافئة لأول مرة وكأن صداقة حقيقية تجمعنا. ثم تنهد السلطان سـليمان خان وقال: «نعم أيها الملك لاجوس»، واستطرد بجرحٍ أعلـم أنه ينـزف داخلـه: «لم ينجـك الملـك، ولا ثقتـك الكبيرة بنفسـك؛ وهذه حال الدنيا، إذ يهلك كل من لا يعرف حـدوده أو يقنع بما لديه». ثم استطرد بذكر أبيات من شـعر يونس امره، يتحدث فيها عن قلبه التواق إلى شيء ما في هذه الدنيا، وكأنه يحصد حصاد السماء للأبطال الذين ماتوا... ثم تلا علينا إحدى قصائده التي نظمها حديثاً...

* * *

عقـب دفـن شـهداء الجيـش، وإتمـام المراسـم فـي 23 ذي القعـدة 932هـ، ودعهـم السـلطان سـليمان خـان العظيـم، وأعطـى إذنـاً للجنود بالاسـتراحة لمـدة يومين كامليـن، وقـدم الهدايـا، وأمر بعـلاج الجرحى، ومدت موائد الطعام الضخمة. وصحا الجو، وسـيطر على صحراء موهاج جو خريفي جميل. وأرسلت رسـائل النصر إلى أدرنة وإسطنبول وبورصة ودياربكر والشام وحلب ومصر وأفلاق وبوغدان. وكتب السلطان سليمان خان بنفسه خطاباً يبشر فيه والدته حفصة بالنصر.

وبدأ الجيش السـلطاني تحركه يوم 3 أيلول على الضفـة الغربية لنهر

تونا متجهاً نحو الشمال عقب صلاة الفجر. كانت الوجهة هذه المرة بودين. كان الجو صاحياً طوال الطريق. وفي يوم 11 أيلول، قابل السلطان وجيشه مجموعة من رجال الدين اليهود على رأسهم حاخام عجوز بالقرب من مدينة فولوورد. ووفقاً لما ذكروه، كانت ماريا فون هابسبيرغ أخت شارلكان قد تركت هي وعلية القوم والعائلات الكبيرة مدينة بودين.

وبذلك، أصبح السلطان سليمان خان حاكم المدينة، وصار سكانها تحت كنف عدالته المشهورة، وتم تقديم مفاتيح مدينة بشته التي تقع على الطرف المقابل من نهر تونا إلى السلطان في الصباح التالي في مراسم جميلة. لكن المدينة لم تسلم من النهب. وفي اليوم السادس عشر، جاء أردل فويفوداسي مع جيشه وأقسموا على الولاء للسلطان، وأعلن ملكاً على المجر كما أراد. ثم بدأنا رحلة العودة في 24 أيلول.

في الطريق، كان يجب الاستيلاء على بعض القلاع لتأمين بودين، فتم إسقاط قلعتي ساجادين وباتش على التوالي بعد هجوم قوي على كل منهما. كما تم الاستيلاء على قلعة باتشنه بعد مقاومة عنيدة استمرت أربعة أيام وفقد فيها الكثير من الجنود... كنت أعلم أن السلطان سليمان خان قد سئم من الفتوحات الأخيرة التي فقد فيها الكثيرين. وجاء في الخامس والعشرين من تشرين الأول الخبر الذي أضجره أكثر. فقد اتحد تأثير الدعاية الصفوية مع ظلم الضرائب المفروضة، فبدأ رجل تركماني اسمه بابا ذو النون تمرداً كبيراً، وهاجم منزل مصطفى بك حاكم بوزوك-يوزجات. وتعاظم خطر هذا التركماني ذي الشعر الأحمر بعد أن دق عنق مصلح الدين أفندي قاضي بوزوك.

غضب السلطان سليمان خان جداً من هذا الوضع، وأرسل بهرام باشا والي الأناضول في الحال إلى هناك ليخمد هذا التمرد. وقبل أن يدخل بهرام باشا الأناضول، زحفت القوات المؤلفة من فرقه الاستطلاعية وحكام قارامان وقيصري وإيجل إلى بابا ذو النون. لكن بابا ذو النون

والتابعين له تقهقروا إلى كورشـونلو بوغـاز القريبة من قيصـري، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالوحدات الاستطلاعية، فانتشـر التمرد في مسـاحات كبيرة بين إيجل وتوقاط.

كان السـلطان سـليمان خان يفكر دائماً في هذه التمردات الداخلية، وكان يبدو أنه سيفكر فيها لمدة أكثر طولاً. فقد كان ميل سكان الأناضول للصفويين وليس للإدارة العثمانية أمراً مزعجاً. وحـاول أن يقوم بتغييرات كثيرة في أولى سـنوات توليه السـلطة، لكنـه كان يشـعر دائماً بـأن إداريي تلـك المناطـق يفجـرون الأوضاع الحساسـة عن عمـد. فكان من السـهل إلقاء اللوم على الشيعة، وبالتالي على الصفويين، واتهام الأهالي التركمان بالجحود. لكـن، كان من الصعب تحليل المسـألة بعمق والتسـاؤل بجدية عن حالة السـخط التي لا تهدأ. وكان السـلطان سـليمان خان يقول دائماً: «تنجز العدالة ما لا ينجزه السـيف». وكنت واثقاً أنـه في كل خطواته الآتية لن يترك هذا المبدأ السامي، وأنه سيتغلب على كل المشكلات.

V

كانون الأول 1526، إسطنبول

عاد السلطان سليمان خان إلى إسطنبول بعد فتوحاته التي استمرت ستة أشهر وعشرين يوماً وهو يحمل لقب فاتح المجر. وكان يتلكأ في الطريق بانتظار خبر نهاية تمرد بابا ذو النون. وتمّ إخماد التمرد على يد بيري بك والي أضنه في منطقة هويوكلو، وتم إعدام بابا ذو النون وعصابته. كان عبد السلام شلبي مسؤول المالية يقول وهو جالس على أريكته تحت سماء الليل: «يا مولاي، عندي شكوك عميقة حول مظالم يقوم بها الكتاب». كان يرتشف مشروباً ساخناً مصنوعاً من الموالح، ويلعق شفتيه باستمتاع لأنه لم يشرب مثله من قبل. «بعض التجار يتعاونون مع الجنود بالرغم من أن دخولهم التجارة ممنوع، ويبيعون القمح الذي أخذوه من الشعب - ويخزنونه في مخازن الموانئ التي استولوا عليها من الأجانب بالإكراه - إلى الفينيسيين بأسعار باهظة. وعندما بدأت مجاعة القمح هذه المرة، اضطر القرويون لشراء القمح الذي باعه التجار بسعر أعلى من التسعيرة بما يقابل ضعف ثمنه، ممّا تسبب في المجاعة، وارتفاع الأسعار بشكل مبالغ فيه. كنتم قد أمرتم بعد حملة رودوس بتجديد رخصات الأراضي لكي تكون مصدراً جديداً وإضافياً لإيرادات الخزانة، وكان ذلك في عهد مسؤول المالية سنان باشا، لكن نتيجته كانت أن بعض كتاب الأراضي لا يخجلون من تسجيل أرض مساحتها هكتار واحد على أن مساحتها هكتاران، وبهذا تزداد الضرائب التي يأخذونها إلى الضعف، كما أنهم يتشاركون العوائد بلا خجل. والأسوأ من ذلك كله يا مولاي هو الإهانات التي يتعرض لها المتقدمون

بشكاوى لتصحيح هذا الوضع...». وظهر كبير الخدم الأخرس جعفر أفندي بلباسه الأحمر كالعادة، وأخبرنا أن الصدر الأعظم السابق بيري باشا قد جاء في زيارة كعادته.

دخل إبراهيم باشا في هذه الأثناء المجلس، ولأن الخلاف الذي كان بينه وبين بيري باشا قد زال، فاجتماع الديوان سيكون لطيفاً ووديّاً. قال عبد السلام جلبي محاولاً أن ينهي كلامه: «إن بابا ذو النون واحد ممن حاولوا دخول تلك اللعبة يا مولاي، فعندما تمّ قياس أراضيه مرة أخرى، صغرت الأراضي على أيدي الكتبة؛ ووجود الشرفاء في تلك المنطقة أدى إلى ذلك التمرد. فلم يكن القرويون يشبعون بسبب ألاعيب الإداريين، وبسبب انخفاض التسعيرة، ولم يبقَ أمامهم حلّ سوى التحول إلى مهاجمة المزارع، وأعمال السلب والنهب.. والأراضي التي تركها القرويون الآن أصبحت مرعى لحيوانات قطاع الطرق. ويشاركهم فيها من ليس لهم عمل، وتزداد المخالفات في الوطن لدرجة أنها تصل إلى استخدام طلاب الكتاتيب؛ وهو أمر يجب مناقشته باستفاضة».

بينما كان السلطان سليمان خان يستمع بتركيز، استأذن بيري باشا ودخل المجلس، فقابله واقفاً واحتضنه: «تفضل يا بيري باشا لترى الأعباء التي لا زلنا نتعرض لها». فقال بيري باشا: «يا الله! ومتى رأت هذه الدولة الرفاهية التي تراها في عهدكم يا مولاي؟!». هل كان في هذا الكلام كناية من نوع ما؟ نظرت إلى البرغالي لكي أفهم إذا كان يفكر مثلي أم لا، لكنه كان يجلس هادئاً مبتسماً كعادته وكأن بشرته السمراء قد احمرّت قليلاً وأصبحت ضاربة إلى الرمادي. فمد الصدر الأعظم رقبته وضحك قائلاً: «أنت محق يا بيري باشا، فقد توج سلطاننا أحدهم ملكاً ثم عاد إلى الوطن. وأصبح حاكماً سابقاً لعصره، وسلطان كل السلاطين». وتذكرنا جميعاً بمن فينا الملك جوناس زابوليا وهو يغرق في دمه وضحكنا.

قال السلطان: «ولهذا، إن هدفنا الآن هو القيام بخطوات هائلةٍ

لإصلاح حالة الدولة الاقتصادية المتردية؛ خطواتٍ هائلة لدرجة أنني لا أدري كيف أعبر عنها أيها الأصدقاء؟». وفي هذه اللحظة، حدث ما لم يكن أحد يتوقعه.

فقد ارتمت حرّم وكأنها قذيفة مدفع وسط مجلس الديوان، فكنا جميعاً كمن ابتلع لسانه من شدة الدهشة. كانت خلفها حاشية ضخمة تتكون من النديمات والحريم، إلا أنها بدت كسيدة شابة أصابها الجنون، إذ لم تستمع إلى أحد. نهض السلطان وقال: «أي عبث هذا؟». ونهضنا معه، وانقطعت كل الأصوات في الداخل فجأة، وكان المسموع هو صوت لهاثها فقط.

قالت السيدة الشابة ودموعها تنهمر: «لقد حاولوا قتلي وقتل ولديّ محمد ومهريماه». كانت ترتدي ملابس رمادية، وتعتمر قبعة أرجوانية داكنة فوقها ريشة. وكان شعرها الأحمر يبدو كموجات من النار، وكنا كأننا في حلم يقظة. اقترب منها زوجها السلطان وسألها: «من؟». وأمسك حرّم من كتفيها ونظر إلى عينيها متسائلاً بصوت هادئ: «من يجرؤ على أن يضرّك يا حرّم؟». فساد صمت رهيب عقب هذا السؤال. فأفصحت فجأة بصوت يشبه العاصفة الدوارة التي تمزق عنان السماء عن الفاعل برأيها، فيما كان صوت السلطان سليمان خان قلقاً وضجراً بوضوح هذه المرة. نظرت حرّم إلى وجوهنا واحداً واحداً، وقالت بتعبير حاد فيما شعّ الغضب من عينيها الزرقاوين اللتين اتّسعتا: «ومن يمكن أن يكون غيره؟». وأشارت إلى إبراهيم. فأغمض السلطان عينيه ثم فتحهما وأخذ نفساً عميقاً، وقال بطريقة تشير إلى صعوبة تحكمه بصبره: «عودي إلى غرفتك فوراً». فهمست حرّم بصوت لا يزال هادئاً لكنه كسحابة مليئة بالمطر: «أنتم لا تصدقونني...». واستطردت بصوت حزين: «لا تصدقونني لكنكم تصدقون كل ما يقوله...». «من فضلك يا حرّم لا تفعلي هذا الآن...». كانت السيدة الشابة متزنة وقالت: «فلتأمروا أطباءكم بفحص

كوبي... فلتجعلوهم يفحصون أواني الطعام والشراب الخاصة بأولادكم لتعرفوا...». «ما معنى هذا كله يا حرّم؟». فأشارت إلى إبراهيم وقالت صائحة: «إنه يريد أن يسممنا جميعاً». وحان الآن دوري، فقلت بشكل حاد لا يتماشى مع هدوئي المعتاد: «يا مولاي، لقد رأيت إبراهيم باشا في وقت متأخر من الليلة الماضية، كما رأيت مجموعة من التتار يعسكرون قريباً من قصره وأمرت بإحضارهم. وكان أحدهم يحمل سموماً كثيرة على شكل بودرة أو سائل، واعترف أنه يبيعها وما يشبهها إلى إبراهيم باشا منذ سنوات». نهض إبراهيم باشا وقال: «مولاي!». كانت الدهشة تبدو واضحة على وجهه الأسمر الوسيم: «أنا لا أعلم شيئاً عن هذا». لكنه صمت عندما نظر إليه السلطان بنظرته التي تطلق ناراً.

كان أصدقائي الجواسيس المقربون من رئيس اتحاد قوارب الصيد على علاقة بجواسيس القرم؛ وقد أمسكوا بالتتري في أثناء عمليات التهريب التي كانت تمر عبر ميناء يني كابي، وأخبروني بذلك منذ الأيام الأولى.

كان التتري الذي ضبطت معه كمية من المخدرات من زهرة اللوتس قد اعترف فوراً أن لديه الكثير من العملاء في إسطنبول وعلى رأسهم إبراهيم باشا. وكنت أحتفظ به كورقة رابحة هامة منذ ثلاث سنين. كنت أخطط مع حرّم لتوريط إبراهيم في المكيدة التي نصبها هو، وكنا نحتفظ بهذه المعلومات وأولئك الشهود منذ فترة طويلة. وكانت أدلتنا ستؤثر في قرار السلطان سليمان خان بسبب حبه الشديد لحرّم؛ لدرجة أن إبراهيم كان سيدفع ثمناً باهظاً بسبب الخطوات الجريئة التي خطاها ضدنا أنا وهي.

لكن، لو حدث غير ما أتوقعه، فلن أستطيع أن أنجو بنفسي من هذا الأمر مطلقاً. وشعرت بندمٍ مصحوبٍ بالدهشة في داخلي لم أشعر بهما قط في حياتي. فقد كنت منغمساً في أمرٍ كبيرٍ هذه المرة، وإن لزم الأمر

فإلى متى ستتمكن حرّم من الدفاع عني؟!

وفي هذه الآونة، دخل سليمان أفندي ورمضان جلبي وبعض أفراد الحماية الخاصة إلى حضرة السلطان. فقلت وأنا أحاول أن أدفع بذكائي إلى أقصى درجاته:

- مولاي، هذا التتري الفقير هو أحد المسؤولين عن تجارة تهريب الأشخاص إلى داخل الوطن، وهو من باع السم إلى إبراهيم باشا.

فأجاب إبراهيم: «أنا لا أعرف هذا الرجل، ولا يوجد عندي سم أو ما شابه... فالسم يا مولاي لا يوجد إلا عند طبيب القصر».

فقلت: «لديه نوع خاص من السم، لكنه كان سيظهر كما لو أنه سرق من خزانة الطبيب صنع الله أفندي. وكان قد مهد للأمر حتى تقع المسؤولية علي أنا ورجالي بسرقة شيء خطر كهذا، وعرض رشوة كبيرة على الرجال الذين أثق بهم كثيراً، ومنهم عمر فهمي وأرطغرول أفندي لكي يشهدوا ضدي».

فصاح إبراهيم برعب واضح: «لا يا مولاي، إن هذه مكيدة. أنا أسقط في مكيدة الكلب وهيمي هذا. من فضلكم لا تسمحوا بهذا يا سلطاني...».

فاستطردت من دون أن أتخلى عن هدوئي: «سوف يدعي شراكتي مع السيدة حرّم في التخطيط لذلك، وسيحاول أن يقنع سموكم أنكم تطعنون في ظهركم من أقرب الناس إليكم».

- «سأحاسبك على ما تفعله يا وهيمي». كانت عيناه حمراوين كالدم بكل ما للكلمة من معنى، وتحول لون وجهه إلى لون التراب.

تبسمت بخفة مقتنعاً أنني ألعب دوري بمهارة كالمعتاد وقلت: «لكن هناك تفصيلاً صغيراً لا يعرفه أحد يظهر هنا. فقد غير التتري اعترافه في أثناء التعذيب، واعترف أن السلطانة ماهي دوران هي من رتبت كل ذلك».

وأمرت التتري أن يتحدث.

فاستطاع الرجل بصعوبة أن يقول: «نعم». بعد أن أصبح لا يرى الجلادين أمامه، ولا يسيل الدم من وجهه وشفتيه.

فضحك السلطان سليمان خان بألم، وقال: «إنها ماهي دوران إذاً. وفي هذه الحالة، يجب أن تكون وإبراهيم شريكين، ما دام إبراهيم قد عرض رشوة على رجالك».

فسبقتني حرّم قائلة: «لقد كان يحقد عليّ وعلى أبنائي منذ مدة طويلة». وأضافت وكأنها لا تعلم شيئاً: «لم يستطع أن يتقبل كوني زوجتكم... وفي النهاية، دبر ذلك ضدي أنا وأولادكم».

سيطر على المجلس جو من الغموض والسكون في ذلك الوقت. كنا ننتظر الحكم الذي سيصدر من بين شفتي السلطان اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة مصحوبة بالألم. فقال بصوت هادئ:

- هيا، فليذهب كل إلى عمله. استقبلوا بيري باشا بأفضل شكل ممكن فهو ضيفي على العشاء. لا أريد أن أفقد سعادتي بعد انتصارنا العظيم. افعلوا كل ما تريدونه، لكن لا تنسوا أن روحي وأرواح أولادي ملك لله وأمانة عنده. فلتتذكروا هذا جيداً وأنتم تحفرون القبور لبعضكم وبالتالي لي أيضاً. أعلم أنه ليس بينكم بريء. أنتم تحاولون أن تخنقوا بعضكم بعضاً من أجل الحصول على السلطة لبضعة أيام في هذه الدنيا الفانية. لكنني أريدكم أن تفكروا: هل كنتم تستطيعون أن تلعبوا هذه الألاعيب لو كان والدي حياً؟ كلمتي الأخيرة هي: لا تجبروني على اتخاذ تدابير متشددة مثل والدي، ولا تجعلوني ضحية لرحمتي، لا تفعلوا هذا...».

الكلمة الأخيرة
(السلطان سليمان خان)

أتقدم متأرجحاً وأنا أسير فوق خيط رفيع يمتد بين حلم وآخر من أحلامي. تكبر الاحتمالات في ذاتي، وتعرض ذكريات تخص وجوهاً وأقوالاً قديمة داخلي؛ مشهداً مشهداً. وأحمد الله لأنني قادر على كبح ألم وحدتي الموجودة خلف هذه الجدران العملاقة المنسوجة من ألف خيانة وألعوبة في مثل هذه الأوقات. لكنها الحقيقة أيضاً، إنني لم أطلب هذه الوحدة بل أكرهت عليها.

كلما ازدادت قوتي، لم تسمع أذناي شيئاً غير غمغمة الضباع المتعالية ممن حولي، تصاحبها خطوط وجهي في إطار المرآة القديم، تزداد شيئاً فشيئاً. لكن، بالرغم من أن الذئاب يريدون أن يقطعوني إرباً إرباً وأنا حي، فأنا أشعر أنني أسمو متمسكاً بالاحتمال السعيد الذي يكبر داخلي، وأقول لنفسي: «ما دمت مكرهاً على الحياة فهذه هي. يجب علي أن أكون شخصاً يستطيع التأقلم بوعي مع التنافر الذي تولده الحياة؛ تماماً مثل أسطورة سيزيف».

أمامي جبل عظيم، وأنا مجبر على أن أرفع صخرة كبيرة إلى قمته. والأسوأ من ذلك، أن الصخرة لا تستقر على قمته، بل تسقط في كل مرة إلى الأسفل ويجب عليّ أن أتحمل ذلك. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتوجب عليّ أن أكافح للصعود إلى القمة ويداي ملطختان بالدماء وظهري مغطى بالعرق؟ كيف لي أن أتأقلم مع هذا الصراع الذي لا يعرف نهاية؟ أما الجواب، فكان في أعماق وعيي، بما أنني استطعت أن أدرك أن الحياة الدنيا مكان صراع قصير ومؤقت لأقصى درجة، فأنا أشعر في أعماق

قلبي بتفاهة هذا الصراع، وأحمل الضغينة ضده. وهذا هو سبب الابتسامة المرتسمة على شفتي، والتي تركها صراع من حولي الذين يكادون يخنقون بعضهم بعضا من أجل السلطة. وها أنا أذكر الآية العشرين من سورة الحديد في مثل هذا الموقف:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

وقبل أن أغطّ في سبات عميق قصير، هناك مكان أخضر يمكن أن ألوذ إليه في الفاصل بين النوم واليقظة؛ مكان ذو مياه شفافة تغسل الشواطئ المرجانية بلطفٍ. وهنا عالم مختلف بدرجات الضوء ولون السماء الخيالي يربط يومي بغدي... وأكبر دليل على وجوده أنه ساكن عميق مثل المحيط.

الغريب في الأمر أنني هنا أيضاً وحيدٌ للغاية، لكنني أشعر داخلي بالحب، وقلبي ووحدتي مفعمان هذه المرة بالحب. هذا هو الحب الوحيد الصافي بلا أكاذيب، وهذه الدنيا الواقعة فوق الرمال الذهبية التي أنشرها تخلد إلى ركن في قلبي وتدور رويداً رويداً... تسخن من حرارة الشرارات، فأرتعش بدهشة لأن جزءاً مني لا يزال مرتبطاً بالدنيا. لكنني أشعر فقط... أشعر فقط بحبّهحتى النخاع...

أوقاي ترياقي أوغلو

ولـد فـي مرسـين عـام 1972، وأمضـى طفولتـه فـي (أرن كـوي – إسـطنبول)، تفتحـت عيناه فـي عالـم الأدب من خـلال القصـص... ترك جامعة بلكنـت عام 1994 قبـل أن يتم دراسـته فيهـا ليتفرغ لعالـم الأدب. أحب دائماً العيش في البلاد الأجنبية البعيدة والغامضة.

كانت **دعوة الظلام** من إصدارات دار بيان أولى رواياته الأدبية، والتي نال عنها جائزة أفضل رواية لعام 2002. وصدرت روايته الثانية **الظلال** عام 2004، أعقبها برواية **ليالي ألف عـام** 2005، كما لقيت روايته **حصار** 1453 عـام 2009 مع روايتيـه الأخريين **القانوني ويـاووز** اهتماماً كبيـراً لدى قراء الروايات التاريخية.

مؤلفاته:

القائد (2009).

الحصار 1453 (2009).

ياووز (2009).

مراد الرابع (2010).

مولانا (2011).

عبد الحميد (2011).

القانوني السلطان الأول (2012).